وردة

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء فى ماضى الحقب الى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيى بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثانى وتصورها له تصورا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب ويعجب لعظمتهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التى علت بهم فوق شعوب الارض طرا فى زمنهم

ابرزها من الآثار القديمة واوراق البردى الدكتور جورج ايبرس الالمانى

ونقلها الى العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الثانى

طبع

بالقاهرة فى سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ — ١٩٢٧ ميلاديه)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برياسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكتبات الشهيرة. والثمن ٣٠ قرشا صحيحا

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

BOBST LIBRARY
3 1142 01199 6124

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL *		

108385

NEW YORK UNIVERSITY
Elmer Holmes Bobst
Library

Donated by
the Massoud Family
of Egypt and the United States
in honor of
YEHIA MASSOUD
and
MUHAMMAD MASSOUD
from whose library this book comes

Ebers, Georg Moritz
"
(Wardah)

وردة

رواية مصر الخالدة

ترجع بالقارىء فى ماضى الحقب الي ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة فيحس اذ يتلوها كأنه يحيي بحياة المصريين في عصر رعمسيس الثانى وتصورها له تصويرا محسوسا فيشعر كأنه يرى معجزات الحضارة المصرية في العلوم والفنون والآداب ويعجب بعظمتهم الحربية وانظمتهم الاجتماعية والسياسية والادارية ويستطلع مكنون اسرارهم الكهنوتية ويلم بالاسباب التى علت بهم فوق شعوب الارض طرا فى زمنهم

ابرزها من الآثار القديمة واوراق البردى الدكتور جورج ايبرس الالمانى

ونقلها الي العربية بترجمة جديدة

محمد مسعود

الجزء الثانى

طبع

بالقاهرة فى سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٢٦ — ١٩٢٧ ميلاديه)

تطلب هذه الرواية من مترجمها برياسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣
وبالمنزل تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكتبات الشهيرة. والثمن ٣٠ قرشا صحيحاً

011996124

OCT - 9 1986

~~PT~~
~~1852~~
~~.E5~~
~~U212~~
~~1928~~
~~vol. 2~~
~~c. 1~~

PT
1851
.E5
U212
1928
v. 2

الجزء الثانى

من رواية وردة

الفصل الاول

مكائد ومصائد

كانت المدينة فى هرج واضطراب والاهلون فى ذهوب وإياب ، ينصبون منها الى المرفأ فينزلون فى الزوارق ويشقون بها سطح الماء ، قاصدين الى الضفة الاخرى حيث المنظر أجدر بالاعتبار وأحرى . وكان الباعة وأعيان التجار بمدينة الأموات يتنافسون فى نصب السرادقات وتزيينها من الزينات ، بما يلفت النظر ويحير الفكر . ذلك لأنه كانت ستقام فى الغد شعائر الاحتفال وتخصص الزوارق لنقل المتفرجين من رجال ونساء وأطفال . وكان الهرج داخل بيت سيتى مثله خارج الباب ؛ ولئن تكن معجزة قلب آمون قد انصرفت نحوها العيون ، وصرفت الهمم عن اعداد معدات الاحتفال بعيد الوادى ، إلا أن الكهان والطلاب أتموا بالليل ماأغفلوه من هذا الباب ، فكنت ترى فريقاً يتمرنون على إنشاد الاغانى الدينية وآخرين يمثلون فوق

البحيرة المقدسة رواية هيراطيقية [١] وجماعة غيرهم يفرغون على تماثيل الآلهة الحلي والحلل [٢] وطائفة يدهنون بالالوان الرموز المقدسة التى تقادم عليها الزمان ، ثم يعرضون للهواء جلود الفهود وثياب الكهان ، ويخرجون من الخزانات المجامر والمحاجن والشارات والرموز وزورق الاحتفالات المقدس والمشاعل والآلات الموسيقية وينسقون كل هذا فى المواضع اللائقة به [٣]

وكان الاطفال يضفرون الاغصان لتزيين الجدران ، ويرصعون بالزهر الاكاليل لتتحلى بها التماثيل ، ويرفعون الرايات الى أعلا الادقال والساريات ، ويفرشون الارض بالبسط الفاخرة وينثرون فوقها الازهار الزاهرة . وكان مفتش القرابين وبعض الكتاب يحصون فى السجلات ما قدمه أهالى طيبة والاقاليم [٤] لهيكل سيتى من الهدايا والهبات ، من حبوب وماشية وما اليهما مما لا حصر لعدده . أما أمينى فكان يشرف على هذه الحركة مراقباً ومرشداً ولم يهمل شيئاً ، فكان تارة

---

(١) كان فى كل هيكل لقدماء المصريين بحيرة مقدسة . وذكر هيرودتس فى الجزء الثانى من تاريخه ماراآه فى بلدة (صا) من تمثيل الكهان للروايات ليلا بالقرب من بحيرة (بيت) المقدسة وقال انهم كانوا يسمون الروايات بالاسرار الواجب كتمانها

(٢) يدل على أن القدماء المصريين كانوا يكسون التماثيل بالحلل الفاخرة ويزينونها بالحلى النفيسة ما وجد على بعض هذه التماثيل من المسامير التى كانوا يثبتون الحلل بها عليها وكانوا يكسونها بها ثم يجردونها منها بطقوس واحتفالات خاصة موضحة فى قانون الاحتفالات الدينية وتحتوى نقوش هيكل أبيدوس (المرابة المدفونة) التى نشر ماريت باشا ترجمتها معلومات كثيره تتعلق بتلك الاحتفالات لكل منها معنى رمزى خاص به

(٣) يؤخذ من الرسوم والنقوش البارزة المحفوظة الى الآن فى بيت سيتى (هيكل القرنة) ان هذا الزورق المقدس كان يسميه قدماء المصريين بسفينة سام

(٤) تدل النقوش التى بالجانب الشرقى من هيكل القرنة على أن الوفود كانوا يأتون من اقاليم الوجه البحرى الى طيبه لشهود الاحتفال بعيد الوادى

يرى بين المنشدين ورجال المعجزات الذين يبهتون الناس بغريب الاعمال وطوراً بين المنوط بهم تدبير الأماكن لجلوس والى مدينة طيبة وانبيائها ووفود الامة المصرية الآتين من قاصى انحائها . ولم يغفل على الجملة شيئاً حتى مصابيح الزينة ومجامر العطر الموضوعة فى كل مكان لتعطير أرجاء الهيكل . وإذ تأكد من حسن النظام واستقامة الامور استدعى اليه فى الحال الشاعر بنطاؤر .

وكان هذا الشاعر اللبيب قصد غرفة نبسشت الطبيب بعد أن ودع الامير راميرى على أثر طرده من الهيكل ، فألفاه بها في قلق وانزعاج لم يسبق له مثلهما ، لانه كان لا يكف عن السير فيها مسبهلا من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، يتأمل فى قنيناته تارة وطوراً في أقفاصه ، وينحي بقدمه آونة بعض حزمات النباتات الجافة ويضرب المناضد أحياناً بكفيه ضربا مسرفا . فلما شهد بنطاؤر ذلك أنشأ يقص عليه ما رآه فى غرفته من الفساد والاختلال إذ ألفى الطيور المحبوسة فى الاقفاص ميتة والقرد قد التمس لنفسه مخرجاً من محبسه والافاعى والحشرات الاخرى التى جعلها موضوع أبحاثه العلمية قد ذهبت بددا . ثم شرح حادثة القرد فقال :

ما أخبث هذا الحيوان ! قلب الآنية التى تحتوى الجعلان وصندوق الدقيق المعد لغذاء الطيور ، وألقي من النافذة ما وجده من المدى والمجسات والأبر والاقلام والبركارات . ولما دخلت الغرفة أتعرف اين رأيته . . رأيته بأعلى هذه الخزانة ، وقد استحال لونه الى أبيض

ناصع ، لانه تمرغ فى الدقيق فصار كعبد الطاحون . وأمرّ من هذا وأدهى أننى وجدت فى يده كراسة كنت أدوّن فيها مشاهداتى وملاحظاتى واستكشافاتى فى تركيب أعضاء الحيوانات ووصفها . وهى خلاصة أبحاثى فى بضع سنوات . وقد حاولت أن اقبض عيه ، وكان يقلد حركاتى فى تلاوته تلك الكراسة ، فما كان منه إلا أن اندفع بوثبة شديدة خارج النافذة ووقف بحافة البئر وأخذ يمزق ورق الكراسة ويلقى به فيها ، فاشتد غيظي وطار عقلى فوثبت خلفه من النافذة للقبض عليه ، فما كان منه إلا أن استقر فى احدى دلوي البئر وأخذ يهوى بها الى القاع فجذبت الحبل لأرفعه فيها الى ظاهر الارض ، ولكنه وثب منها وهوى الى القاع ، وفى يده بقية الكراسة المكتوبة بخطى . . قال بنطاؤر : إذن مات غرقا ذلك الحيوان المسكين ! قال نبسشت : كلا لأننى رفعت الدلو ثانياً اليّ وهو فيها وعرضته لأشعة الشمس ، فلما جف أكل بعض العقاقير والادوية فمات ظهر هذا النهار ، وماتت معه الحقائق العلمية التى قيدت فى كراستى أوابدها . نعم ، ان جملة من تلك الابحاث والملاحظات ما برحت عندى ولكنى أرى أنه لا غنى لى عن تكرار التجارب والابحاث التى سبق لى القيام بها . وانك لتستخرج من هذه الحادثة أن القرود كالرجال يعارضوننى فيما أقوم به من الاعمال .

طابت نفس بنطاؤر الى سماع هذه النادرة اللطيفة ، الا أنه شاطر صديقه الحزن على فقدان الكراسة الفريدة فى بابها ، ثم جال بضميره

خاطر جعله يقول : إذا كانت جثة الحيوان لا تزال موجودة فلم لا تضعها فى مصلى توت بالقرب من خزانة الكتب ؟ ألا تدرى أنه من القرود المقدسة التى يشبه رأسها رأس الكلب . . ثم ان امين خزانة الكتب ما أودعك القرد إلا لتعالج له عينيه فهل ذهب عليك أنه سيطالبك به ؟[١] قال نبسشت : أما العلاج فقد تم وشفي القرد . قال بنطاؤر : وأين جثته . . ألا تدرى أنه ربما طالبك بها ؟ قال نبسشت ، وكان فى كلامه كالطفل الذى يحاسب على تفاحة أكلها : أو ترى أنه يطالبنى بها . . قاطعه بنطاؤر : يلوح لى وهو الارجح أنك شرحت الجثة . قال نبسشت : نعم شرحتها وقطعت القلب للبحث فيه . قال بنطاؤر : أنت فى جرأتك على فحص القلوب كالمرأة التى تغزو قلوب الرجال .. أو تستطيع أن تخبرنى بما آل اليه قلب الرجل الذى أعطاكه الشيخ بينم ؟ فروى نبسشت كل ما حصل ولم يكتم شيئاً إذ ذكر ما كان من مجازفة الرجل بنفسه واعترافه بان البحث الدقيق فيه لم يوصله الى حقيقة علمية جديدة ثم قال : ولعله قلب حيوان لا إنسان . على أنه لا بد لى من درسه وفحصه من احدى نواحي العلم الاخرى ، ومقارنته بغيره من القلوب . واعلم ياصديقي انى انتويت مغادرة هذا المكان للدخول فى طائفة المشرحين . وليس فى قدرة مخلوق أن يرد قنى بالعدول عن هذه النية ، مع مافيها من بواعث السقوط الى الدرك

---

(١) كانت القرود توهب للاله توت وقد وجدت فى موميات طيبه (وهرموبوليس) صور هزلية تمثلها وهى مشتغلة بالقراءة وعلى جدار هيكل ايزيس (أنس الوجود) صورة منها

الاسفل من الاجتماع الانسانى . قال بنطاؤر : لاشك عندى فى أنك تهذى ولا تقول حقا . قال نبسشت : لك أن تعتقد ماتريد وليس فى اعتقادك مايرجع بى عن تنفيذ ما اعتزمته . قال بنطاؤر : ان فى شغفك بتشريح القلوب وشق الجثث ماتشمئز منه النفس وينبذه الذوق ولا يقره الطبع . وحيث انك لم تستفد شيئاً جديداً من بحثك فى القلب كما تقول ، فلم تكلف نفسك عملا لاخير فيه ؟ قال نبسشت : ليست نتيجة بحثى ، حسناً أو قبحاً خسارة أم ربحاً ، مما يهمنى شأنه . لأنى لاأقصد بأبحاثى وتحقيقاتى إلا الحقيقة المجردة وما يمكن أن ترمي اليه من فائدة للنوع الانساني . قال بنطاؤر : من قولك هـذا يؤخذ انه لا يعصمك من العبث بالامن والاضرار بالناس عاصم من ضميرك مادمت معتقداً أنك بالطموح الى استبطان خفيات الاسرار ترضى شهوات نفسك . بل بلغ من أمرك انك مع اضرارك بالناس عامداً تلحق الضرر بذاتك فتطلق مهنتك الشريفة لتمارس عملا ليس من ورائه الا السفال والهوان مضحيا فى ذلك بما نسميه نحن الحقيقة والضياء والطهر . هشّ نبسشت لسماع هذه الكلمات بينا كانت تبدو على بنطاؤر علامات الغيظ والغضب إذ اصفرّ وجهه ووشجت عروق جبهته أنفة وكبراً ، وقال للطبيب بلهجة حادة : أيها الغافل المغرور . . أخطر ببالك أنك ترى بعينيك وتلمس بيديك تلك الحقيقة الخفية بل السر المكنون الذى عز مرامه منذ الاجيال على فحول الرجال . . ألا تدرى أنك بأصرارك على الفحص فى الثرى كما يفعل النوكى والمعتوهون تهبط بنفسك الى درك الاغبياء والبلداء .

أما كان خليقاً بك أن توسع نطاق معلوماتك بدلا من ان تحصرها فى أضيق الدوائر . . حذاريك وأنت تجرى وراء الحقيقة الوهمية التى لاح لعينيك بريقها فترك سناؤها أن تزل قدمك فى مزالق الخطأ والغرور ، فتتعذر عليك الاقالة وتصير الى اسوأ حاله . .

قال نبسشت : ما الخبر يا صديقى . . أرأيت لو اننى ملكت الحقيقة من ناصيتها أكنت أكلف نفسى مؤونة البحث عنها وتتبع آثارها . . اننى كلما أمعنت فى البحث وأدمنت المراقبة أحست نفسى ضرورة التوسع فى العلوم . قال بنطاؤر : لست كما تعلم من تخدعه ظواهر تواضعك وحلمك ، لأنى عالم بماهية الغرض التى ترمى اليه بوضعك من خطورة الابحاث التى تفرغت لها وتوفرت عليها . أنت لا تسلم بوجود شيء ولا تقر بحقيقته مالم تلمسه يداك وتنظره عيناك . رسخ هذا الاعتقاد فى نفسك فلم تجعل لاعتقاد غيره سبيلا اليها وملك عليك ارادتك فأصبحت منه كمن يرضى البقاء ما عاش فى سجن جدرانه المشاعر الخمس ، ولكأنى بك قد غفلت عن حقيقة من أمهات الحقائق وهي أن من وراء المادة الواقعة تحت هذه المدارك ما يسمونه « ما بعد الطبيعة » . قال نبسشت : ولكن هاءنذا أراك لا تحيط علما بشيء منه . قال بنطاؤر : أو تجهلنى وتجهل نفسك ونحن من المطلعين على الاسرار الكهنوتية ؟ . . انه منذ صنع قائم الذات ومفيض الخيرات هذا الوجود بباهر حكمته ادرك الانسان طبيعة المادة التى تجحد علي وعلى نفسك العلم بسر تدبيرها وقوتها المحدثة . ولست فيما أسوقه اليك من اسرار

ما بعد الطبيعة مبتدعا ولا مخترعاً بل ناقلا ومعلماً على الملأ نتيجة بحث الأمم الغابرة ، وهى ثمرة جهودهم التى توارثتها الاعقاب على ممر الدهور والاحقاب . . حقا ان علومنا ما برحت ضيقة الدائرة ولكن ألم يظهر فى الشعوب أنبياء صفت طبائعهم وسمت أحوالهم وولهت أذهانهم فاطلعوا على صحيفة المستقبل وأحاطوا باسرارها من غير قياس على الحاضر المشاهد أو الماضى المعروف ؟ ألم يبرز من بين الهمل وأفناء الناس من أتوا بمعجزات أدهشت العالم وامتدت نحوهم بسببها الاعناق ؟ كل هذه المعجزات وما أشرنا اليه من الانباء بمستقبل الحادثات مخالفة فى ذاتها للنواميس الطبيعية ، الا أن خروجها عن طور النظام المألوف لا يستدعي انكار وجودها . وليس أقبح فى نظرى ممن ينكر وجود ما لا يقع تحت المشاعر والادراك . . ان روح الالوهية منبثة فينا انبثاثها فى الوجود فاذا اعتبر الانسان من ناحية الجثمان فقط فلايكون كفؤا لاحراز قصب السبق فى العلوم العالية أما اذا انفك من قيود الجثمان وحوم فى مسابح المرئيات الالهية وتسامى عن أوطان الحدثان لسماع صوت الوحدانية فقد تجاوز الشأو وبلغ من المدى غايته القصوى . واعلم ان الانبياء وأصحاب المعجزات لم يسطع عليهم سوى شعاع واحد من ذلك الضياء الاقدس بل قطرة واحدة من مسجور بحار العلوم اللدنية والقوة السرمديه التى لا حد لها ولا نهاية . . . قال نبسشت خلنا من هذا الكلام ودعنا من الانبياء والمعجزات . قال بنطاؤر : كنت بادىء ذى بدء أعتقد أن نواميس الطبيعة التى أخذت

نفسك بالبحث الدقيق فيها تكشف لك وجوه عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات ، فلم إذن تجحد مظاهر الوحدة الربانية فى هذا الكون ؟ألم تكن نفس الانسان بحراً بعيد القرار ، ألا تتعرض جسومنا لما لا يخطر فى الوهم والخيال من شواذ الحادثات ؟ أما رأيت اليوم رأي العين قلب الكبش المقدس . . قاطعه نبسشت وقد احتدم غيظا : اعلم ياصديقى أن هذا القلب إنما هو قلب كبش هزيل اشتراه جندي ثمل بل رجل دنس بثمن بخس دراهم معدودة . ثم وضعته سراً يد مخنط حقير فى صدر نبيك المقدس رونى . . أعلمت وأدركت ؟

قال هذا وعمد الى الخزانة ففتحها وأخرج منها جثة القرد وطرحها أرضاً ، ثم تناول آنية من حجر النهاء كشف عنها الغطاء وقال : رأيت رأي العين هذه العضلات المغموسة فى الماء الملح . . هذه المادة التى لا حراك لها كانت ناعمة بنعمة الحياة والحركة ، وكانت فى صدر رونى متأثرة بمختلف المؤثرات لما كان سيال الحياة ساريا فى جسمه . . وان تعجب مع هذا فعجب أن تقوم الامة وتقعد غداً لقلب الكبش وأن يحمله السذج والبسطاء فى الموكب بأطراف الأنامل كما يحمل على الاكف القائد المنصور . ولقد كان بوسعى أن ابتك هذا السر من قبل لولا ما وعدت الشيخ بينم من الكتمان . . ولكن ما ذا عراك وبمصابه دهاك ؟.

كان بنطاؤر فى حديثه مع صديقه موليا عنه بجانبه يئن أنين الثكلي ، ففهم نبسشت أنه تأثر بما سمع من قوله فدنا منه بحركة الغلام الذى يحس بوقوعه فى هفوة ولا يجسر على طلب الصفح لنفسه ، ثم ظل واقفاً خلفه

متردداً حائراً حتى نهض بنطاؤر وبسط يديه نحو السماء وقال :

« إلهى أنت الواحد المتفرد بالبقاء المتوحد بالعزة والثناء ، أنت مسير النجوم والكواكب فى مسابحها الابدية بمقتضى ما وضعت لها فى سابق علمك من النواميس الثابتة والقواعد السرمدية ، فلا تلجأ الى الراحة والسكون أبد الآباد . (١) أنت تلقى الشهب ، ليالى الصيف ، من أوج الفضاء الذى لا نهاية له وتعلم أسرار الكون وتضع أمامى من الامثال ما استجلى منه الصدق والكذب ، أحدهما فى أحسن رواء والثانى فى أقبح الاشكال ، فتجنح نفسى الى الحقائق وتميل عن المفتريات . أفض نورك على نفسى وابعث شعاعاً منه الى فؤادى اهتد به الى الرشد فى عملى والحقيقة فى قولى فأكون دائما سالكا مسلك الحقيقة الابدية ساعياً اليها بجميع قواي » .

قال الشاعر ذلك بعبارة شديدة التأثير فى النفس ، وكان نبسشت يصغى اليه كما لو أنصت لصوت منبعث من مكان يجهله أو لوسواس هاتف لا يدركه البصر ، فتجلت لنفسه المضطربة محاسن ما بعد المادة فدنا من صديقه ومد اليه يده فضغط عليها بنطاؤر بعد إذ تناولها ضغطا شديداً وقال : ما أشد لفحات الحزن الذى أحرقت ناره فؤادى ! أنت تعلم مكانة الكاهن الاعظم أمينى من نفسى . . اما الآن فآه . . وقبل أن يتم كلامه سمع وقع أقدام ، فلم تمض برهة حتى طلع على الصديقين شاب من الكهان طلب اليهما أن يجيبا الكاهن الاعظم ويتوجها الى

(١) كان يقرن ذكر الكواكب في النصوص المقدسة بانها لا تلجا الى الراحة والسكون

المكان الخاص بالمطلعين على الاسرار الكهنوتية فهرع الاثنان اليه ، وكان قد تكامل فيه عدد الاعضاء وأضيء بأنوار متألقة السناء .

وكان أمينى فى هذا الاجتماع جالساً على أريكة خاصة أقيمت تجاه مائدة مستطيلة الشكل والى يمينه ويساره أساطين الهيئة الكهنوتية كل واحد منهم بحسب رتبته . وجلس تجاهه بقية الكهان الذين كانوا ترتدون ثيابا من التيل ناصعة البياض فصلت على مثال نصفى دائرتين متحدتي المركز . وقد أقيم فى بهرة هذا الجمع تمثال الهة الحقيقة والعدل ونصب خلف العرش الكهنوتى تمثال الاله توت وصورة أخرى تمثل الهة طيبة وأمامهما رعمسيس الاول وسيتى يقدمان اليهما الضحايا والقرابين . أما بنطاؤر فجلس فى أخريات القوم لحداثة عهد انتظامه فى سلك المطلعين على الاسرار الكهنوتية .

وكان البحث بينهم دائراً على احتفال الغد فشكا الكهان قلة القرابين هذا العام ، وقالوا لعل الحرب استنزفت معين الثروة فلم تعد الامة بقادرة على أن تقوم بفروض الدين . ولاحظ غيرهم أن بهجة الاحتفال لا تكون بالغة قصارى درجات الكمال لغياب الملك وأسرته فى الحرب ، فقال آخرون ساخرين : ولكن له فى طيبة ولدا وابنة يكون من الخرق فى السياسة طردهما من هيا كلنا فأسكت أمينى الجميع وقال : لايمكن لسبب ما أن يعود راميرى الى هذا المكان ، لاننا طردناه نهائياً من مدارسنا . أما بنت أنات التى رأى كاهن هيكل آمون فى تكسر وذلة وكعاعة أن يطهرها من الدنس فلا بد لنا من معاملتها بشىء

من الشدة ، لانه اذا خلق ابناء الملوك ليطلبوا فى ظلال القصور ورفاغة العيش الاستمتاع بملاذ الحياة ، فقد خلقنا بارىء النسم لاعداد النفوس للحياة السرمدية . على أنه لامحل للخوف من أن يشوب بهجة الاعياد نقص أو فساد لان الوالى آنى من سلالة الاسرة الملكية السالفة سيبرز للجمهور فى موكب فخم وزي عظيم ، بل فيما يناسب نفوذه وقوته من مظاهر العظمة ومجالى الجبروت . ولا يرعكم قولى هذا أيها الاصدقاء والاخوان فأنتم الان فى ليلة حبلى من عجيب الحوادث بما المستقبل وحده كفيل باظهار مكنونه وكشف مستوره فى يوم واحد . ولست إخالكم تنقمون ، اذا بزغت على الافق فى ذلك اليوم شمس تجمع الى تألق الضياء لطف الحرارة فتطرح على أفراد أمة اضنتها أثقال الحروب أشعة ساطعة لطيفة . ولقد تمت معجزات جمة ترتبط بتلك الحوادث اذ رأيت فيما يرى النائم كأن رجلا حلو الشمائل مكللا بالتقوى والصلاح قد جلس على عرش (رع) وأنه كان يصغي لنصائحنا ويوفينا حقوقنا ويرد الينا العبيد الذين انتزعوا من مزارعنا انتزاعا حتى أصبحت معطلة ، بل كادت تصير خرابا يبابا لقلة من يفلحها من عمال الحقول ، ويهدم الهياكل التى شيدت للآلهة الاجنبية ويطرد من أرضنا المقدسة جميع الدخلاء والمدنسين . .

قال رئيس المنجمين لعلك بكلامك هذا تشير الى الوالى آنى ، فما طرق هذا القول مسامع الحاضرين حتى هاجوا وماجوا واختلط حابلهم بنابلهم . قال أمينى بصبر وتؤدة بعد أن ثابوا الى السكون والصمت .

اذا لم يكن هو فلعله يشبهه . وليس بعازب عليكم أن رونى كان من الموالين للاسرة السالفة ، ولهذا حل قلب الحمل المقدس صدره . وما هو الا الغد حتى تقف الأمة المصرية على سر هـذا الامر الدال على عنايه الربوبية بهـا ورعايتها اياها . وقد اتصل بى منذ ساعة أن قد وجد عجل جديد فى قطعان الوالى آنى بمدينة هرمونتيس ليقوم مقام العجل أبيس .

ما أتم أمينى قوله حتى لاحت على وجوه الحاضرين علامات الدهش ولبثوا متحيرين فى أمرهم زمنا استأنف أمينى الحديث بعده اذ قال : لقد عهدت الى بنطاؤر مهمة الخطابة في عيد الغد ، ولأنتم تعلمون أن الشيطان استفزه بغروره فصرفه عن الرشد وزين له قبيح عمله فأضله عن سواء السبيل ، ولكنى رأيت الصفح عنه لحسن ماضيه فى خدمة الدين وتفانيه فى أعلاء كلمة اليقين . ولا يبعد علينا مع هذا أن ننظر فى أمره متى تم الاحتفال . فان كنتم لاتخالفون رأيي وهو ما أرجوه منكم فقل ياولدي ماذا فى استطاعتك أن تشنف به غدا مسامع القوم وماذا اخترت من الموضوعات لتعالجه أمامهم بما ألفناه من فضلك ورجاحة عقلك ومتانة حجتك وعذب الفاظك وشرف معانيك ؟

فأقبل بنطاؤر على الكاهن الاعظم وانشأ يسرد الموضوع الذى وقع عليه اختياره . وكان الحاضرون يصغون اليه فأخذوا بسحر بلاغته وفى طليعتهم شانئوه . فانهم لم يسعهم الا التنويه بفضائله والاطراء فى مدحه بعبارات ساهمهم فيها الكاهن الاعظم ، الا أنه قال : ولكن

خطبتك تكون بتراء وغير مستوفية لشرائط الكمال كلها اذا لم تتناول معجزة قلب الحمل بالشرح المستفاض . فلا بد لك من الاسهاب فى موضوعه بعبارات الاعجاب والحماس والاطناب . قاطعه بنطاؤر وحدق بنظره فى عينيه اللتين كثيراً مانظم عقود الاشعار فى وصف ما يتشعع منهما من بريق الهمة ومضاء العزم وقال بجهير الصوت : ولكن أرجو منك أن تخليني من مهمة اعلان المعجزة على ملأ من الامة . فبهت الحاضرون لاستدراكهم وحاروا حتى أخذوا ينظرون بعضهم الى بعض متسائلين بالايماء عن سبب هذا الرفض . ثم وجهوا أنظارهم جميعا الى بنطاؤر الذى كانت تبدو على وجهه علائم الثبات والعزيمة ، ثم إلى أمينى الذى كانت تحف به هالة من الوقار والسكينة ، فتبين الكاهن الاعظم من لهجة الشاعر أن الشكوك خامرت عقيدته وأخذ يضرب لذلك أخماسا لاسداس . ثم لزم السكوت زمنا رمق عقبه بنطاؤر بعينى المستثبت وقال له : لقد أصبت باعتراضك كبد الحقيقة ياصديقى اذ الواجب التطهر من الدنس قبل الكلام فى موضوع المظاهر الربانية والتجليات الالهية ، وأنت لكونك لم تكفر حتى الآن عن سيئاتك لايجوز لك الكلام فى هذا الموضوع ، فاقتصر اذن على البحث فى الفضائل وحث الناس عليها . أما المعجزة فقد عولت على الافاضة بنفسى فى موضوعها .

تلقى الحاضرون هذا الحل بالرضاء والارتياح ، فختم أمينى الاجتماع موصيا بكتمان سر الرؤيا التى رآها ومستبقيا عنده من الحاضرين جاجابو وبنطاؤر . ولما خلا بهم المجلس قال أمينى للشاعر : قل لى لمَ رفضت البحث

فى المعجزة الكبرى التى ملأت أفئدة الكهان بالسرور والرضى ؟ أجاب بنطاؤر . رفضته لانك فيما لقنتنى من المبادىء والتعاليم أوصيتنى بالحرص على الحقيقة فأنا لا أجهر بغيرها . قال : أنا مازلت أوصيك أن تستمسك بها ولكنى أناشدك بابنة (رع) هل تسرب الى ضميرك الشك فى المعجزة التى رأيناها رأى العين ؟ أجاب : نعم خامر ضميرى الشك فى أنها حقا من المعجزات . قال : اشرح كيف استربت فيها وكيف تلبدت فى سماء ايمانك سحب الاوهام ، وظنى بك أنك من المخلصين فى خدمة الحقيقة فرمق بنطاؤر الكاهن بعين يخامرها الاسف والانكار وقال : انى على يقين من أن القلب الذى ستحمله الاكف غدا ويحتفل به احتفال الظافر على مرأى من جماهير الناس ومشهد منا نحن معشر المطلعين على الاسرار الكهنوتية ونؤدى اليه اتاوة التبجيل والاحترام إن هو الا قلب حيوان دس فى الآنية التى وضعت بها احشاء النبي رونى ساعة تشريح جثته .

ما كاد أمينى يسمع هذا الاعتراض حتى تخبل فى أمره وتراجع الى الخلف منزعجا كالمنزول به . أما جاجابو فقد أرعد ارتياعا وحملقت عيناه دهشا وقال أمينى بعد أن رجع اليه صوابه : من هو الزعيم بهذا الادعاء وأين دليله على صوابه ؟ لابد أن يكون المرء ممن قوس الهرم ظهورهم وأكل الدهر عليهم وشرب لكي يسمع مثل هذه القالة ويسلم بها كامر واقع . أجاب : أن ماسمعتماه منى هو الحقيقة التى لاريب فيها ولن أبوح مادمت حيا باسم من سارّنى اياها . فواجب الامانة يقضي بالكتمان

قال : لعل مشعوذا محتالا استدرجك حتى أوقعك فى شباك ختله وغدره ، فان كان الامر كذلك فلسوف يظهر أمره ويلقى من الجزاء أشده . ان الذين يضعون من مقام الالوهية ويصغون للاكاذيب يرتكبون إثما غليظا ويكونون من الضالين المضلين كمن ضلوا وأضلوهم . اعلم يا أعمى البصيرة ويا سيء السريرة أن القلب الذى سيعرض غدا على أنظار الشعب قلب مثلث التقديس . أسمعت ؟ وستلزم إن اختيارا أو اضطرارا بالركوع له . والآن أودعك واتركك فى خلوة الى نفسك لتفكر فيما ينبغي أن تقوله موافقا لميول سامعيك . واعلم أن الحقيقة درجات متفاوتات ومنازل مختلفات ، وأن للالوهية أشكالا لولا تباينها لعسر على العقول ادراك كنهها . ألم تر كيف تقطع الشمس والكواكب فى مسابحها خطوطا هليلجية لا منتهى لمداها مع ظهورها لعين الرائي مستقيمة لاعوج فيها ؟ إن العلماء القائمين بارشاد العامة فى طريق الدين يذهبون أحيانا الى الاتيان بأعمال قد لا تصل الى فهمها مدارك الجهلة مع أنها لا تتعدى حدود الاعمال المرضية للالوهية ، وهم مأذونون بعملها بل المتحتم عليهم القيام بها . أما علمت أن الغاية تبرر الوسيلة . لعلك تعتقد أن الوسيلة اذا حادت عن الطريق المستقيم تعوج بنا عن محجة الصواب والحقيقة هي أنها لا تفضي فى الواقع الا الى الحق وتنكب بالمرء عن المزلات والمغالط . ولعلك تكون الآن أدركت بون ما بيننا وبينك ، فنحن نقيس الاشياء باشباهها ونعرضها على أصولها فتتجلى لنا أحوال المستقبل فى ثوبها الناصع الذى لا شية فيه . اما أنت فتقصر فهمك على درك الحاضر

دون سواه فيضيق على العقل مجال التصرف ، ولا ينفسح للادراك مدى القياس الصحيح . فواجب عليك الآن أن تسلم بصدق ما تعتقده صدقا وتجهر بأنه صدق لا ريب فيه . واعلم يا بني أن الكذب يدنس الروح وأن الشك يسطو عليها ويأكلها كما يأكل المبرد الحديد .

فاه أميني بهذه العبارات وقد أخذ التأثر منه كل مأخذ ، فلما انصرف بنطاؤر من حضرته سأل جاجابو : ما معنى هذا . . من أفسد علينا هذا الشاب بعد أن كان كريم الخلق مهذب النفس ؟ أجاب : هو الذى أفسد نفسه بانحرافه عن طريق التقاليد القديمة وشذوذه عن الاصول المرعية رضوخا لشهوات النفس ومضيا مع تيار الباطل . قال أميني : ان يكن هذا اعتقاده الذى يتمسك باهدابه فقد اخطأ ، لأن القوانين لم يستأثر بوضعها مقنن واحد بل اشترك فيها الجم الغفير من الاساتذة الفطاحل والثقات فى العلوم الشرعية بعد صبر وأناءة فى التروى والملاحظة والمقارنة والتجربة . فالقوانين فى اتساع نطاقها وانفساح مجال حقائقها أشبه ما يكون بأشجار الآجام تبدأ صغيرة ثم تكبر حتى تصير بتوالى الاعوام أشجاراً باسقة ذات أغصان ممتدة وظلال وارفة . . اننى أحب الشاعر بنطاؤر وأميل اليه ، ولكن حبي وميلى يدعوانى الى كسر شكيمته وكبح جماحه ، وإلا فلا نلبث أن نراه كالنيل يعلو ماؤه شيئا فشيئاً فيطغى على الجسور ويفيض على الارضين ، ثم ان ما قاله الآن فى معجزة . .

قاطعه جاجابو : لعلك أنت الذى أثار غبار الشكوك فى نفسه . قال

أميني : كلا . قال جاجابو مفكراً : ومع هذا فانى أعهد فى بنطاؤر علو الهمة والصدق . قال أميني : وأنا مثلك أعرف فيه هاتين الفضيلتين . ولذا سلمت من غير مناقشة بصحة ما نقله الي من الاخبار ولكن لا أدرى من الذى ارتكب الفعلة النكراء وهى الافضاء اليه بسر ذلك الحادث .

سكت الاثنان هنيهة بعد ذلك فقال الكاهن الاعظم : رأيت بنطاؤر ونبسشت داخلين فى هـذا المكان ، وليست بالسر الكمين صلات المودة بينهما فأين كان هذا الطبيب أثناء وجودى بطيبة ؟ اجاب جاجابو : كان يعالج فتاة المحنط بينم وهي التى دهمتها مركبة بنت أنات فأصابتها بجرح أليم وقضى فى العناية بأمرها ثلاثة أيام . قال أميني : بما أن هذا الشيخ هو الذى حنط جثة النبي رونى فقد فهمت الآن كيف غشيت الشكوك عقيدة بنطاؤر . . لا بد أن يكون الشاب الطبيب هو الذى أفسد عقيدة صاحبه ولسوف يقر بهذه الحقيقة . والآن لا تنصرفن خواطرنا الى غير الاحتفال بالعيد ، فاذا كان يومان أو ثلاثة أيام بدأنا بسؤال المجرمين وأوقعنا بهم العقاب المهين . قال جاجابو : الرأي عندى أن تسأل الطبيب فيما تعزوه اليـه من التهم . ولا تنس أنه ممن رفعوا الهيكل الى ذرى المجد والشرف بسعة العلم والحذق والكياسة فى العمل . قال أميني : خلنا من هذا الآن فأن لدينا من الامور الخطيرة ما هو أولى بالبحث والاستقصاء . قال جاجابو : أرى فى تأجيل البحث فى المسائل المهمة ضرراً بالغا بل مصاباً فادحاً ، إذ لا يغيب عنك اننا بتنا على قيد أنملة من الهلاك . حقا انى شيخ قد تضعضع بالهرم ركنه ورق بالضعف

جانبه ولكن الخطر لا يروعنى وان جل ، وكفى أن اذكرك بسلطان رعمسيس وجبروته وأحذرك التطوح فى تيار الانتقام ، فأنك لن تجنى منه غير الغمط من حقك والنيل من حميد سيرتك والصاق تهمة القسوة والصرامة بما سرى مسرى الامثال من رفقك وسلاستك .

قال أمينى : لم أبغض رعمسيس قط ولن أبغضه أبد الآباد . ولولا أنه القابض على صولجان الملك اليوم لكنت أقرب الناس اليه والحظى من دونهم برعايته . . لقد تبينت أطواره واستقصيت أحواله وأسراره فما وسعنى الا احترامه لشرف صفاته ونادر فضائله وواسع ادراكه . غير أنه قد كاشفنا بالعداء والبغض لا كراهية فى ذاتى أو حقداً على شخصك بل كراهية فى مبادئنا وغيظا مما تطمح اليه نفوسنا . ولو كان أقل شوكة ونفوذاً مما هو فى الحقيقة لما تعذر علينا الخلاص منه بوسيلة ما . أما الآن وقد علمت ما له من قوة ونفوذ فلا بد من اتخاذ التدابير للفتك به . . ولا يفزعنك ذلك لانه انصرف عنا فاستغنى عن مشورتنا وأنكر علينا حقوقنا وانتهك حرمة امتيازاتنا وغض من كرامتنا بما يستفزنا للدفاع عن حقوق طائفتنا . أما الوسائل التى سنتذرع بها لنيل هذه الامنية فجائزة لا يحرمها شرع ، لأنه لما كانت حقوقنا مستمدة من حقوق الآلهة فالكذب فى سبيل الدفاع عنها يجب اعتباره صدقا . واعلم انه إذا أفلتت ازمة الحكومة من ايدينا ولم تكن لنا سيطرة فيها ولا نفوذ فقد سقطت مكانتنا الى حيث نتساوى مع العبيد والارقاء .

وافق جاجابو على هذا القول بأيماءة منه واستأنف أمينى حديثه

حادسا أنه يخاطب الشعب فقال : لقد كنت مولاي وسيدى فاحترمتك وأحببتك فقف اذن على الاسباب التى دفعتنى الى هذه الحرب . . لقد ربيت مع رعمسيس فى هذا الهيكل الذى قضت حكمة أبيه الملك سيتى أن يختلط فيه بسائر ابناء طبقات الامة . وكنا فى الآن الواحد صديقين وخصمين ، ففي الدرس واللعب كنا كفرسي الرهان فى احراز المكافآت المقدرة للفائزين بالسبق . وكان من أخص فضائله قوة الادراك وسرعة الخاطر ، ولكنى كنت أمتاز عليه بالمثابرة على الاصغاء . وكان محبا الحركة نزقا بينما كنت ميالا الى السكون والرصانة ، وظل كل منا فى مدة التتلمذ متصفا بهذه الصفات التى امتاز بها على نده . فلما القيت أزمة الاحكام اليه دفع بالبلاد الى حرب الفتوح والتوسع فى الملك ، فاظفرها الاله باعدائها إذ فازت فوزاً مبيناً فى وقائع كثيرة كان هو بطلها المشار اليه بالبنان . فتفرغت للدرس والبحث فى التقاليد القديمة وأحوال الامم الغابرة فى أخلاقهم وسيرهم ، فثبت لى أنه لولا نا معشر الكهان لاصبحت مصر خرابا يبابا إذ من هم الكهان ؟ هم كل شيء فى العالم . وما هي المهمة التى وكل اليهم أداؤها ؟ تسكين كل ثائر وأرشاد كل ضال . فالملك ذاته ليس هو فى الحقيقة الا فرعا من روحنا وقبسا من نارنا وشعاعا من ضيائنا ، وان يكن شيئا فبكونه الواسطة بيننا والامة التى يحكمها بسلطان القهر والارهاب . وهو إذا قاومنا فى أمر أو اعترض علينا أو عدل عن التماس مشورتنا فى سياسته فليسقط من علياء عرشه . هذا ما كان يجب أن تكون عليه الروابط بيننا والملك ، وهو من الاصول التى حافظ عليها

سلفنا الصالح من الكهان . أما الآن فقد تبدلت الحال غير الحال إذ أصبحنا بأيدى الملوك آلة يتقون بها شر الامة ، ولا سبيل الى أن تحترم الامة أميرها القابض على زمام الامور مالم تحترم الآلهة قبله . فاذن يكون الكهان قوام الملوك وعمادهم فيما يجرونه من الاحكام على رعاياهم . ولقد كان سيتى ملكا جريئا عزيز الجانب مرهوبا ومحترما ، لانه كان موفقا للنجاح فى أعماله ولأن محاسن الفرص جاءت اليه منقادة فهمّ بانتهازها ، وجرى رعمسيس على منهاجه فتراه شديد المحافظة على الصلوات وتقديم القرابين ، حريصاً على صيانة الطقوس والتقاليد فلا يكف عن التنبيه على اشعال المصابيح واحراق البخور فى المجامر والترنم بالاناشيد الدينية وتفسير الاحلام ، الى غير ذلك مما لا يسع سرده المقام . ولكن مع هذا كله أرأيتنا ولا شيء عند الناس طرا أكبر منا قد صغرنا عنده حتى صرنا كلا شيء ؟ . أرأيت كيف تهاون بنا وأصبح لا يعدنا شيئا ونحن نحن ؟ أما ينبغي أن نكون منه بمنزلة المشير والناصح بل أن نملى عليه أوامره وأحكامه ! ولقد حاول الكاهن المحترم الذى حللت محله أن يفرض على سيتي الاول الاخذ برأيه من العدول عن ايصال بحر الشمال بالبحر الاحمر المدنس الماء [1] وجاهد عنده فى

---

(١) كان الفينيقيون قابضين على أزمة الملاحة في البحر الاحمر الذى كان معروفا فى ذلك العهد باسم «البحر المغطى بنبات الديس» وكانوا يتجرون فيه بالمواد العطرية المستوردة من بلاد العرب وبالذهب الذي كانوا يستوردونه من بلدة زفر (كان يقال أنها بلدة في اليمن) وقد خطر ببال الملك نيخوس ان يجمع بين البحرين بترعة توصل احدهما بالآخر ولكنه عدل عن هذا المشروع لان الكهان قالوا ان الهواتف أخبرتهم بان فائدته ستكون مقتصرة على الاجانب دون المصريين اذ يمكنهم من الايغال فى مصر والاستيلاء عليها «أنظر الجزء الثانى من تاريخ هيرودتس»

ذلك جهادا لم يقتنع معه بان ذلك المشروع لايعود بالفائدة على غير الاسيويين . وأنا . . هل تمكنت من حمل خلفه رعمسيس على ابقاء تقسيم مصر القديم الى أقاليم كما هو والعدول عن تعديله ، مع ما بذلت من شتى الوسائل لاقناعه بضرر التقسيم الجديد ؟ وهل ازدجر بنصائحنا المتعاقبة حينما أثبتنا له ضرر تجهيز المعدات للقتال وتسيير الحملات لمحاربة كبار الامراء والاقيال ؟ . . ألم يذهب به تجاوز الحد فى العدوان الى حشد عبيدنا وعمال أراضينا مخالفاً بذلك التقاليد القديمة والقوانين النافذة ؟ ألم يخرج به الشطط فى الاعتقاد الدينى الى تشييد الهياكل لآلهة الشرق الكاذبة السفاكة للدماء ، بعضها على سواحل البحر والبعض الآخر فى منفيس وطيبة ! قال جاجابو : أصبت فما نحن الآن الا كهانا بالاسم ، يدل على ذلك ماقاله رعمسيس من أن مهمتنا دينية محضة يجب أن تقتصر على إعداد الناس للحياة الاخرى وأن عليه هو ارشادهم فى الحياة الدنيا . قال أمينى : اعلم أنه قال ذلك وهو بهذا القول قد أثم واعتدى . وهل نسيت أنه وأركان أسرته قد اعتدوا على حقوقنا وامتيازاتنا التى يتوقف على صيانتها مستقبل هذه البلاد ، وهل أنا بحاجة الى تذكيرك ان رعمسيس مدنس الاصل قذر الجرثومة ؟ ألم يك من سلالة أولئك اللصوص الذين انقضوا على بلادنا انقضاض النسورة الكاسرة وانتشروا فيها انتشار الجراد الفاتك ؟ ولقد صد أجداد آنى غارتهم الشعواء ، ولكن جد الاسرة القابضة الآن على زمام الاحكام من أولئك العرب العمالقة استأذنهم فى المقام مع ابنائه بوادى النيل فأذنوا له ؛ فما هى الا فترة قصيرة

من الزمن حتى فاز هؤلاء الاجانب المعروفون بالبسالة ولين الجانب ، بالزلفى من الامير الحاكم فتوجه الأيثار منه اليهم وانبسط له الجاه عندهم . وما زالوا به حتى استقر نفوذهم على أساس متينة واستمالوا رجال الجند اليهم بافاضة الاموال فيهم وسن الجوائز والصلات لهم فتمكنوا بواسطتهم فى النهاية من ثل عرش الاسرة الملكية السالفة والقاء سمائها عليها . . ولست بمنكر عليك أن جماعة الكهان الصادقين كجدك وجدى أخذوا بناصرهم وحوموا عليهم لما جال فى ظنونهم من أن الاسرة الجديدة التي خلقت بهم ستعيد ما انطمس فى عهد سالفتها من معالم التقاليد القديمة . وليس ذا بالامر المستغرب فأن لنا فى غضون الاجيال المتصرمة اجداداً يفوقون المائة عداً احرزوا جانباً كبيراً من النفوذ والسلطان فسارت بذكرهم الركبان ، وأشير اليهم فى وادى النيل بالبنان . . وأن كهانا كثيرين غيرنا قد كرمت أحسابهم ورسخت انسابهم . . ولكن كم لرعمسيس من الجدود يسمو بهم الى ذروة الشرف ؟ . هب أن له عشرة جدود ، ولكن بأى أصل يتصل أولهم وأية دوحة هو غصنها ؟ . . ألا ينتسب الى جرثومة (الآمو) تلك القبيلة المعروفة عندنا بخبث الطبع ودنس الاصل ؟ . ألا يكون الامير القابض على زمام الحكم الآن وهو ذلك المتهاتر الجزوع سليل الساميين . . انه يسمينا بالفلاحين استخفافا واحتقاراً ونحن لا ذنب لنا ولا عيب علينا إلا أننا نقوم بأشرف الاعمال التى قام بها آباؤنا من قبل فى سكون ورضاء وصبر . . أما هو فليتمادى فيما هو فيه من الحركة والانتقال ومتابعة

الهوى باضرام نار الحرب والقتال ومد الأيدى للنهب والاغتيال . . ومن غريب شأنه أنه كلما أشرفت خصوبة الارض على النفاد لا مناص له من مغادرة البلاد وانتجاع الوهاد والنجاد ، مقتدياً فى ذلك بأبيه سيتى الأول . . يقيم فى طيبة يوما او اياما او شهراً او عاماً ثم يفاجئك بشد الرحال قاصداً الى قارة آسيا محط الآمال . . حقا قد كان الاجنبي وما زال سبب ما تعانيه مصر من صنوف البلاء ، يعبد الاصنام والاوهام . . فليسقط ذلك الغاصب وليذهب هباء !

بادر جاجابو بمصافحة أمينى وصوّت : ليسقط الغاصب وليذهب هباء ! قال أمينى : لا يذهب عليك أن آنى ركب من طينة مصر ، فهو بيضة بلده وفتى قومه بل سلالة ملوكها الاولين . ولقد شهر بالدهاء والحيلة ، ولكنه يحبنا ويحترمنا ، وإذ كنت أدرى الناس بما يجعله من القيود وثيق الارتباط بنا ، فقد عولت على تنفيذ ما عقدت النية عليه لتأييده . فهل لك فى مشاركتى لتحقيق أمنيتي ؟ قال جاجابو : انى مشارك لك قلباً وقالباً وسراً وجهراً . قال أمينى : هذا ما كنت أتوقعه من ودك القديم فعليك إذن باضرام نار الحمية والحماس فى أفئدة أصحابنا وتفهيم الطلبة والمطلعين على الاسرار الكهنوتية انه اذا أجيز لهم فهم ما يتهيأ الآن من الحوادث فليس لهم أن يفشوا سرها والا نزلت بنا وبهم الكوارث .

الفصل الثانى

كيف كان الاله يعبر النيل فى عهد رعمسيس الجليل

بزغت شمس اليوم التاسع والعشرين من الشهر الثانى التالى لفيضان النيل (١) فشوهدت عند ابواب أحياء مدينة طيبة وربوعها جموع من النساء بحلاهن وتحليات ، وأفواج من الرجال والاطفال والجند والعبيد ينتظرون بذاهب الصبر ساعة بزوغ الشمس . وكان الكهان يتأهبون للتغنى بالاناشيد المقدسة وعامة الاهلين يستعدون للسير فى الموكب الدينى والطواف حول أسوار الهيكل المقدس وعبور النهر فى الزوارق والسير بعد ذلك صفوفا منتظمة فى الطريق الذى أقيمت على عطفيه تماثيل أبى الهول، مفضياً بسالكه الى هياكل المقبرة . وكان من العادات المرعية فى هذا الاحتفال أن يحمل آمون اله طيبة الى مدينة الاموات ليقدم القرابين الى آبائه الآلهة ويجعل نفسه قدوة لعابديه فى احترام الحياة الاخرى ومحبة الآباء . ولا عجب اذا رتب الاحتفال على هذا المثال ، فأن هذا الترتيب يشير الى معنى جليل لايعزب عن الافهام . فقد جعلوا الضفة الغربية من النيل مستقراً للموتى يلتمسون فيه الراحة

---

(١) هو يوم ٢٩ من شهر باؤنى وكان المصريون يقسمون السنة الى ثلاثة فصول كل فصل منها اربعة اشهر وهى : فصل الفيضان وفصل البذور وفصل الحصاد ، وتسمى باللغة المصرية القديمة (شا) و(بر) و(شيمو) وكان الشهر الثانى من أشهر الفيضان يدعى باؤنى . وكان في التاسع والعشرين منه يوم الاحتفال بعيد الوادى وهو يوافق ٨ نوفمبر من السنة الشمسية الميلادية

الابدية ، لان الغرب تستتر وراءه الشمس الآفلة ، تسبقها اليه فيه شموس وتتلوها شموس ، كلها بنات الليل ومستحدثات الظلام . فالضوء الجديد يلبث مغموراً بما انعكس من أشعة الضياء المستتر الذى استمد منه سناءه المتألق ، وإنما يؤدى آمون فروض التمجيد والتكريم للشموس الآفلة كي يتعظ الاحياء به ويقتدوا بفعله فلا يمحوا من صحيفة قلوبهم ذكرى الموتى الذين استمدوا منهم الحياة وفازوا بنعمة الوجود فى هذا الوجود .

على أن النصوص المقدسة صريحة العبارات واضحة المعانى فى هذا الباب ، فقد جاء فيها أن الواجب تقديم القرابين لروحي الاب والام اللذين غيبا فى القبر ، لان تمجيد الآلهة يقترن بتمجيدها . وجاء فى تلك النصوص أيضاً أن الواجب على المرء أن يزور موتاه إذا أراد أن يحفظ ابناؤه ذكراه . (١)

هـذا العيد السنوي للموتى لم يكن فيه شيء من شارات الحداد كما يوهمه مدلول اسمه ، إذ كان المحتفلون لا يبثون صيحات الحزن ولا يبكون . بل كانت وجوههم ناضرة ومخايل السرور على شمائلهم ظاهرة ، لا تلهج ألسنتهم الا بترداد آيات الحمد واحيـاء ذكرى من طوتهم الارض ، بالمطارحة فى محاسن سيرتهم . وكانت الأسر تمد الموائد أمام المدافن والطرقات غاصة بالجموع ، حتى كنت ترى الآباء

(١) انظر ملحوظات المسيو ماسبرو على أوراق البردى الموجودة بمتحف باريس وانظر ايضا ورقة البردى نمرة ٣ المحفوظة بمتحف مصر

والامهات والاطفال من الاسرة الواحدة متماسكين بعضهم ببعض ، خيفة أن يضل أحدهم فلا يعلم له مستقر فى هـذه السيول المتدفقة من الخلق . وكان العبيد يتبعون مواليهم حاملين على رؤوسهم ما يعوزهم من الغذاء وأدوات الاستصباح يسيرون على ضوئهـا فى كهوف المقابر ويهتدون فى الطريق لدي العودة . وكان لسراة المدينة وأغنيائها زوارق خاصة بهم نمقوها بما يعجز القلم عن وصفه من الزخرف البديع والتنسيق الانيق . أما الفقراء فكانوا ينزلون جماعات كثيرة فى القوارب متطامنين متراكبين بعضهم على بعض حتى يبلغوا الى الضفة الاخرى فينسابوا منها انسياب الماء من الجدول على بسيط الارض .

وكان المحتفلون على تفاوتهم فى المراتب وتبـاينهم فى الدرجات ينتظرون بذاهب الصبر مرور الزورق المقل للاله آمون . ونذكر هنا انه كان لا يوجد فى أطفال طيبة طفل لا يقضى ليـله مفكراً فى جلال هذا الزورق وجماله معللا النفس بأمنية مشاهدته فى الغد . ما ذلك إلا لأن العناية بزخرفته كانت تتجاوز حد الاتقان ، حتى كان يماثل الزورق الذهبي الذى يعبر عليه اله الشمس ورفاقه فى كل نهـار أقيانوس السماء ذى اللون اللازوردى .

وكان على مدرج هيـكل آمون المفضية درجاته الى نهر النيل وترتطم بالاخيرة منها مياهه المشبعة بالطمي جم غفير من الكهان ، وفى المسالك المؤدية الى الهيـكل وعلى ضفة النهر أقوام لا يحصى عديدهم ، شاخصة أبصارهم صوب جهة واحدة ، كما كان غيرهم ينسلون الى

الساحل مقبلين من كل فج وحدب ، لشهود الموكب خارجاً من الهيكل فى جلال أبهته وعزة فخامته فلا يفوتهم هذا المنظر البديع المنقطع النظير ، فخلت المدينة من سكانها وكادت الطرق تصبح قفاراً والديار معطلة من الانيس . فلما أزف الموعد الموعود والاجل المحدود لتحرك الموكب ولم يتحرك بعد ، أخذ الناس يتساءلون عن السبب لا سيما وقد كانوا يرون فى الكهان قوماً موفين بالعهد محافظين على الوعد وأخذ الضجر يشملهم شيئاً فشيئاً حتى اذا لم تعد لهم طاقة بالصبر استفاض بينهم الخبر بأن سبب تخلف الموكب عن المسير غياب أعضاء الاسرة المالكة وكان من عادتهم فيه الحضور للانبثاث بين الجماهير والاختلاط بأفناء الناس والسير على الاقدام من القصر الملكي الى الهيكل الرباني . وانضاف الى ضجرهم ومللهم الانتظار التخبط فى تأويل غياب بنت أنات عن الاحتفال وقد كانوا يرون حضورها من بواعث الكمال له والجمال .

وبينا القوم فى حيرة التساؤل إذا بأصوات الكهان يرن صداها فى الآذان ، منبعثة من فناء الهيكل المقدس خلف الاسوار العالية . ولم تمض برهة على ختام هذا النشيد حتى اجتاز آنى بابه فى موكب تحف به الهيبة ويعلوه الوقار ، لأنه ما كاد يبلغ الى هذا الباب حتى انشق سريعاً عن مئات من الاطفال على صدورهم الميادع [١] وبأيديهم الازهار ينثرونها فى كل اتجاه وصوب أي نثار ، ليطأها السائرون فى

(١) الميادع جمع ميدع الثوب يلبس ليكون وقاية لغيره

موكب الاله آمون . أما الروائح العطرية فكان يضوع شذاها فى جميع الانحاء يحملها اليها النسيم فيكون لها فى المعاطس أحسن شميم . وكانت الآلات الموسيقية تصدح بتلاحين تهز النفوس هزا . وان القوم لفى مراح وحسن تطريب وإذا بدوي شديد تردد الآفاق صداه من بعيد، اعلانا بتحرك موكب آمون فهاج الناس وماجوا وأخذوا للقائه يستعدون ولم يظهر لبنت أنات أثر ولم يقع على موكبها نظر .

وتداولت الالسنة فى خلال ذلك عدة اشاعات ذهبوا فى تأويلها مذاهب مختلفات، وأيد خدمة الهيكل صحة احداها إذ أكدوا للسائلين أن الكهان قرروا منع بنت أنات من التطلع الى تلك الاحتفالات . وما قرع دوي هذا الخبر آذان المزدحمين حتى تبرموا وعبسوا الوجوه . وما هي الا خلجة الخاطر حتى شهدوا الاميرة بطنف قصرها والى جانبها الامير راميرى ونيفرت ينتظرون ساعة خروج الآلهة للتفرج على جماعات الناس وأفواجهم وهم بين غاد ورائح فى الطرقات المجاورة لمساكنهم .

أما حرمان الاميرة شهود الاحتفال فسببه أن (بك ان شونسو) كاهن هيكل آمون تعهد بتطهيرها من الدنس ، غير أنه فى مساء اليوم الذى جاء اليها فيه بهذه البشرى أخبرها ان الكاهن الاعظم أمينى لا يسلم بدخول المقابر قبل الحصول على العفو والغفران من آلهة الغرب . ثم اعتذر بأنه فى مركزه لا مفر له من إطاعة أمر هذا الرئيس، لأنها بدخولها هيكل هاتور فى حالة دنس قد أثقلت أوزارها وضاعفت

خطاياها . فلما سمعت بنت أنات هذا الكلام استنجدت بالوالى آنى وسألته أن يلبي نداءها فوعدها بذلك . غير أنه تلكأ فى انجاز وعده وظلت تنتظر حتى إذا كان آخر الوقت أخبرها بأن أمينى ما برح وطيد العزم على حرمانها الحضور فى الاحتفال ، ثم نصحها أن تذعن لأمره ولا تثير ساكن غضبه . ودنا القزم نيمو من نيفرت فى الوقت نفسه ليبلغها رجاء والدتها راتوتى أن تحضر لزيارتها ، فأجابته بأنها لا تستطيع بل لا تريد مفارقة صديقتها الاميره فى مثل هـذه الظروف الخطيره .

وكانت بنت أنات أذنت لـكبار حاشيتهـا بزيارة المقابر وشهود الاحتفال وسألتهم أن يخصوها فى هـذه الزيارة بصالح الدعاء وطيب الذكر ، وبعد أن قضت حصة من الوقت فى استشراف الجماهير فى حركاتهم واختلاطهم ، عادت من الشرفة الى حجرتهـا وأنحت على شقيقتها راميرى باللوم والتأنيب لأنه بسوء تصرفه وطيش عمله جعل الـكاهن الاعظم يضطهدها ويتابعها بعدائه الفادح ، ثم أحالت على هذا الـكاهن بالتعنيف واستطالت فى سيرته وأساءت غيبته ، غير أنها مع هذا قبضت على يدى أخيها وقالت له وهي تحنو عليـه بقوامها اللدن : أى أخيه ! حيث إننا ركبنا معاً متن الشطط وسقطنا فى مهواة الغلط فلنـكفر عما فرط منا بقبول ما حكم أمينى به علينا . والرأى عندى الآن أن نمسك عما لا يجدى نفعاً من الـكلام وأن نتنهج من الخطط والمسالك ما لا يحيد عما كنت تنتهجه منها لو كان والدنا حاضراً . فأجهش بالبكاء واندفع يشهق ثم صاح عالياً : لو كان أبى هنا لما اجترأ أمينى على

هـذا الهذيان وأفاعيل الصبيان، بل نلمع عن كتفيه فروة الفهد وأخلى منصبه لمن يصون كرامة الملوك ويحفظ العهد . . سـوأة له ! كيف يعاملك بهذه الاهانة ؟ قالت هدىء روعك يا أخي وقل لى أتذكر أنك كنت لا تزال طفلا لما شهد والدنا هـذا الاحتفال لآخر مرة ؟ أجاب : نعم : أذكر ، وما كان أجملها من صبيحة قضيناها في سرور وابتهاج . قالت بنت أنات : وأنا كذلك ما زلت أذكرها بما جمعت من أسـباب السرور والاغتباط . لقد كنا آنئذ أطفالا وكانت الزينة التى أقمناها مما يبهر الابصار ويأخذ بالالباب ، وكـنا جميعاً جلوسا فى البهو الملـكي الـكبير فدعانا والدنا ثم أخذ بيدنا الى حجرة والدتنا المغمورة برحمة الآلهة ، وكان لم يمض على وفاتها زمن طويل ، فقال لنا بصوت الحنان والرفق أنه قد عفا عنا وتجاوز عن سيئاتنا تلقاء ما أظهرناه من الندم على ارتكابها والحذر من السقوط فيها مرة أخرى . ثم قبلنا بين عيننا وجذبنا اليه بيديه الكريمتين قائلا بصوت الشفقة : لا أكون ذلك الملك الجبـار العظيم رعمسيس اذا ألحقت بكما ذرة من أذى ولم أسلك معكما مسلك العدل .

وما سمعنا منه هـذا القول حتى ألقينا بنفسنا عليه وأخذنا نقبله قبلات الاعتراف بالجميل ، فدفعنا عنه بلطف وهو باسم الثغر وقال لنا : لقد كنت ولا زلت أحبكما حباً جماً وأسوى بينكما فى هذا الحب ، وانى لموقن أنكما تقابلانه بمثله لى . ثم جاذبنا الحديث فى والدتنا ونوه بذكرها وأطرى فضـائلها وحثنا على الاقتداء بهـا وانتهاج طريقها

ووعدنا باصطحابنا لزيارة قبرها وتقديم الهدايا والقرابين اليها . وتكلم بعد ذلك على ندرة الفرص المتاحة للمرء يقيم بها الدليل على براعته وشجاعته وعلل ذلك بقلة الحوادث الجليلة والاخطار الجديرة بالاقتحام ، وبأن الحياة سلسلة حلقاتها الحوادث المألوفة ، تتألف منها كما تتألف السنوات من انضمام الشهور والساعات ، والساعة بالساعة والشهر بالشهر أشبه من الماء بالماء ، فأن اتخذتم لتافهات الحوادث من ثبات وجلد تلقيتم كبارها من غير خوف ولا اكتراث . ولما جاء والدنا على ختام اقواله الحكيمة تصافحنا وتعانقنا متعاهدين على اتخاذه إماماً لنا فى أعمالنا . واذكر انى ما كنت فى وقت أرحب صدراً ولا أهدأ بالا منى حينما شنف والدنا آذاننا بهذا الوعظ البليغ على مقربة من قبر والدتنا .

فشخصت نيفرت فى بنت أنات بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت : انه لهين على المرء كسب المحامد والفضائل اذا بلغ والده مثل هذا المبلغ من الرفق واللطف فى النصح . سألت بنت أنات : ألا تذكرين يا نيفرت أن والدتك اطربت سمعك بمثل هذا القول فى صبيحة تلك الاعياد ؟ أجابت وقد علت وجهها حمرة الخجل : كلا لانها كثيراً ما كانت تخطيء موعد الاحتفال لقضائها الوقت فى تسوية شعورها وزينة نفسها فلا يكون لها همّ ولا وكد الا سرعة الوصول الى الهيكل . سألت بنت أنات : أتأذنين فى أن احل اليوم منك محل والدتك . . وأنت يا راميرى هل تعلم أن والدنا كان يعفو عن ضباط جيشه ويصفح عن حاشيته وخدمه وعبيده ويحضهم كما كان يحضنا على

الاستمساك بعروة التقوى والصلاح واستلال الضغائن والاحقاد من القلوب . . ألم يكن من كلمه المأثورة قوله « لا يكفى المرء لبس الثياب الناصعة البياض بل يجب أن يكون قلبه أرق من النسيم وأصفى من الدمع » ؟ .. فواجب عليك يا شقيقى أن تكف عن لوم أمينى والاقذاع فيه ، فأنما هي القوانين والانظمة تطالبه بالشدة فى تطبيقها . ولا يغيب عنك أن والدنا سيقف على ما دار بيننا وبينه من الحادثات وله وحده حق الفصل بآرائه السامية وحكمته البالغة فيما شجر من الخلاف . . آه . . انى يا عزيزى راميرى ويا عزيزتى نيفرت أشعر بقلبي يفيض حنانا ورأفة فليأت كلا كما ليقبلنى ولنذهب بعد ذلك الى المصلى حيث نمتع النظر باستجلاء تماثيل موتانا الاعزاء الذين لم أحظ بتقديم القرابين اليهم فى هذا اليوم النير المقدس .

قال راميرى : سأصحبك اليه يا شقيقتي . قالت بنت أنات : أما أنت يا نيفرت فالزمى مكانك لتجنى من هذه الازهار الزاهية النضرة طاقة جميلة نعهد الى بعض الاتباع وضعها على قبر والدة قرينك مينا . قالت هذا وانطلقت نحو المصلى مع أخيها ثم عاد الاثنان بعد ساعة فوجدا نيفرت قد ضفرت أكليلين من الزهور انتوت اهداء احدهما لوالدة مينا عملا بأشارة بنت أنات والثانى لوالدة الاميرة . فلما علم راميرى بقصدها قال : سأتولى أنا وضع الاكليلين على القبرين . فسألت بنت أنات : وكيف تكون الحال لو شهدك أمينى وهو الآمر بمنعنا من دخول الهيكل ؟ أجاب راميرى : لن أذهب الى ذلك المكان

بزيي وشارتي الحاليين بل متنكراً بزي صبي بستاني . أتسمعين صوت البوق المؤذن بخروج الاله من الهيكل ؟ قال هـذا وهرول نحو الشرفة فاقتفت نيفرت وبنت أنات أثره ، وتمكن الثلاثة من شهود الاحتفال كما لو كانوا فيه حاضرين .

قال راميرى : ان هذا الموكب لطالع شؤم ونحس ما دمنا نحن ووالدنا غير موجودين به (١) ولا ريب أن تجرده من مظاهر الابهة والجلال عزاء لنا عن عدم مثولنا فيه بازيائنا الجميلة يحيط بنا الاحراس والغاشية ، ولكن عزف هذه الموسيقى جميل جداً . . وهاءنذا أرى هناك حملة الاقلام والمنشدين والنبي الاول للهيكل الاعظم وهو الكاهن (بك ان شونسو) الذى تحف به المهابة ويحدوه الوقار ، غير أن علامات التذمر بادية على وجهه ، وها قد أوشك الاله ان يظهر لان رائحة البخور قد بلغت الينا محمولة على أجنحة النسيم .

قال الامير هذا وجثا على ركبتيه فاقتدت به الاميرة ونيفرت ، وكان نظرهما قد وقع على ثور تنعكس أشعة الشمس على جلده الأملس البراق ، وبين قرنيه إطار ذهب خالص يعلو حافته ريش النعام الابيض وتلاه حملة المراوح فالاله آمون ، لا يكاد النظر ينفذ اليه لكثرة ما كان يحول بينهما من المراوح المتخذة من ريش النعام الابيض والاسـود مثبتة بأطراف قضبان من الذهب . وكان مستويا على عرش منصوب

---

(١) استدل الدكتور ايبرس فى وصف هذا الموكب بالنقوش الممثلة للاحتفال بعيد الدرجات فى مدينة آبو

على مصطبة مفروشة بقماش مسدول وموشى بأسلاك الذهب ومزين بأكاليل الازهار الغضة ، يحمل ذلك كله على أعناقهم جماعة من الكهان يسيرون الهوينا بخطوات مقدرة ، ينبعث من المجامر حولهم دخان البخور فينعقد فوق رؤوسهم . وما وضع الاله فى وسط الزورق الذى بلغ الغاية من الزخرف حتى وقفت جموع الجماهير على الاقدام بعد إذ جثوا طويلا . ثم توارد بقية الكهان يحمل بعضهم فى صندوق مبرقش بالالوان شجرة آمون المقدسة التى لا تذوى . وجاءت بعقبهم فرقة موسيقية ثم جماعة من الكهان يحرقون البخور فى المجامر فتنتشر ريحه فى أرجاء الفضاء .

تنفست بنت أنات الصعداء عندئذ وقالت : لو كان والدى حاضراً لبرز للنظارة بعد الاله فى موكب حفيل جليل . قال راميرى مكملا : ثم لتلاه موكبك يا شقيقتى العزيزة فموكب مينا ورجال الحرس . ولكن هاءنذا ارى الآن بدلا من ذلك كله العم آنى سائراً على القدمين ! وما أغرب الزي الذى برز فيه يريد أن يحاكى به أبا الهول . فسألته نيفرت : وما تعنى بهذا القول ؟ أجاب باسما : ان أبا الهول حيوان بجسم ليث ورأس انسان ، ولكن عمنا آنى قد تدثر بامساح الكهان التى هى رمز السكون والسلام ، ثم غطى رأسه بخوذة الجند . قالت نيفرت : ليت الملك حاضر ، إذن ما اجترأ أحد ان يحرمك المشاركة فى هذا الاحتفال . قال راميرى : الحق أولى بان يتبع ، لو كان والدى حاضراً لتغيرت معالم هذا الاحتفال ، إذ كان لا بد له من الجلوس على

عرشه الذهبي وخلفه تمثال الحقيقة والعدل حفيظين عليه ، وفوق رأسه الظلة المزخرفة . انظرى يا شقيقتى هذا الجم الغفير من المنجمين والكهان الذين يحملون الاعلام وتماثيل الآلهة ، انظرى قطعان الماشية التى تتبعهم لتقدم قرباناً . أفلو كان الملك والدنا حاضراً أما كان يتجاوز عدد هذه القطعان أضعاف ماهو عليه الا ن ؟ وأما كانت الوفود تترادف من أقصى الاقاليم لأداء ما يجب لمقامه السامى من التبجيل والتعظيم؟ .. انى لم يغب عنى شيء من دقائق الاحتفال حتى الشعار المرسوم على الاعلام(١) وهل تعرفين من هم جدود الملك والدنا الذين تمثلهم تلك الصور والاشكال؟ أظنك لا تستطيعين التمييز بينها لبعدها عنك . . أما أنا فأعرف من تمثلهم . . أرى أن الصورة الاولى تمثل (أحمس) الاول الذى طرد من أرض مصر قوم العمالقة الذين يمت اليهم والدنا بصلة ، ولا تمثل جدى سيتى الاول تمثيلا تاما . أرأيت الجنود ؟ .. لعلهم ممن عادوا من الحبشة ظافرين ودخلوا بالامس مدينة طيبة فرحين مستبشرين . . ما أجمل هذا الاحتفال ! ما أحسن هذا الاستقبال ! ما أشد هذا التصفيق ! ان الجيش لجدير به وحقيق ! لأنه سلك مسلك الشجعان وثبت فى مواطن الجلاد والطعان . وإذا كان استقبال الاهلين له على هذا المثال من

---

(١) كان لكل مركز من مراكز مصر شعار خاص به يرسم أو يطرز على الاعلام التى كانت ترفع في الاحتفالات والمواكب العمومية وكانت ترى فى عهد سيتى الاول ببلدة أبيدوس «العرابة المدنونة» خافقة تتضمن اسماء المراكز والاقاليم . وتحتوى النصوص التى كانت تستعمل فى هيا كل دندره وانس الوجود لتفسير قوائم الاقاليم بيانات مفيدة تتعلق بالانظمة السياسية والدينية لكل اقليم . وقد وصف هاريس وبروكش ودوميشن ودى روجيه وادى النيل وصفا جغرافيا دقيقا

الفخامة والجلال فكيف يكون استقبالهم إذا عاد والدى الهمام وحوله من أسرى الملوك مائة بالتمام ؟ وكان يدبر سير موكبه المنيف قرين نيفرت مينا ذو الاصل العريق الشريف ؟ انى أرى من هذا المكان جميع أصدقائى وخلان ، وأكابر رجال الدولة تبدو على وجوههم أمارات العز والصولة .

ما سمعت نيفرت ذكرى قرينها حتى تنهدت وقالت : وا أسفاه ! واحرّ قلباه ! ما برح ميعاد عودتهم الينا بعيداً . وكان الموكب لا يزال يمر فى مجال أنظار الناظرين كأن لا نهاية له ولا ختام ، إذ كانت الجنود تتلو الجنود بأشكالها المتباينة تتخللها الفرق الموسيقية وتتبعها الحيوانات النادرة (١) ، يمسك بأرسانها وأزمتها العدد العديد من العبيد . أما زورق الاله آمون فكان فى هذه الاثناء بلغ الى منتصف النهر ، فبدا لانظار الجموع المتزاحمة على الضفتين كالعروس تتهادى فى أبهى حلة وتختال فى أجمل زينة ، لانه كان مصنوعا من الخشب الصقيل المكفت بالذهب ومرصع الحافة بكرات بلور (٢) لونها كلون الزمرد والياقوت . وكانت سارياته مموهة بالذهب وشراعه من الحرير القانى ومقاعده

---

(١) وصف يونانى يدعى راليكسونوس شاهد هذه الاحتفالات الحيوانات الاجنبية التى كان يجلبها المصريون من الخارج ليتزين بها احتفال امر باقامته (يطليموس فيلادلف) أو (فيلو ذوفوس بن سوطر) وهو بذلك قد احيى عادة سابقة تشهد بوجودها كتابات ونقوش الاسرة الثامنة عشرة فى قبر (رش مارا) — انظر صحيفتى ٤٦ و ٤٧ من كتاب المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية تأليف معرب هذه الرواية

(٢) وجد فى المتحف المصرى ضمن مجموعة (مينوتولى) ومجاميع اخرى غيرها انواع كثيرة من الاحجار التى صنعت تقليدا للاحجار الكريمة ويقول العارفون ان امهر الصناع فى العصر الحاضر يعجزون عن صناعة مثلها فى اتقان التقليد

من العاج الصقيل بلونه الجميل وأكاليل الورد والزنبق متعانقة متزاوجة فى حبال الساريات بشكل جميل ومثال أنيق . أما سفينة الوالى فكانت تتلألأ بانعكاس أشعة الشمس على رسومها ونقوشها الذهبية . وكانت مفروشة بالطنافس البابلية الثمينة النادرة ، وفى مقدمها رأس أسد من الذهب ، فى موضع العينين منه حجران كبيران من الياقوت كسفائن الملكة حاتاسو . وما كادت السفينة المقدسة المقلة للاله آمون والكهان الذين أخذوا مجالسهم فيها تصل الى الضفة الاخرى حتى تهافت اخلاط الزمر على النزول فى القوارب والزوارق الاخرى التى غصت بهم ، الى حد كان يخشى معه عليها الغرق . وقد بلغت هذه الزوارق عدداً لا يحصى وانتشرت فوق سطح النهر حتى لم يعد الراؤون يرون ماءه من خلالها ولا أشعة الشمس تنعكس عليه لاتصالها بعضها ببعض واختفاء سطح الماء تحتها .

فلما شهد راميرى هذه الجلبة قال : لقد تهيأت لى الفرصة فلا بد من اغتنامها . لقد اعتزمت التنكر بزى بستانى لاجتياز النهر ولترصيع قبور الاجداد بأكاليل الزهر . قالت بنت أنات : أو يرضيك أن ابقى وحيدة مع نيفرت ؟ أجاب بصوت المبتهل : لا تملئي فؤادى حزناً وشجواً يا شقيقتى فقد كفانى ما لقيته . قالت الاميرة : اذهب انى شئت ولو كان والدى هنا لاستطعت مرافقتك . قال راميرى : وما الذى يمنعك منها ما دام لا يعوقك انت ونيفرت عن التنكر مثلى عائق قاطع ؟ فنظرت بنت أنات لنيفرت بعين المستفهم وقالت : ان هذا

الضرب من الجنون . فهزت نيفرت رأسها بما يفيد اقتداءها بها فى كل عمل ، فأدرك راميرى مغزى هذه الاشارة وقال وقد تهلل وجهه فرحاً واستبشاراً : هيا بنا ، فانه لم يبق أحد ولو كان ابن شحاذ الا وقد برح داره اليوم ليلقى أكاليل الازهار فى المهواة التى غيبت فيها جثة والده ، فكيف يليق بأولاد رعمسيس وقرينة مينا الطاهرة الذيل التقصير فى أداء هذا الفرض المقدس وكيف لا يحق لهم وضع الازهار على قبور موتاهم الاعزاء ؟ فما سمعت بنت أنات هذه الكلمات حتى احمرّ وجهها خجلا وقالت : ان فى وجودى بجوار القبور ما يدعو الى تدنيسها . فمدّ الامير راميرى ذراعيه لعناق شقيقته وقبلها بين عينيها قائلا . أمثلك من يدنس القبور ! . . . أنت التى خلقها الله لتخفيف ويلات المنكوبين وتجفيف دموع الباكين بحسن العزاء ومقبول الدعاء ! . . أنت التى بصورتها الفاتنة ومخايلها الطاهرة تذكرنا بصورة والدنا الكريم ؟ . . أيمكن أن يكون مثلك ، أنت ايها الملاك ، مدنساً يقذر بلوثه ويلطخ برجسه الموتى ؟ . . اذا سلمت بالمستحيل فقلت أن البجعة الناصعة البياض التى أراها هناك حالكة السواد كالليل البهيم أو الغراب الفاحم اللون ، وان هذه الورود الزاهية الالوان التى نمقت بها شرفة القصر وامتلأ بعبيقها كل مكان ليست وروداً بل هي نبات الشكران فأهون على نفسى التسليم بهذا الزعم من أن تتخيل لحوق الدنس بك . وبعد فهل أنت مدنسة ؟ . . ألم يطهرك الكاهن (بك ان شونسو) ، واذا كان أميني . قاطعته بنت أنات : لقد أصاب أميني الحق فى فعله . وأولى بك أن

تفكر فيما نحن فيه لا أن تذمه . قال راميرى ساخراً : نعم أصاب أمينى وأجاد وأفاد بما فوق المراد وانى لمائله على القول بدنسك وبانه لا يجوز لك غشيان المقابر ولا الهياكل ، ولكن أهناك ما يحول دون امتزاجنا باخلاط الزمر أم هل للطرقات فى تلك الجهات حاسة تميز بها ظهر الانسان ودنسه ؟ أما هي نفس الطرقات والمسالك التى تطأ ثراها صباح مساء اقدام المحنطين وغيرهم ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة لدنس حرفتهم . . زنى كلامي يا أختاه بميزان العقل واعرضيه على محك النقد الصحيح واعدلى عن عزم البقاء فى هذا المكان وتعالى معى الى حيث ترمي بنا ظروف الحدثان . . تعالى نتنكر ، فاذا انطلت الحيلة ولم يتعرف علينا أحد جعلت نفسى مرشداً لك وهديتك السبيل . عندئذ نضع أكاليل الزهور على القبور ونصلى للموتى ، ثم نتبع الموكب فنسمع الخطب ونمتع الطرف بعجائب اصحاب المعجزات ، ولا بد لبنطاؤور بالرغم مما دهي به أن ينبرى للخطابة . ولا يذهبن عليك اعتقاد أمينى أنه متى تكلم خلب المسامع بسحر بيانه وأطرب الافئدة بالاناشيد المقدسة . فهيا بنا هيا يا اختاه لشهود الاحتفال . قالت بنت أنات فجأة : هلم بنا الى الامام ؟

ما سمع راميرى هذه الكلمة حتى اعترته دهشة السرور لاجابة اخته طلبه وتحقيقها متمناه . أما نيفرت فنظرت للاميرة بعين المستفهم المستثبت ثم حولت وجهها الى جهة أخرى ، بعد إذ أيقنت تولة فؤاد بنت أنات وأنها دخلت فى زمرة العشاق المستعرة قلوبهم بنار الاشواق .

الفصل الثالث

وقائع أميرتين وشاب اقتحم الاهوال فصار من الابطال

لم تمض ساعة من الزمان حتى كان ثلاثة أشخاص متنكرين بثياب خالية من الزخرف يجتازون نهر النيل ، امرأة معتدلة القوام تبدو على محياها سمات الهرم الا أن فى رشاقة قدها ولين اعطافها ما يدل على فتاء السن . وشاب اسمر وغلام يناهز الخامسة عشرة من العمر . وكان يتعذر على المتوسم فيهم التسليم بأنهم بنت أنات وراميرى ونيفرت الذين أتقنوا التنكر بتغيير ازيائهم وألوانهم حتى لا يرتاب أحد فى أمرهم .

فلما بلغوا الى الضفة اليسرى من النيل أشارت بنت أنات الى اثنين من اتباعها أن يدنوا منها . فلما فعلا سارتهما بكلام ثم صرفتهما فذهبا بعيداً عنها وأخذا يقتفيان أثرها بحيث لا يتوهم أحد أن لهما علاقة بها . ولم يكن الثلاثة قد تمكنوا من عبور النهر الا بعد ما ذاقوا من المشاق ما لا يذوقه عادة غير العامه والافناء ، ذلك لانهم لم يكونوا التمسوا دليلا ليفسح لهم الطريق كالمعتاد أو يمنع الزوارق الاخرى من مسابقة زوارقهم ومزاحمتها فى الوصول قبلهم الى الضفة الغربية من النيل . ولم يكن على أحد فى ذلك حرج لان الظروف قضت بان يجهل الطرفان أحدهما الآخر بهذا المثال . وما نزل الثلاثة هذه الضفة حتى كان الموكب بلغ الى هيكل سيتى ودخل فيه .

وكان الكاهن الاعظم واقفاً على ضفة النيل لاستقباله ، يحف به الكهان والمنشدون وأنبياء مدينة الاموات الذين سارعوا الى وضع الاله آمون فى سفينة سام المصفحة بالفضة والذهب والمرصعة بالاحجار الكريمة . ثم تقدم ثلاثون خادماً فحملوا السفينة على الاعناق لينقلوها الى صدر الهيكل حيث تقام الصلوات الدينية . وكان المشرحون يركعون أمامهم وينثرون بمنة ويسرة فى الطريق شذور الذهب (١) . وكان نواب الاقاليم ووفود المراكز أفواجا وشتوتاً فى فناء الهيكل يستعدون للقاء الاله وتقديم ما جاءوا به من الهدايا والقرابين اليه . وبعد أن قاموا بهذا الفرض المقدس تحرك الموكب من الهيكل سائراً فى الطريق التى اعتاد السير فيها كل عام وهي الآخذة من الشمال الى الجنوب . فلما دنا من مدخل هيكل أمينوفيس الثالث الذى نصب أمامه تمثالان هما أكبر تماثيل وادى النيل حجما وأعظمها روعة قصد الى هيكل تحوتمس الاكبر (٢) ثم قفل راجعاً ، مقتفياً فى سيره السفوح الشرقية من جبال ليبية ، وهي السفوح الصخرية الصلدة التى نقبت فيها القبور على شكل يجعلها شبيهة بخلايا بيت النحل (٣) ثم صعد الى سطوح هيكل حاتاسو وانحدر منها الى السهل المجاور لقبور الملوك السابقين (٤)

ولما آذنت الشمس بالمغيب كان الموكب قد بلغ مقر الاحتفال

---

(١) هى المعروفة اليوم باسم قرنة موراى .

(٢) هى المعروفة اليوم باسم الاساسيف ودار أبو النجا

(٣) انظر صحيفات ٤١ و ٤٣ و ٨٥ و ٨٨ من الجزء الاول من كتاب بابرونى المسمى « ابيرى جركس رجى تورن سيس »

(٤) هى اقدم جزء من هيكل مدينة آبو ولا تزال محفوظة لم تعتد عليها عوادى الدهر

بالقرب من مدخل الوادى المؤدى الى مقابر سيتى ، وفى نهاية قبور الاسرة الملكية التى اغتصب زمام الحكم من يدها . وكانت العادة في زيارة هذه القبور الاستضاءة بالمصابيح والمشاعل قبل رجوع الاله الى الهيكل وأن يبدأ بالتمثيل قبيل نصف الليل فوق البحيرة المقدسة جنوبى مدينة الاموات . وكان قلب الحمل المقدس، اثناء سير الموكب، فى إناء من البلور مثبت بطرف قضيب طويل يحمله رجل يتبع زورق الاله ، وقد روعي هذا الترتيب لتقع عليه أنظار الجموع الحشيدة لشهود الاحتفال .

أما بنت أنات وراميرى ونيفرت ، فقد تهيأت لهم بتدابيرهم الاسباب لوضع الزهور على قبور الاجداد دون أن يتنبه لهم أحد ، ثم اندمجوا فى الجماعات التى كانت تقتفي أثر الموكب ، وظلوا سائرين حتى بلغوا الى كهف جدود مينا الذى شاده والد جده (نفر حوتب) وقتما كان نبياً لهيكل آمون . وكانت رحبة ذلك الكهف غاصة بالناس يتسمعون فى سكينة وخشوع صوتاً منبعثاً من الداخل ، هو صوت شاعر ينشد نشيداً نظم لآلىء الفاظه ودرر معانيه شاعر ممن عاصروا ذلك النبي ، تعظيما لمقامه وترفيعاً لقدره ، لانه أوقف قطعة ارض لينفق من ريعها على من يقوم بترتيل ذلك النشيد فى كل عام لمناسبة الاحتفال بعيد الموتي ، وحتى لا يعتور معانيه تحريف نقشت عبارته على الصخر لتدوم بدوامه ما كرّ الجديدان وتعاقب القيران .

وكان مينا يترنم فيما مضى بأبيات هذا النشيد الحسنة الانسجام ، وكانت نيفرت تتابع نغماته بالايقاع على العود . وليس فى هذا ما يستدعي

العجب لان المصريين كانت تدفع بهم الفطرة الى مزج الافراح بذكرى الموتى ، وهذا الدافع الغريزي نفسه هو الذى حمل بنت أنات ونيفرت ورامیرى على الوقوف لسماع النشيد الذى نورده هنا بمعناه .

« أيها الميت الشريف ذو المقام المنيف ! لقد لجأت الى الراحة الابدية والسعادة السرمدية ، وتجلت لك حقيقة الاشياء بأسبابها بعد ان عزت على طلابها ، وتأكد ان أحداً من البشر لا مفرّ له من يد القدر ، بل لا مناص له من محتوم القضاء لان الارض طريق السماء . لقد آذنت الشمس بالافول وأمست فى دنو أجلها كالشيخ الكهول ، فيا أيها الكوكب البهي الساطع والجرم العلوي اللامع ؟ لقد أقمنا لك شعائر الاحتفال على أحسن مثال ، فلا غرو إذا تعاقبت الاعياد على توالى الاعصار تعاقب الليل والنهار ، وأطرقنا الرؤوس برهاناً على الخشوع والوجل لتودع قلوبنا الامل ، وسكبنا ما عندنا من الزيت وزيادة تفاؤلا بالحسنى والسعادة ، وطرحنا أكاليل الزهور على هذه القبور ، التى غيب فيها خير الاهل والاقرباء وأعز الاصدقاء الاوفياء ، فتقبل إلهنا هذه الروائح العطرية التى تسطع إجلالا لقدرتك الربانيه ، واطرح على وجوهنا شعاعاً من ضيائك المتألق ليظهر ما عليها من الدمع المتدفق ، واجعلنا فى موئل من صواعق غضبك والانتقام فأنها تمحق القلوب الضالة فى حالك الظلام . أيها الآلهة الساكنون فى منازل السلام والسكون ! تقبلوا دعاءنا حققوا رجاءنا ، كونوا لنا أدلاء وأصدقاء أوفياء ، يوم السفر الى المحشر ، يوم الرحيل الى الحظيرة

الربانية بالضفة القدسية » .

فلما أمسك المنشدون عن النشيد أخذ جمهور السامعين يلقون على المصلى نثار الازهار ، اشارة الى ما يداخلهم من الفرح والاستبشار . أما راميرى ونيفرت فنزلا الى كهف الموتى ، فأخذت نيفرت تصلى وتلتمس من ارواحهم أن تصون حياة مينا من غدر الزمان وطوارىء الحدثان . ثم وضعت برفق ولطف اكليلا من الورد على التابوت الذى يحتوى جثة والدته . وحدث فى غضون ذلك أن فريقا من رجال البطانة الملكية مروا بالامير راميرى والاميرة بنت أنات دون أن يعرفوا منهما احدا وازدحم الناس ازدحاماً اضطر الاميرة ونيفرت مراراً الى اللياذ بالكهوف الموجودة بالطريق . وكان أغلبها ساطعاً بالانوار يتهافت الناس على غشيانها أفواجاً حاملين معهم الشواء والفواكه والنبيذ والجعة . وليس فى تقديمهم هذه الهدايا ما يستدعي العجب فليس الموتى بحسن العقيدة المستكنة فى نفوسهم الا قوما رحلوا الى بلد مجهول هم فيه أحوج من سواهم الى الزاد اللازم لصيانة حياتهم وحفظ ذمائهم فى هذه الرحله الطويلة .

كانت الشمس تهوى الى الغروب حينما مدت على حفاف الساحة التى أقيمت بها الحفلات الموائد ورصت عليها ألوان الطعام وما تشتهيه النفوس من الحلويات اللذيذة على اختلاف أشكالها والفواكه الطريئة من تين وأعناب وتمر ورمان ، وصفت على موائد غيرها ألوف الصنوف من الاحذية والانسجة والاعطار والمراوح ومواد الزينة والزخرف

وأدوات القرابين ووسائل التجمل والتزين ، فما هي إلا ساعة حتى خلت الأوعية الشاملة لتلك المعروضات مما فيها لاقبال الناس على اشترائها وتنافسهم فى اقتنائها ، وتهافت الناس حول موائد اللعب وبيع السوائل المخمرة والمشروبات المخدرة . وكانوا يتلاقون فى الطرقات فيسوق أحدهم للآخر مثلا من أمثال الحض على التقوى أو حديثا من الاحاديث الموضوعة للحث على الاحسان والخير . أما الاطفال فكانوا يتبعون والديهم ويشيرون الى ما يروق لهم من الحلوى المعروضة والاحذية التى كسبت فى اللعب ، ويتكاثرون بما معهم من الحلقات النحاسية التى وزعت عليهم للبذرقة والتنعم . وكان أرباب المعجزات فى بيت سيتى يستهوون الجموع ويستدرجونهم الى الالتفاف بهم بما كانوا يعرضونه عليهم من غرائب الحيل . وكانت حلقة الجمع إذا صفقت استحسانا لمعجزة توارد المارة حولها لاستطلاع الخبر . فلما مرت بنت أنات بهذا المكان كانت الحفلات الدينية قد انتهت وبدت لانظار الناظرين الظلة التى اعتاد الملك وأعضاء أسرته الجلوس فى ظلها أثناء الاحتفال . ولكن لم يكن أحدهم جالسا تحتها ، وإنما الذى اغتصب حق الجلوس فيها هو الوالى آنى تحف به هيبة الملوك ، غير أن الكراسي التى صفت الى جانبي عرشه كانت خالية من الجلساء فضاع منها الرونق والرواء .

فى هذا المكان المعظم وتحت تلك الظلة الملكية الجليلة نهض أمينى الكاهن الاعظم واقفا وأعلن للشعب معجزة قلب الحمل والاهتداء الى محل أبيس جديد فى قطعان ماشية الوالى آنى . وقد تداولت الالسنة

الخبرين وأخذ ألوف الناقمين على الاسرة المالكة يفسرون خطبته كلمة كلمة ويحملونها على معانى كثيرة ويذهبون فى توضيح غوامضها مذاهب شتى ، ولكنهم أدركوا بالرغم من هذا التباين مغزى قوله « إن معجزة قلب الحمل وسهولة الاهتداء الى عجل أبيس فى قطعان الوالى آنى فألان مبشران بدخول مصر فى دور جديد من السعادة والطمأنينة اللتين حرمتهما منذ عهد بعيد » ، اذ حولوا أنظارهم جميعاً نحو الوالى وقد أدركوا أنه المقصود بهذه الاشارة المبهمة . أما بنطاؤر فكان انتهى من القاء خطبته لما بلغت بنت أنات ورفيقاها ساحة الاحتفال، وقد صدمت فى سيرها شيخا قوس الهرم ظهره كان يحدث ولده الواقف الى جانبه بقوله : ما أمر علقم هذه الحياة !.. كثيراً ما خطر لى أن أطرح هذا العبء الثقيل الذى أبهظ الآلهة به عاتقى ، وها هي المرة الاولى التى سمعت فيها هذا الكاهن الشاب يقول ما فهمت منه أن الآلهة يعاملوننا برفق يوجب علينا لهم جزيل الحمد ووافر الثناء .

ثم سمعت زوجة كاهن تقول لابنها : أرأيت يا (هور أونزا) بنطاؤر الكاتب الحصيف والشاعر الجيد الشعر الحسن الانتزاع له، وهل سمعته وهو يقرع الاسماع بجواهر لفظه ؟.. إذا نظرته وعرفته فأننى مخبرتك عنه بأنه مع ضعة أصله قد سبق فحول الرجال برجاحة عقله وسعة علمه وصدق فراسته وحسن تصرفه فى الترسل ووفور حظه من صوغ المعانى الشريفة فى الالفاظ العذبة اللطيفة ، وإني لاتمنى له مستقبلا حسنا ومكانة علية بين رجال هذا العصر . وكانت غادتان واقفتين

بالقرب من منبر الخطابة . فلما شهدتا بنطاؤر أعجبهما حسن مرآه وجمال محياه فقالت احداهما للاخرى : ان خطيب اليوم قد برع فى الجمال كما برع فى البلاغة وحميد الخصال ، وما أرق صوته الذى يدخل الآذان بلا استئذان ! فقالت الاخرى : لقد رأيت علامات الهمة والنبل بادية على وجهه حينما طرق باب البحث فى الحقيقة والفضيلة ، لهذا لا استبعد أن يكون قلبه ممتلئاً بالمنح الربانية والهبات الالهية ، وما الوجه إلا مرآة القلب .

ما طرقت هذه المدائح سمع بنت أنات حتى احمر وجهها خجلا وتمنت لو أرخى الليل سدوله لتعود الى قصرها مع رفقتها ، غير أن أخاها راميرى أبى الا ان تقتفى معه أثر الموكب والاسترشاد فى طريقه بنور المشاعل ليوغل فى الوادى الغربى ويزور قبر جده سيتى ، فوافقته الاميرة بالرغم منها لانه كان يتعذر عليها الرجوع بلا رفيق فى الطريق المؤدى الى ضفة النيل لتدفق الناس فيه وتدافعهم بالمناكب ابتغاء السبق الى هذه الضفة . وكان لا مفرّ لها إذا هي خالفت أخاها ، من أحد أمرين : إما الانحدار مع تيار الجموع أو الرضاء بمصادمتهم فى معارضتها هذا التيار الجارف ومقاومة حركته .

ما بلغت الاميرة ونيفرت وراميرى الى الوادى حتى أرخى الليل سدوله ولم يبق للضباع وبنات آوى من أثر لما أجفلها من ضوضاء الناس وتألق الانوار وهو ما لم تألفه فى بطن الصحراء ، بل ومن تحول غمغمة أصوات هؤلاء القوم وهم فى طريقهم الى الوادى الى ضجة عالية وصياح

مرتفع ، وذلك بعد إذ انسابوا فيه وانتشروا فى نواحيه يحملون المصابيح التى يحيط بلهبها ورق البردى ملونا بالالوان الزاهية ويتصاعد من بينهم العثير والدخان فيصير فوق رؤوسهم كالسحب المتكاثفة .

وكانت بنت أنات قد بلغت من سيرها مع رفاقها الى نقطة تجاه الكوخ الحقير الذى يسكنه الشيخ بنم ، فوقفت مع من وقف من الناس ، لان الحراس المنوط بهم صون النظام كانوا يدفعون الجموع المزدحمة بعصيهم الطويلة الى عطفى الطريق ، ليمكنوا الموكب من المرور . فأومأت الاميرة عندئذ الى بيت بنم وقالت لأخيها : أترى هذا المنزل الحقير ؟ إن فيه الأيكة البيضاء التى دهمتها جياد مركبتى واصابتها فى صدرها بجرح بالغ . ثم نظرت من خلال الحاجز الى الضوء الضعيف الذى يلقى أشعته على محياها السنى ، وقالت : ها هي تلك الجالسة الى جانب جدها . . أفتراها ؟ . .

فوقف الامير على أطراف أصابع قدميه حتى استمكن من رؤيتها وما كادت تقع عيناه عليها حتى بهت وصاح : إن جمالها ليأخذ بالالباب ولكن ما ذا تراها تعمل لهذا الشيخ الهرم . . يبدو لى أنه يؤدى فريضة الصلاة وانها تضع منديلا على مكان والقلق يشاور فؤادها . قالت الاميرة : لعل جدها الشيخ أصيب بعارض مرض . قال الامير ضاحكا : المرجح عندى أنه أفرط من شرب النبيذ فتوهم أن نفسه تسيل معه ، وإلا فماذا أرى ؟ انه يحرك شفتيه وعينيه على وجه ترتاع منه النفس ؛ ولعل بالرجل مساً أو طائفا من الجنون . قالت نيفرت : كل ما فى

الامر أنه من المدنسين . قالت الاميرة : ولكن دنسه لا يحول دون اتصافه بالتقى والاستقامة . ولقد تقصيت أحواله واستبطنت أسراره فعلمت أنه رجل قنوع محب للصلاح والخير متفرغ للعبادة . ومن ثم ترانى أرجح أنه مريض لا سكران . وما كادت الاميرة تتم هذا الكلام حتى ألقى راميرى المصباح من يده وصاح قائلا : انى أراها تقف على قدميها . . هلمى انظريها يا بنت أنات .. أفلا تكون فى حاجة الى معاونة أحد . . ما رأيت قط فى حياتى فتاة فاقتها فى بياض البشرة ورشاقة القوام وحلاوة المنظر ، غير أنى أتبين اضطراباً وتخلخلا فى مشيتها لعل منشاهما ضعف قوتها على أثر مرضها . . ها قد عادت فجلست الى جانب الشيخ وأخذت تعرك جبهته بكفها . ما أشقى حظ هذه الفاتنة فأنها بدأت تئن وتبكي . . أود ان القي اليها بكيس نقودى لعلها بما يحتويه تصرف الشجن عن فؤادها . قالت بنت أنات : حذاريك هذا الامر ، لانى كثيراً ما أرسلت اليها الهدايا فكانت تأبى قبولها ، وليست نقودك هي التى ستجلو صدأ الحزن عن نفسها ، لان المال وان كثر لا يكفكف الدمع ولا يستل الحزن من تضاعيف الصدر . وقد اعتزمت أن أرسل اليها فى الغد العجوز (أسنات) لتقف على سر ما برح بها من الحزن فاعمل عندئذ على تسرية همها وإجلاء كربها . . أجيلى يا نيفرت النظر فى الموكب واحتشاد الناس فيه ومضايقتهم إيانا بتدفقهم . . ولا مفر لنا عقب مرور الاله من الأوبة الى القصر . قالت نيفرت : وأنا الأخرى أود أن لو سارعنا بالعودة اليه فقد استطير لبي

وملأ الرعب قلبي . ثم دنت من الاميرة والتصقت بها فزعة مضطربة .

قالت بنت أنات : أخشى أن يقع ما لم يكن فى حسابنا من التأخر فى العودة . قال راميرى : ما أجمل هذا المنظر . . فأنى أرى قلب الحمل يلمع فى انائه لمعان الكوكب فى السماء . وكان الناس خروا على الاذقان سجداً اجلالا له ، فاقتدى بهم اصحابنا الثلاثة . وحدث أن وقف الموكب فترة من الزمن تجاههم ، لانه كان كلما قطع الف خطوة وقف ليلتمس السائرون فيه الراحة من عناء السير ، لا سيما وأن عددهم بلغ الالوف ومنهم الضعيف وذو العاهة ، وهم أحوج الناس الى تزويد أنفسهم القوة لاستئناف المسير . ولقد سمعوا البشير فى مقدمة الموكب يزف الى جمهور الامة بشرى المعجزة ويفسر لهم اسبابها . وكان صوته الجهوري يرن فى أركان الفضاء فيرجعه الافق ترجيعاً واضحاً صريحاً ، بالرغم من ضمنمة الجموع المتزاحمة والافواج المتراكمة . ومما ضاعف اضطرابهم وضجيجهم عند تطفيل الشمس ان القلب الالهى كان يسطع فى انائه البلورى ، كأن له شعاعاً ذاتياً ينبعث منه فيكاد نوره يضىء الاقطار ويخطف سناؤه الابصار .

أما بنيم فكان لم يذق الطعام منذ برح ، فى اليوم السابق ، دار المحنطين عائداً الى كوخه الحقير ، بل ظل الوقت كله واجماً صامتاً لما ألقي فى روعه من القلق والانزعاج ، وبلغ من ذهوله أنه لم يجاوب على سؤال واحد مما كانت زوجته وحفيدته توجهانه اليه . وكل ما شهدتاه منه أنه كان دائب التحديق بنظره فى نقطة واحدة ، وأنه كان

يتمتم بكلمات لا يفهم السامع لها معنى ويرفع يده من وقت لآخر الى جبهته بحيث كان يخيل لهما أنه مصاب بألم شديد فى رأسه أو ان بهذا الرأس أفكاراً وهواجس رديئة سلبته الطمأنينة وصبت عليه جام الهموم . وتمادت به هذه الحال حتى ضاع رشده وأخذ يهذى تارة ويضحك أخرى من غير سبب ظاهر ، فلما خشيت زوجته عاقبة أمره عجلت بالذهاب الى هيكل سبتي لاستدعاء الطبيب نبسشت .

ولقد سبق الى نفس وردة ، لما رأته فى هذه الحال ، أن تضع على جبهته بعض الحشائش الخضراء التى جاءت بها الساحرة نيخت معتقدة انها إذا لم تشفه من علته فلا أقل من أن تخففها عنه . وما وقف الموكب الذى كانت تحف به الالوف من حملة المصابيح أمام بيت المحنط حتى قال رجل لآخر : هذا قلب الحمل أفلا تراه ؟ فلما سمع بينم سؤاله ارتعدت فرائصه ، بيد أنه ملك جأشه ووقف على قدميه وأخذ يمعن النظر فى القلب وهو يتلألأ فى إنائه البلورى الشفاف ويتصعد الدخان حوله من مجامر الطيب فحفز الخوف أحشاءه وتطاول عنقه للاستطلاع ثم أخذ يتسمع أقوال الناس ليعى طرفا من حديثهم ويعير أذنه لكل صوت ، فسمع المبشر يعلن بشرى المعجزة بصوت جهير وأخذ يتفرس فى الوجوه فرأى الناس وقد لزموا الصمت والسكون خشوعا واجلالا . وكان لهذه المظاهر أثر شديد فى نفسه فلم يتمالك أن دفع بنفسه بينهم ومضى فى تيارهم ونفذ فى صفوفهم واجئا بكفه فى وجهه وجبهته ، واستمر يزاحم الناس حتى اذا صار على مقربة من القلب المقدس

ضحك ظهراً لبطن وعلت قهقهته حتى خيل للسائرين فى الموكب أن من وراء الآكام والصخور رهطا من المجانين يضيعون في التماجن والتطايب الوقت الثمين .

وقف الناس لهذا السبب ، وقد أخذ الهلع من نفوسهم كل مأخذ ، فحدد الكاهن الاعظم نظره فى بينم ، ولم يكن يعرفه من قبل . وتصفح وجهه ثم وقع بصره على الضوء الضعيف المنبعث من بيته ففهم على الفور أن الرجل تسلل الى الموكب من هذا الوكر الحقير وأيقن أنه لا بد أن يكون من طائفة المخنطين اللعينة وعالما بسر القلب ، فمال على ضابط كان يسير الى جانبه ليتلقى منه أوامره وهمس فى أذنه بكلمات مومئاً الى بينم المجنون ثم استأنف السير كأن لم يحدث حادث ولم يضحك ضاحك .

أما الشيخ فكان لا يزال يضحك ضحك من أصابه خبل المجاذيب حتى القى بنفسه على حامل القلب اللامع فانقض اليه بعض الاعوان وأدركوه قبل أن يلحق به أذى ثم قبضوا عليه ، فحاول التملص من أيديهم فضربوه ضرباً مسرفاً ثم تركوه . وما كادت الزمر التى تتألف منها مؤخرة الموكب تمر بمكان الواقعة حتى كان مطروحاً أمام كوخه الحقير يتخبط فى دمه الذى كان يسيل غزيراً من جراحه الفادحة . ولقد برزت وردة فرأته فى هذه الحالة ، فلم تعرف بادىء ذى بدء أنه جدها لحلكة الظلام . . وكان فريق ممن أخذتهم نعرة الدين اقتفوا أثره وهم سكرى بسورة الغضب والنبيذ وأخذوا ينعقون : ألا فاسرعوا الوثبة اليه ! اقتلوا هذا الدنىء الحقير ، سوأة له ! . . قطعوه لربا ، أسخن الله

هينه ! . . احرقوا وكره المدنس . . القوه فى النار مع هـذه الفتاة التى برزت من هذا الوكر اللعين لترى ما حل به . . فالى لعنة الآلهة كلاهما وحر سقر ! . .

وكان فى الجمع امرأتان نزعتا المصابيح من اطراف قوائمها ورمتا بها الرجل المسكين ، ودنا جندي حبشي من وردة فجذبها من ناصيتها وسحبها على وجهها . ولكن لم تمض برهة حتى أقبلت زوجة بينم ومعه بنطاؤر، لانها لم تجد الطبيب نبسشت فخبرت الشاعر بأن الشياطين حلت فى زوجها فحضر من فوره للاطلاع على هذا الحادث . وكان ساعتئذ بلباس العمل لانه لما ألقي خطبته وعاد الى الهيكل لم يتجرد من الثياب البيضاء وهى شوار الكهان وشارتهم التى يعرفون بها وافرغها على جسمه حتي لا يقف أحد على حقيقة أمره .

ولقد مر بنظره حينما وصل الى بيت المحنط أمر هائل ومنظر رهيب . ذلك أن اخلاط القوم وسقاطهم كانت صدورهم تغلى بحزازات التعصب الديني فطرحوا ذلك الشيخ الضعيف أرضاً وأمسكوا بتلابيب وردة كما قلنا وأسرفوا فى الاساءة اليهما ، فما وسعه عندئذ وقد أحفظه هـذا العدوان الذى لا مبرر له إلا الانقضاض على الحبشي واشباعه ضرباً . وقد أمسك به من نطاقه ورفعه فى الجو بكلتا يديه ثم طرحه بعيداً عنه كما يطرح العبء الثقيل ، وشهد القوم منه هـذه البسالة فارتاعوا وتقهقروا متراجعين ، بيد أن الحقد الذى ملأ صدورهم حفزهم للوثبة على بنطاؤر والتنكيل به وتناصروا فى هجومهم عليه . وكان من

شأنهم معه فى ذلك ما يرى من الذئاب الخاطفة حينما تهم بالهجوم على فريستها للفتك بها ، فما تمالك أن اقتلع أحد أعمدة الظلة التى كان أقامها ينم لوقاية حفيدته من حر الهجير . وكان هذا العمود من خشب الحبشة المعروف بشدة الصلابة فأخذ الشاعر يدور على نفسه وهو قابض على أحد طرفيه فيرسم فى دورانه بالطرف الآخر دائرة لم تحدث نفس واحد من أولئك الناقمين باقتحامه إياها لما كان يصيبه من الأذى لو أقدم على هذا الفعل ، وبهذه المثابة استطاع أن يستخلص وردة من مخالب عدوانهم . ثم قال لهم : ان من يجرأ منكم على إصابة هذه الغادة بأذى فليوطن نفسه على الاعتقاد بدنو أجله . . تعسا لكم وسوأة أيها الانذال ! أفلا تخجلون وقد بلغ عددكم المائة أن تسيئوا الى شيخ قد وقع على الارض مغشياً عليه وفتاة لا تملك لضعفها الذود عن حياتها ؟ لاحيا كم الله ولاحيي آباءكم ، فقد دنستم هذا الاحتفال بارتكاب جريمة لم تنسج فى الشناعة على منوال .

فظل المعتدون تجاه هذا التقريع مبهوتين فترة من الزمن لا يدرون ما ذا يعملون ، ولكنهم مالبثوا أن أعادوا كرة الهجوم على الشاعر والفتاة والشيخ ، بأغراء من لم يشهدوا الحادث من أصله بل كانوا ينسلون من كل فج وحدب لاستطلاع الخبر . وقد اختلط حابلهم بالنابل فلم تسمع الا همهمة تتخللها صيحة : فلنحرق المدنسين ، فلنضرم النار فى وكرهم اللعين ؟ . . ودنا من الشاعر بنطاؤر فريق من صناع مدينة طيبة وأخذوا عليه الآفاق وضيقوا النطاق ، دون أن يتمكن أحدهم

من تبين حقيقته أو يعلم أنه من الكهان ، بسبب تنكره من جهة واحتدام الفتنة فى ظلام الليل من جهة أخرى ، وتناول غير العمود عصا كبيرة أخذ يهوى بها ضرباً مسرفاً على كل من يدنو منه ويتقي بواسطتها لكمات المعتدين وضربات عصيهم ، ولبث هكذا فى جهاد عظيم وبلاء شديد حتى اصطدم وهو لا يدرى بحاجز ضعيف خلفه ، فجاء سقوط هذا الحاجز ضغثا على إبالة إذ اغتنم بقية الثائرين هذه الفرصة لمهاجمته من الخلف والقاء جذوة نار على بيت المحنط ، فسرعان ما شب فيه ضرامها . وكان مبنياً بسعف النخل الجاف فأكله عن آخره وجعله رماداً تذروه الرياح وأضاء القوم لهيب النار فاستأنفوا كرة الهجوم . وكان بنطاؤر قد خارت قوته وتلاشت ، بيد أن ذلك لم يثنه عن مواصلة الدفاع عن وردة التى كانت لائذة به لا تفارقه ، غير أن رجلين اختطفا العصا من يده على غرة منه فامسى أعزل من سلاح يذود به عن حوضه ويدفع شر العدوان عن وردة ، وصاح الناس لذلك صيحات الفوز والانتصار . وكان اليأس آنئذ يدب فى قلبه ويحل منه محل الرجاء ، فاذا بشاب قد اخترق الصفوف وبيده سيف مصلتا قدمه الى بنطاؤر وتراكن الاثنان ظهراً لظهر فأخذ بنطاؤر يجيله متهدداً به القوم حتى تراجعوا بعيداً عنه لما تولاهم من الخوف . ثم حمل عليهم حملة صادقة صارخاً فى وجوههم فكان فى حركاته ووثباته وصيحاته أشبه ببطل كمي رأى مع ضعف قوته ان الغلبة له على أعدائه الكثيرين أو انه ليث العرين أريد به السوء فخرج للذياد عن حوضه مزمجراً مكشراً

عن أنيابه فملأ قلوب مريدى السوء به هلعاً وفزعاً . وكان الامير راميرى وهو ذلك المجهول الذى حمل السيف الى بنطاؤر ممسكا بخنجر يدفع به عن نفسه فقال للشاعر : .. ان هؤلاء الجبناء يلقون علينا جذوات النار . ثم ترامى على وردة فأطفأ النار التى بدأت تشب بأطراف ثوبها . ورمى بعض الناس بنطاؤر بالاحجار فأصابه أحدها باصابة تزعزع منها ركنه وخارت قوته ثم تدفق القوم كتلة واحدة على بنطاؤر فسقط حاجز كان قائما هناك وظهرت فى الحال منه غادة سمهرية القوام لم تنشب أن توسطتهم قائلة : قفوا مكانكم أيها القوم !.. انى بصفتى بنت أنات فتاة رعمسيس آمركم بالكف عن هذا العدوان الخسيس . .

فما سمع المعتدون هذه الكلمات حتى بهتوا وتولتهم الحيرة ووقفوا صامتين واجمين ، فرفع بنطاؤر رأسه وودّ أن لو جثا على ركبتيه أمام ابنة رعمسيس التى ساقها المقدور فى أنسب وقت لانقاذه من مخالب الموت ، شكراً لها . ولكنه تذكر ما تلقاه من الدروس عن الكاهن الاعظم وما بناه عليها من الحكم بخطأ الامبرة فى مخالطتها جموعاً تسمو على عظماء أفرادها سمواً عظيما ، فبدلا من أن يجثو على ركبتيه قال بصوت جهورى : مهما يكن من أمر هذه الغادة التى ساقها القدر لانقاذى من مخالب الموت ، ومهما يكن بينها وبنت أنات من قرائن الشبه الكثيرة فليست هي حتما بابنة رعمسيس . أما ان أردتم معرفتى فانى منبئكم باني بنطاؤر كاهن هيكل سيتى وخطيب الاحتفال فى هذا اليوم وبصفتي هذه وباسم وظيفتي المقدسة آمرك أيتها الفتاة بمغادرة

هذا المكان فى أقرب آن .

خضعت الاميرة لاشارته وظل الناس سكوتا زمنا قام بعقبه شاب أصيب فى يده بجراح خطيرة فقال : هـذا الرجل جندي لا كاهن كما يدعي، فلا بد لنا من قتله لأنه غاش والغاش غير خليق بالحياة . ولكن سمع صوت آخر منبعثا من وسط الجمع يقول صاحبه : تنحوا للكهان .. دعوا بنطاؤر صديقى وخطيب الاحتفال فى أمن وسلام . . امامن أحد بينكم يعرفنى ؟ أجاب نوتيّ من الحاضرين : أنا أعرفك أنت نبسشت الطبيب . . أنت الذى عالجنى من كسر فى ساقي . وأجاب آخر : أنت الذى عالجنى من رمد فى عينى كاد يذهب بنورها . وقالت غادة هيفاء مومئة الى بنطاؤر : أما هذا الشاب الجميل الطلعة فكان خطيب الاعياد اليوم . فلما سمع الشاب المصاب فى يده بالجرح هـذا القول ثار فيه ثائر الغضب وحاول الوثوب على الشاعر قائلا . ان يكن خطيباً أو لم يكن فهذا لا يعنيني . فجذبه بعض الحاضرين من ناصيته وحالوا دون اعتدائه على الشاعر ، ثم افسحوا الطريق لنبسشت الذى مال على بينم هنيهة لم يلبث أن رفع رأسه بعدها وقد ظهرت على وجهه علامات اليأس والغضب وقال : لبئس القوم هؤلاء الذين قتلوا الشيخ المسكين . قال بنطاؤر : وذه أول مرة فى حياتى لوثت يدي فيها بدم الغير فى سبيل استخلاص وردة النضرة الزكية من مخالب الموت الذى انتاب جدها العاثر الحظ .

ما كادت كلمة وردة ترن فى أذن نبسشت حتى أخذ يروح ويغدو

مجداً في البحث عنها واستطلاع حقيقة أمرها . ثم أخذ يستطيل فيمن اعتدوا عليه بالسب الشائن إذ كان يقول بصوت عال : ياذوى القلوب المشوبة بالسموم ! يا اولاد الافاعى والعقارب ! ياقطاع الطرقات ! وما زال يسترسل فى هـذا السباب حتى عثر على وردة ريحانة فؤاده جالسة بالقرب من نيخت الساحرة ، فزفر زفرة المكروب الذى زالت كربته وصرفت غمته ثم عاد فاهتم بالجرح، وسأل الشاعر عما إذا كان هو الذى صرع وحده كل الذين اعتدوا عليـه . فتبسم بنطاؤر ابتسامة الحياء والتواضع لا الاستكبار والعلوّ والزهو . وكان فى حالته هـذه تجاه الشاب الذى جرحت يده كالطفل الذى يجرح عصفوراً بعد صيده ثم يبكى حزناً عليه مع أنه السبب فى مصابه . أما نبسشت فقد حدق بنظره فى بنطاؤر، وقد أخذ منه القلق والذهول كل مأخذ وسأله : لمَ لم تجهر باسمك فى الحال ؟ أجاب بنطاؤر : ان روح الاله (منث) سرت فى عروقي حينما شهدت هذا الرجل الحقير وقد جذب اليـه وردة من شعرها المرسل على كتفيها ، فلم أعد قادراً على ضـبط نفسى . . . قال نبسشت : لقد أحسنت ، ولكن قل لى كيف نخرج سالمين مما دخلنا فيه متورطين ؟

طرق الآذان دوي طبل كانت تردده أركان الوادى ، فما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى وفد الضابط الذى أنفذه أمينى للقبض على المحنط ومعه شرذمة من الجند . فأمر المجتمعين حول بيت هذا الرجل أن ينصرفوا فأذعن بعضهم وعصى الآخرون فحمل عليهم وشتت شملهم

حتى لم يبق فى مكان الحادث أحد سواه وأعوانه وبنطاؤر ونبسشت .
أما الاميرة وأخوها ونيفرت فقد زايلوا المكان من بادىء الامر مع الممتثلين لأمر الضابط ، إلا أن راميرى كان كثير الاهتمام بوردة فلم يبرح المكان إلا بعد إذ استوثق من سلامتها وأيقن ان لا خوف على حياتها . واستولى الجزع الشديد على نيفرت فلم تستطع السير على قدميها فحملها رؤساء حملة المحفات على اكفهم متشابكة الاصابع وساروا بها أمام الاميرة لتشملها بسامى التفاتها . ولم يفتر راميرى لحظة واحدة عن التفكر فى وردة وما عسى أن يؤول اليه أمرها فى هذه الليلة فقال لاخته : لقد أصبح بيت المحنط أثراً بعد عين فأين يقى أولئك المساكين أنفسهم من طوارىء الجو واعراض الحياة فى الخلاء ؟ . .

أما الضابط وجنده فانهم بعد أن اجلوا الناس عن الوادى عادوا الى مكان الشيخ ينيم فوجدوا به الساحرة نيخت ووردة وبنطاؤر ونبسشت ، فشرح الشاعر للضابط ما عاينه من الحوادث ثم عرفه بنفسه فمد اليه الضابط يده مصافحاً وأمعن النظر فى ذاته معجباً وقال : ما أشد هذا الساعد وأمتن هذه العضلات ! . . لو كان حول رعمسيس أعوان مثلك لما طال بمحاربته امة الريتاس الامد . . ومن الأسف أن يكون الذين صرعتهم هذه الساعد من ابناء طيبة لا من الاسيويين . ويزيدنى أسفاً أن أكون مضطراً بحكم المهمة التى نيطت بى الى القبض عليك والذهاب بك الى الكاهن الاعظم أمينى . .

فأومأ بنطاؤر برأسه ايماءة الامتثال وقال : افعل ما بدا لك فلست

بمعارضك فى شيء . فأمر الضابط أعوانه بحمل جثة ينم الى بيت سيتى، ثم التفت الى بنطاؤر وبسبشت وقال لهما : أرى من الواجب القبض على هذه الفتاة . قال الشاعر : انها مريضة وليس لهـا شأن . قال الطبيب : والراحة لها لازمة والاضاع كل أمل فى نجاتها من الموت . . وعندى أن الصواب فى تركها حيث هي ، لا سيما وأن الاميرة بنت أنات كريمة ملكنا قد خصتها بمحبتها وحبتها برعايتها مذ أصابتها الجراح التى كادت تودى بحياتها . قالت نيخث : سأحملها الى بيتى للعناية بصحتها ، ولقد بعثت اليه بجدتها لانها كادت تختنق بدخان الحريق ، الا أنها قد أفاقت من غشيتها وعادت الى سابق حالتها . قال الطبيب : كل ما أسمح لهـا به أن تقيم فى بيتك بين عشية وضحاها أي ريثما اهتدى الى مكان يليق بهما . فتبسمت الساحرة وقالت ساخرة : انى أعرف كثيرين غيرك يودون أن لو تقيم هـذه الغادة فى بيوتهم وان لو يتولوا العناية بأمرها والمحافظة على حياتها .

كان الجند فى خلال ذلك أتموا وضع الجرحى على الاسرة المعدة لنقلهم فأمرهم الضابط بالمسير فساروا ومعهم بنطاؤر وجثة الشيخ بينم . أما بنت أنات ورامیرى ونيفرت فوصلوا فى غضون هـذه الحوادث الى شاطيء النيل بعد أن لقوا من الصعاب ما يقصر عن وصفه القلم ، وكانوا انفذوا أحد حملة المحفات ليبلغ الى النوتية الأمر بأعداد الزوارق واستعجالهم فى ذلك ، لأن نغمات الآلات الموسيقية وأصوات المغنين كانت تصل اليهم من بعيد ، كما كانت المصابيح الساطعة الانوار تحرك

فى الافق فيتخيلها النظارة جذوات متحركة من النار . وفى هذا الدليل على أنهم إذا لم يبادروا باجتياز النيل قبل عودة الموكب فى هـذا المظهر الجليل فقد تعذر عليهم عبوره ، إذ من العادات المتبعة فى ذلك الوقت انه ما دام زورق آمون يشق خياله صفحة النيل الصقيلة فليس لزورق آخر أن يجرى عليه ولو كان لأمير أو عظيم . ويجوز بمثل هذا الانتظار أن تنمحى آية الليل ويسفر النهار ، فلا يعودون الى مساكنهم بل يلبثون فى أماكنهم .

وكانت بنت أنات وشقيقها ينتظران فى الظلام ، بذاهب الصبر ، عودة الرسول الذى أنفذاه لاعداد الزورق ، والى جانبهما نيفرت وقد تلاشت قوتها وخارت عزيمتها . فألقت بنفسها على الاميرة فأحست هذه بارتعاد فرائصها واضطراب سائر أعضائها . وعاد الرسول فى الاثناء فأخبر الاميرة بعودة الزورق من الضفة الاخرى وانه سار منها بهدوء وتوازن حتى رسا تجاه المكان الذى كانت تقف فيه مع أخيها ونيفرت فأسرع راميرى اليه ونزل فيه وأمسك بالمجداف . وكان ضابط أحراس هيكل سيتى آنئذ فى طوافه يتعهد رجاله وأعوانه ، فدنا من الزورق وقال لراكبيه . ليكن فى علمكم أن هذا آخر زورق يرخص له بعبور النيل الى الضفة الاخرى قبل أن يتم زورق الاله اجتيازه اياه .

فما سمعت بنت أنات هذا الانذار حتى همت بالنزول فى الزورق وكانت تبذل قصارى همتها للمحافظة على نيفرت ووقايتها من الطوارىء . وكان يضيء مكان النزول من الشاطىء نور باهت منبعث من بضعة

مصابيح ، فما كادت الاميرة تصل الى حافة النهر وهى على ما وصفناه من العناية بنيفرت حتى شعرت بيد شديدة قد هوت على كتفها وصوت أجش يدوى فى أذنها ، عرفت على الفور بنبراته أن صاحبه انما هو بعاكر وكان يقول : مكانك أيها الحقير ! . . تراجع بزورقك الى الوراء ليحل زورقى محله ، وعندك من الوقت متسع لتعبر بمن معك بعد انقضاء الاحتفال .

فلم تنبس شفتا ضابط الحرس حينما سمع هذا الأمر بكلمة بل تركه يهتر بما يشاء علما منه بجفاء طبعه وخشونة خلقه ، ولم يعارضه بعد ذلك فى صفيره الشبيه بزئير الاسد أو هرير الكلاب ، ولم تكد تردده الآفاق حتى سمع اصطدام المقاذيف بالماء من زورق أخذ يتقدم متهاديا نحو الشاطىء . وقد رآه بعاكر فصاح برجاله : ادنوا الزورق منى . أما هؤلاء الناس فعليهم بالانتظار حتى يمر موكب الاله .

وكان زورق بعاكر أكبر من زورق الاميرة وأمتن ، ولصدمة خفيفة منه تكفى لتحطيمه . فلما رأى راميرى من بعاكر ما رآه اوعز لاخته أن تعجل بالنزول الى البر ، فأجابته الى طلبه مسرعة وبالغت فى التنكر والتخفى حتى لا يعرف رئيس الطلائع هويتها . الا أن هذا الاخير استوقفها ثانياً وصاح بها . أما أمرتكم أيها المتشردون بملازمة هذا المكان ؟ ثم أمر نوتيته بدفع الزورق الى وسط النهر . فخشيت بنت أنات سوء العاقبة لا سيما وان الخلاف بين أخيها وبعاكر اشتد واحتدم ، لأن قائد الطلائع أمعن فى مهاتراته وحماقاته حيث قال : كيف يجرأ

هؤلاء المتشردون العرايا على معاندتى ومخالفة ارادتي ؟.. لا بد لى من تأديبهم وتقويم المعوج من أخلاقهم .. عليك يا ديكر [١] بهذه المرأة وهذا الغلام ! .. احمل عليهما واطردهما قصياً عن هـذا المكان . قال هذا وأومأ الى الكلب فوثب عليهما نابحاً . فلما رأت نيفرت هذا الأمر صاحت صيحة المذعور فعرف الكلب صوتها فعدل عن توثبه ونباحه وتحكك بها مداهنا متملقاً . وكان بعاكر على وشك النزول فى زورقه فلما شهد الكلب يحوم حول نيفرت ويتمرغ عند قدميها أخذه الدهش واتجه نحوها وصاح بها مغضباً : سوف أعاقبك أيها الشاب المفتون لانك استعنت بالسم والسحر على اذلال هـذا الكلب لطاعتك . ثم رفع سوطه وأراد أن يهوى به على نيفرت فسقطت على الارض رعباً وهلعاً . ومما لا ريب فيه أنه لولا بنت أنات التى كانت آنئذ خلفه واستطاعت أن تجذب يده لمزق السوط خدها تمزيقا بدلا من الاثر الخفيف الذى تركه فيه وكان سبباً لذعرها ووقوعها مغشياً عليها . وما وقع نظر راميرى على هذا العدوان حتى برح الزورق وبيده المقذاف وابتدر المعتدي الاثيم بقوله : انك لجبان سافل ! !

أما بعاكر فلم ينبض له مذ سمع هذا القول نبض لاعتياده مكافحة الانداد فى ميادين الجلاد، بل نظر الى كلبه ديكر وصفر له صفيراً خاصاً يفيد معنى الامر بالهجوم على الامير وتمزيقه جلده بأسنانه . ففهم راميرى هذا المعنى ، وكان ثبت الجنان جريئاً كما كان صياداً حاذقاً

---

(١) اسم كلب بعاكر وقد سبق الكلام عليه فى الجزء الاول

حاضر الذهن طالما تفرغ مع رعمسيس أبيه للصيد فى الآجام العامرة بالوحوش الكاسرة ، فضرب الكلب بطرف المقذاف ضربة أصابته فى خيشومه فصرعته . ولم يكن لبعاكر صديق أوفى له عهداً من هذا الكلب إذ كان رفيقه الامين فى جولاته وأنيسه فى سكونه وحركاته والصديق الذى لا يمل فى وحدته واجتماعاته . فلما شهده طريح الثرى يتمرغ فى دمه وتتنازعه عوامل الموت والحياة غلب عليه الثهور واستمكن من نفسه الغضب فرفع السوط يريد أن يهوى به على الامير انتقاماً منه على فعلته .

أما راميرى فقد كانت تلك الحوادث المتتابعة بما تخللها من المصاعب والاخطار قد نبهت فى نفسه عزة الملك وكرامة الامارة فكبر عليه أن يجرأ مثل بعاكر على ما ارتكب من اعتداء شائن وقذع مهين فى حق اخته ونيفرت . وكان يحس كرجل أنه المسؤول عنهما وأن الواجب عليه منع الاذى من الوصول اليهما . ودبت فيه نخوة الرجال وشجاعة الابطال فضرب بعاكر بالمقذاف ضربة نثرت من يده السوط وجعلته يئن من شدة الألم ويعول كالثكلى ، غير أنه جرد من نطاقه خنجراً ماضياً وحاول أن يضرب به الامير فسرعان ما توسطت بنت أنات بينهما وجهرت باسمها ولقبها ، فما طرق صوتها سمعه حتى تراجع الى الوراء خشوعاً وخجلا . ولم تنبس شفتاه بكلمة ، بل وقف منها موقف العبد الخاضع يتلقى من مولاه الامر . ولقد أمرت النوتية بأن يدنوا الزورق من الشاطيء ورآها تجذب اليها نيفرت التى روّعتها هذه

الحوادث وتأمر أولئك النوتية بالابتعاد عن الشاطىء فتم كل ذلك طبق إرادتها ، وأخذ الزورق يشق وجه النيل بحيزومه فما هي الا دقائق معدودة حتى وصل الى الضفة الاخرى فغادره ركابه جميعاً الى القصر الملكى تتنازعهم عوامل الوصب والقلق والارتياع .

وكانت ستخم مضطجعة فى محفتها بأعلا الجسر ، فوصلت الى سمعها ضوضاء المعركة التى نشبت بين الامير وابنها . وقد تاقت نفسها الى استطلاع الخبر ، فلما جاء هذا الاخير فى زورقه سألته عنه فلزم الصمت وكفت هي عن السؤال ، وظل الاثنان كذلك الى أن تم عبور الموكب للنهر ، وعبره بعض المتخلفين بأمره . وكان يلقى فى خلال ذلك نظرات الاسف والحسرة على كلبه العزيز الذى قتله راميرى ثم الى يده التى أصابها المقذاف بضربة مسرفة فجرحت جرحاً فادحاً فيمتلىء صدره حقداً ويتأجج بضراوة حب الانتقام ويقول : هذه اليزرة الشريرة التى غرسها رعمسيس . . هذا النسل الخسيس ! سوف يعلمون من أنا . . ان مينا وفرعون بالمعسكر متجاوران فهما لا محالة هالكان .

الفصل الرابع

ليمة فى هيكل والكهان بين المشرب والمأكل

بعد أن ظل بعاكر واقفاً طويلا على ضفة النهر عاد الى طيبة مصطحبا والدته ورمة كلبه ليرسلها الى كينوبوليس [1] وقصد بعدئذ الى طيبة الاموات لحضور مأدبة الليل . وإذ كان يحس فى يده آلاما شديدة من جراء الضربة فقد ضمدتها له والدته كيلا يعوقه عائق عن حضور تلك المأدبة التى دعي اليها لأول مرة بعد وفاة أبيه . ثم كان لا مفر له من الذهاب اليها ، وقد أبلغه أمينى ان الوالى راغب جدّ الرغبة فى مقابلته ومحادثته .

كان بعاكر من أسرة اشتهرت بالاصل العريق والمجتد الكريم والنسب الراسخ بل عرفت بين العموم بانها بذت أسرة فرعون شرفا ومجداً ، غير أنه اذا رمت به المصادفة فى جمع من علية القوم ووجهائهم ظهر عليه فى الحال من الامارات ما يوقن المتفرس فيه أن فى أمره سراً خفيا لا قدرة لأحد على استجلائه . وكان حائزاً على لقب «كاتب» وان لم يكن فى الواقع من الكهان الكاتبين ، كما كان جنديا وان لم

(١) هى سملوط الآن وكانت مقر عبادة الاله (انوبيس) وكان السكك من بين آلهتها المحترمين. روى بلوتارك معركة حصلت بين اهالي (كينوبوليس) و (أوكسرنكوس) التى كان اهلها يعبدون السمك المسمى بهذا الاسم . وسبب هذه المعركة ان اهالى المدينة الاولى أكلوا سمكة من السمك الذى يعبده جيرانهم فانتقم منهم هؤلاء بان ادبوا مادبة تناولوا فيها ما أمكنهم الحصول عليهم من الكلاب

يدرج اسمه فى ديوان الابطال المحترمين . فهو إذن لم تتوافر فيه فضيلة ولم تتحل نفسه بمحمدة من محامد الخصال . وكل ما أثر عنه أنه كان حريصا على أداء واجباته فى المواعيد الموقوتة لها ، وأنه كان من الهمة والنشاط بما لا يجاريه فيه أحد متى كان الغرض الذى يرمى بهما اليه تحقيق أمنية أو قضاء وطر أو نيل مطمع . وبالجملة فقد كانت أطواره وطباعه تناقض ما عرف عن أفراد الطبقة الرفيعة التى حشرته الظروف فى زمرتهم ، وكان والده الموهار فى مقدمتهم فضلا وشجاعة وكرما .

ولم يكن بعاكر بخيلا بل كان بما أسنى له من الرزق وأرغد عليه من العيش رخيّ اللبب كثير البذل . ومما يؤثر عنه أنه أنفق أموالا طائلة مما أخلفه له والده فى سبيل الخير والبر ، غير أن نقائصه الشائنة وعيوبه الفاضحة أفقدته الصواب فلم يعد يستطيع وضع الاشياء فى مواضعها أو يقدرها قدرها . وكان إذا أجزل لاحد العطاء تقاضى منه فى مقابل انعامه عليه إتاوة الثناء على شمائله وضريبة الاطراء فى كرمه وسخائه ، وربما تعسف فى الطلب فركب المركب الخشن وأتى من قبيح الفعل ما لعل سببه أنه كان يرى حقا لنفسه الظهور بالصرامة والعزم على مرأى من الناس جميعا حتى من أسداهم الجميل ووصلهم بالمنح . لذا كان لا يجنى من غراس فعاله الحميدة غير العداء له والحقد عليه . وكان أخص ما يعرف به من الخصال الكبرياء والصلف ، الا أن غباوته كانت تبدو من خلال هذه النقيصة واضحة كالشمس بين السحب الكثيفة . وما يعرف من صفاته المحسوسة خشونة صوته وصلصلته فى

رداءة تجزئة عند الكلام واتساع وجه فى انبعاج يشوهه وقصر جسم فى اختلال تناسب وانعدام تجانس وضيق عقل لا يدرك معه لطف الاشارة ولا حسن الانباه . ولقد كان يفضل الاقامة فى المعسكر عليها فى المدينة لانه في المعسكر غير مقيد بما يصده عن جماحه فى غوايته وتخبطه فى اباطيله واسترساله فى شهواته . أما المدينة فانه فيها مضطر الى مخالطة أمثاله فلا ينعم بينهم باله بل يشعر أنه دخيل فيهم وأنه أدنى منهم مرتبة . تلك هي علة إيثاره العزلة عن الناس وتجنبه مخالطتهم ، فاذا أجاب دعوة أمينى فما هو إلا ليظهر فى مظهر العاتى المتجبر المتغشمر .

وجرت العادة بأن لا يمدّ السماط الا فى منتصف الليل ليشهد المدعوون ما يعرض على البحيرة المقدسة من المرأ ، العجيبة وليسمعوا الاناشيد والمدائح التى صاغ الشعراء قلائد نظامها وافترعوا أبكار معانيها تمجيداً لأيزيس وأوزريس . ومع هذا فانه ما ولج مكان الاحتفال الذى بلغ بزينته منتهى الابهة والجلال حتى رأى المدعوين مجتمعين وتجلى له آنى مستوياً على العرش الى يمين أمينى وأمامهما المائدة الكبرى ، وقد صفت حولها كراسي خالية من الجالسين ، وكانت مخصصة لبعض كهنة هيكل آمون الذين دعوا لشهود الاحتفال ثم امتنعوا عن إجابة الدعوة معتذرين . وما كان لتخلفهم عن الحضور من سبب صحيح سوى اخلاصهم الولاء لرعمسيس وارتيابهم فى صدق نيات أمينى على وجه ألزمهم اعتبار حكاية المعجزة حيلة مبتدعة لدس دسيسة وتدبير فتنة

انتقاماً منه فيما أظهره من الايثار لكهان طيبة الاموات(١) .

لما دخل بعاكر هذا المكان واتجه نحو المائدة كان يجلس اليها القائد العام للجنود الظافرة العائدة من الحبشة وفريق من عظماء الضباط ، فرأى بجواره مكاناً خالياً فسارع اليه وما تأهب للجلوس فيه حتى رأى هذا القائد يوعز الى جالس على مقربة منه أن يسبقه اليه ففطن بعاكر لهذا الايعاز وفهم منه أن القوم لا يتقبلون مثوله بينهم فولى عنهم مدبراً وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ويمد بصره أمام وخلف للبحث عن مكان يليق به بينما كان ذلك القائد يتمتم لسانه بالكلمات الآتية : «ان نبيذى يحمض إذا نظر اليه هذا الفظ النليظ » أي ان مجاورته إياه تفضى الى غضبه وتذمره منه .

انصرفت الانظار نحو بعاكر وحومت عليه دون أن يدعوه أحد الى الجلوس ، وأحس أنه دخيل فاحتدمت نار الضغينة فى صدره وبدت أمارات الغيظ على وجهه وعنّ له أن يفضح من قاموا بترتيب الاحتفال ، فاتجه الى الباب من فوره ، غير أن الوالى شهده وهو عائد ففطن فى الوقت الى حقيقة قصده وسارّ أمينى فى أمره فدعاه هذا

---

(١) تبرع جميع ملوك الدولة الحديثة بالاموال الطائلة لهيكل الكرنك واقدم اسم نقش على جدرانه هو اسم اوزرتسن الاول من الاسرة الثانية عشرة . وقد عطلت أعمال العمارة فيه فى عهد الهيكسوس اى عرب الرعاة ولكن ملوك الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة اهتموا بتوسيع نطاقه اهتماما عظيما فبلغ من السعة والفخامة وحسن التنسيق مالم يبلغه هيكل اخر. فان القاعة الكبرى منه التى بدىء بانشائها فى عهد رعمسيس الاول وتمت في عهد سيتى وزينت بالنقوش والرسوم فى ايام رعمسيس الثانى كانت تحتوى ١٣٤ عمودا وكان يبلغ طولها ١٠٢ متر وعرضها ٥١ مترا . وقد ضم رعمسيس الثانى هيكل الاقصر الى هيكل الكرنك وأتم نظامهما بمبان بلغت الغاية القصوى من الاتقان والفخامة . وكانت الهدايا والقرابين والتبرعات تنصب فى خزائن ذلك الهيكل الجليل كالسيل الغزير وكان كل فرعون يلى الحكم يجاري اسلافه في العناية به

اليه ورجا منه أن يجلس الى جانبه موكداً له ان المكان الذى يدعوه الى الجلوس فيه كان معداً برسمه ومحجوزاً له ، والحقيقة أنه كان مما خلا على أثر رفض أنبياء هيكل آمون وكبار كهنته اجابة الدعوة الى الوليمة . فما استقرت هذه الكلمات في أذن بعاكر حتى انجلى كربه واهتزت نفسه سروراً ، فأحنى رأسه شكراً وإجلالا وجلس فى الكرسي مطرقا برأسه خشية أن يرى حوله من يرمقه بعين الاحتقار ويستكثر ما لقيه من مظاهر الحفاوة والاكبار .

غير أن الهواجس لم تلبث ، وقد استقر فى مكانه ، أن خامرته فأنشأ يقول : جلس والدى مراراً فى مثل هـذا المكان وكذا جدى ومن قبله أجدادى الأولون فلم لا أجلس فيه مثلهم وأنا غصن دوحتهم ووارث مجدهم ؟ . . ألم يكن لأسرتنا الفضل على رعمسيس بأخلاصها فى خدمته ؟ وبينما كان تائها فى بيداء هذه الهواجس إذا بخادم أقبل عليه ووضع غصنا منضداً بالازهار على كتفه وتلاه آخر سكب فى قدحه النبيذ ووضع أمامه من ألوان الطعام ما يسيل له اللعاب ، فرفع عندئذ رأسه فكان أول من ابصر به النبي الثانى جاجابو وهو يرشقه من نظرات السخر والاستخفاف بسهام حادة ، فعاد الى الاطراق حياء واستخذاء وأحس بنفسه الصغار والهوان . ولقد حانت من الوالى التفاتة اليه وهو فى هذه الحيرة فهمّ بتخليصه من هذه القيود إذ أخذ يطيب نفسه برقيق اللفظ وعذب المؤانسة وقال للحاضرين : ان الموهار سيرحل غداً الى البلاد السورية لاداء مهمته الخطيرة . وأردف هذا

القول بالاطراء فى مدحه والثناء عليه ، فلم يجاوب بعاكر بكلمة على هذه التحية الجميلة ثقة منه بأن الوالى كان يتكلف الظهور بهذه الرعاية ليبرر للحاضرين اجلاسه اياه الى يمينه أي فى أشرف مقام وأسنى مكان ، ولكن صمت الموهار لم يمنع الوالى حينما حان أوان تعاطى الشراب من تمنى الفوز لبعاكر فى كل ما نيط به من جلائل الاعمال .

وأردف الكاهن الاعظم هذا التمنى بالثناء على بعاكر بالنيابة عن كهنة هيكل سيتى ، لأنه كان فى اليوم السابق تبرع للهيكل بقطعة أرض جيدة التربة (١) وما ختم أمينى ثناءه حتى ارتفعت من السامعين أصوات الاستحسان والتصديق وثلج صدر بعاكر ورضيت نفسه ونعم باله ، الا أن علامات الألم من الجرح الذى بيده كانت ظاهرة على وجهه وفهم الوالى ذلك فسأله : أبيدك جرح ؟ أجاب : نعم بها جرح ولكن لا خوف منه ، وسببه أني كنت أرافق والدتى الى الزورق فسقط على يدي . . فقاطعه أحد كبار ضباط حامية طيبة مازحاً ، وكان من رفاق بعاكر فى المدرسة : سقط على يده مقذاف أم عصا ؟ فسأل الوالى : أو هذا من الممكنات ؟ قال الضابط . نعم وقد وصلت الينا تفاصيل ما وقع فى تلك الليلة ومنها يفهم أن الذى جرحه شاب فى مقتبل العمر وانه قتل كلبه قبل أن يجرحه فى يده .

فسأل متولى أمور الصيد بصوت الآسف : أو قتل كلبك

---

(١) توجد وثائق كثيرة تتضمن بيان تبرعات الملوك والكبراء بالاراضى الزراعية للهياكل . وكان الاغنياء من الاهلين يقتدون بالملوك اذ كانوا يتبرعون بمبالغ جسيمة لترميم المعابد وتوسيع نطاق الهياكل كما فعل الغنى (أمن أم أبت) فى هيكل مدينة أبو

ديكر ! . . ان والدك كان كثيراً ما يحضر به للصيد والقنص وكنت أصيد معه جنبا لجنب ، فصادق بعاكر باشارة على هذا القول . وكان يود أن لو ينتهي الحديث فى الموضوع لولا أن قائد الاحراس الذى له من سمو المرتبة ما يبيح له الكلام قال ساخراً منه غير مكترث بما بدا على وجهه من علامات الحياء والاستخذاء : نعم وما صرع الفتى الكلب حتى قهرك وجردك من سلاحك . سأل آنى : وهل أفضت المعركة الى هرج بين الناس ؟ أجاب قائد الاحراس : كلا فان الاحتفال انقضى على ما يرام من السكينة والسلام . ولو لم تعرض حادثة المحنط بينم الذى بما اعتراه من الخبل والجنون أخل بنظام الموكب فترة من الزمن لساغ لنا القول بأن هذا النظام بلغ من الاتقان أقصى حدود الامكان . وقد أصبح لزاماً علينا الآن أن نشكر للمحتفلين حرصهم على النظام أجمعين . ولكن قل لى أيا بعاكر ماذا استلان فؤادك واستل من قرارة نفسك كمين الحقد حتى تنزلت عن الانتقام من ذاك الشاب الذى أصابك بيدك وصفحت عنه هذا الصفح الجميل ؟ قال جاجابو : أصحيح ما تزعمه من صفحه عمن اعتدى عليه وما عرفنا عنه الا الغلظة فى معاملة الناس والغدر فى التشفى منهم لأقل حادث ؟

تحول أمينى نحو جاجابو ورشقه بنظرة فهم منها مراده ، وانه كان لا ينبغى له تنقيل الحديث الى هذا الموضوع فسرعان ما احمض من هذا التهكم على بعاكر الى الظهور بمظهر المهتم بأمره المشفق عليه إذ سأله عن أسباب المعركة وعن الفتى الغر الذى تعدى عليه بالضرب

والاهانة . أجاب : ان طغمة من الاشرار الاغرار راموا أن يحولوا دون رسوّ الزورق الذى أعددته لكي تعبر والدتى به النهر على الشاطىء يبتغون بذلك المرور قبلنا فأفهمتهم ان تقدمنا عليهم حق ثابت لنا ، وبينا كنت ماضياً فى حديثى اذا بفتى شرير توثب عليّ فصرع كلبي ديكر ثم . . ولكن قسما برأس والدى الاوزريسى الذى طالما أكرم هذا الحيوان الامين الشريف أنه لو لم تقف بينى وذلك الفتى المغرور امرأة قالت انها ابنة رعمسيس ، ولولا أنها بهذا الاعتراض منعتنى من الانتقام لنفسى لكانت التماسيح الآن تنتاب فى قاع النيل جثة ذلك الغرّ الذى يخيل لى انه راميرى المنبوذ منذ أمس من مدارسكم نبذ النواة .

فلما سمع متولى الصيد والقنص هذا القول قال : قف مكانك ياحضرة الموهار فلست أنت بالثمل حتى تخبط فى حديثك خبط عشواء . كيف تجرأ على ثلب ابناء رعمسيس والنيل من كرامتهم بمثل هذا التلبيس ؟ وكان بعض الضباط الحاضرين من الموالين للاسرة المالكة قد ساءهم سماع هذا الافتراء ، فمال أمينى على بعاكر وسارّه أن يلزم الصمت ثم قال بصوت جهير مخاطباً متولى أمور الصيد : بدا من خلطك فى كلامك وعدم تدبرك مصائره ما أوقع فى روعى انك مصاب بحمى . تعال يا جاجابو لنفحص جرح بعاكر ولنقرر ما يحتاجه من علاج . . أرى فى الاعتداء من أمير كراميرى ما يحط من كرامة المعتدى عليه ويزرى بشرفه . فأخذ جاجابو يد بعاكر وبعد أن نزع عنها ما حولها من الضماد صاح : رباه ! . . لقد كانت الضربة شديدة تكسرت بسببها

عظام ثلاثة أصابع . . انظر يا بعاكر زمردة خاتمك . .

ما ألقى بعاكر نظره على الجرح حتى ساد على عقله إيمانه بالاوهام الباطلة ولم يعد يشعر بالألم . وما كاد يوقن أن فص الخاتم قد شدخ ، وهو الفص الذى كان رعمسيس أهداه الى والده لا الذى أهداه اليه تحوتمس الثالث حتى زفر زفرة الاغتباط والرضاء وأحس بالهموم وقد انجلى صداها عن صدره . وزاد اغتباطه أن أجزاء الخاتم تطايرت حتى لم يبق به أثر من كلمة رعمسيس المنقوشة فيه . واضطربت شفتاه بعد ذلك وسمع هاتفاً يقول له : لقد رسمت الآلهة لك الخطة التى يجب عليك اتباعها ، لأنه وقد انمحى اسم الملك من الفص وذهب هباء فلا بد أن يخسر صولجان الملك . قال جاجابو : يحزننى بل ويكمدنى أن يضيع الفص دون اليد التى كانت تتحلى به . . ولكن حمداً للآلهة أن جعلت الاصابة باليد اليسرى . . والذى أراه انسب بحالك الكف عن الشراب والبحث عن نبسشت فأنه هو الذى يستطيع دون سواه معالجتك واعادة العظام المرضوضة الى مواضعها طبقاً لقواعد العلم ، فهمّ بعاكر بالانصراف واعداً الكاهن الاعظم والوالى بالعودة نهاراً لمقابلتهما . وما كاد الباب يغلق من خلفه حتى قال أمين صندوق الهيكل وكان يشيعه بنظره : لقد لقى الموهار اليوم من شؤم طالعه ما ينبغى أن يكون له العظة الزاجرة . وهو ما زال مصرّا على ارادة الجهل بها حتى الآن وهو أن المرء فى اختلاطه بالناس واحتكاكه بهم ينبغى أن يعاملهم بغير مايعامل به الجنود فى المعسكر . وان تأذنوا لى فأنى أقص عليكم حادثة وقعت له

ليس فيها ما يرتاح له الفؤاد أو يثلج منه الصدر . فصاح المدعوون جميعاً : نعم ! نعم ! هات ما عندك هات . قال أمين الصندوق : أتعرفون الشيخ سيني ؟ . . هذا الرجل المعروف بثروته الواسعة تبرع للفقراء بكل ما تملكه يمينه ، لأن أولاده السبعة لبوا نداء الآلهة وهم فى مقتبل العمر إما فى ميدان القتال وإما حتف أنوفهم بمختلف الامراض . ولم يحتفظ لنفسه من تلك الثروة الطائلة بغير حديقة وبيت صغير . يعتقد هذا الشيخ ان الآلهة دعوا ابناءه الى السماء فلبوا دعوتهم فرحين مستبشرين وانه لم يبق عليه بعد مفارقته إياهم إلا اسعاف المنكوبين ومواساة البائسين ومراعاة أوامر الدين القاضية باطعام الجائعين وارواء العاطشين وكسو العرايا والمقرورين . ولقد استنزف فى هذا السبيل كل ثروته فلم يبق عنده منها ما يدفع عادية الجوع والعطش وطوارىء الجو عن نفسه ، وهو لذلك ما برح يقطع أقطار المدينة ويجوب أنحاءها جائعاً عاطشاً عارياً يستندى أكف السابلة ، فان تصدقوا عليه بشيء بذله للفقراء كيلا تنقطع عنهم سلسلة احسانه . وقد عرف الناس منه هذه الشيم العالية فتراهم يتسابقون الى الصدقة عليه ، وشهدته اليوم حاملا زقه يسأل المارة احساناً ناظرا اليهم بعين الابتهال وخص بالسؤال من بينهم بعاكر ، فسرعان ما نأى عنه بجانبه وصاح فيه قائلا : اليك عنى . . واخساً لا تتعلق بأذيالى . ولكن الشيخ لم يعبأ بهذه الاهانة بل اقتفى أثره طمعاً فى احسانه وألحف فى السؤال ، فدار بعاكر على كعبه وضربه بسوطه ضرباً مبرحاً وقال : ما هي الصدقة التى تلح فى طلبها . فتلقى

الشيخ الضرب بالاحتمال والتجلد ومدّ يده بالزق الى بعاكر وقال له وهو يذرف الدمع غزيراً من عينيه : إذا كان ضربك اياى نصيبى من صدقتك فأين نصيب الفقراء . .

وكنت ساعتئذ مارا بجوار بعاكر فرأيته يتسلل كالحرباء حتى دخل كهفا معدا لجثث الاموات . فاغتنمت والدته البائسة فرصة اختفائه فافرغت مامعها من النقود فى زق سينى . فما لمحها الناس مقبلة على الصدقة حتى سارعوا الى الاقتداء بها فى التصدق عليه ، إذ بسطوا له الأيدى بالاحسان اليه فاجتمع عنده من الصدقات والمبرات مالم يخطر له ببال .

وكان الجالسون الى المائدة مقبلين على سماع هذا الحديث بطيب نفس لان الانسان مفطور على حب سماع الذم فيمن شهروا بالتجبر والصلف والطموح الى ما لا يناسب حالهم من المعالى وشرائف الرتب . وكان امينى وآني فى أثناء ذلك يتناجيان اذ كان الأول يقول للثانى : لقد شهدت بنت أنات الاحتفال من بدئه الى نهايته . قال أميني : لعلها كانت تود أن تتحين الفرصة للقاء الكاهن الذى شملته برعايتك . قال امينى : لا بأس من سؤال بنطاؤر عن هذه الامور . قال آنى : ارى فى الظروف الحاضرة ان استدعاء الشهود لسماع أقوالهم تدبير سابق لأوانه . قال امينى : وهل أنت بحاجة الى شهود وقد عهدت فى شاعرنا الصراحة والصدق ولو أحرقه الصدق بنار الوعيد . قال آنى باسما : لنبرح هذا المكان فأنى احب ان اراه فى متنازع بين الصدق والانكار . . وهل نسيت ياصديقى ان للمرأة فى هذه الحادثة ضلعاً ؟ قال : صدقت فان

الحوادث بلا نساء كالطعام بلا ملح .

ثم دعا اليه جاجابو وعهد اليه برياسة المأدبة بالنيابة عنه ووصاه بمجاملة المدعوين وتحريضهم على الشراب ومنعهم عن الخوض فى أحاديث الملك أو الحكومة أو الحرب ثم قال له : ولا يذهب عليك أننا اليوم فى قوم من الاجانب وان النبيذ فاضح للاسرار هاتك للستار، وأن أس التدبير أن يتلفت الانسان يمنة ويسرة فى كل خطوة يخطوها ليتقي شرور من يترسمون اثره لتسمع ما يقول وتربص السوء به ، فلا تنس هذا ولا يبرحن عن بالك !

فضرب آنى بكفه كتف الكاهن أمينى كما يمزح الصاحب مع صاحبه وقال : أما أن المدعوين سيستنزفون فى هذه الليلة ما ادخرته من النبيذ العتيق فهذا ما لا خلاف فيه . ولقد اتصل بى أنك لا تهتم بأمر الشراب وأنك لا تفرق بين الكأس ممتلئة بالشراب والقدح فارغا منه . ولكنى انصح اليك اذا طاب لك الشراب ان تطلب من تابع ذلك الواقف هناك ليملأ قدحك بنبيذ بيلوس (١) فانه خير الانبذة طعما ولونا على الاطلاق .

وكان مما جرت به عادة أميني ان يبرح مائدة الطعام عند ما يهم القوم بالشراب . فلما ترك مع آنى بهو الاحتفال علت ضوضاء بين المدعوين وجاء الخدم والحاشية باغصان الازهار يطوقون بها اعناقهم وتبعهم غيرهم يحملون أباريق الشراب ليملأوا بها الاقداح الفارغة وسمعت

(١) بلدة فى فينيقية كانت شهيرة فى ذلك العهد بكرومها

فى أثناء ذلك ألحان موسيقية تهز النفوس لحسن صنعتها وصحة تجزئتها ، فما هى الا فترة من الزمن حتى وصلت الى بهو الاحتفال جوقة من الموسيقار يصدحون بالانغام المطربة وفى طليعتهم رئيسهم موجها وجهه اليهم ضارباً باطراف أصابعه اليمنى على كفه الايسر لوزن الانغام وضبط الايقاع وأدائه الاداء الصالح فى تطابق تام وحسن انسجام ، واخذوا يطوفون حول المدعوين ويواصلون العزف حتى دب الحماس فى نفوسهم فاخذوا ينقرون على اقداحهم البلورية مراعين فى الضرب والتلحين موافقة الموسيقيين .

تلألأت وجوه الكهنة عندئذ وأبرقت أسرتهم ومضى الضباط فى المطايبة والتملح بعضهم مع بعض بينا كان جاجابو يشير الى شاب من خدمة الهيكل فاقبل عليه مكلل الهامة باكليل من الازهار وبيده مومياء صغيرة مذهبة طفق يطوف بها على المدعوين قائلا لكل مدعو « كل مريئاً واشرب هنيئاً واطرح الهموم ظهريا فعما قريب تصير مثل هذا » (١) ثم دعا النبي جاجابو بتابع الوالى الذى كان يحمل ابريق نبيذ بيلوس فشرب منه كأساً دهاقا بعد كأس حتى انتشى واتقدت فى قلبه نار الغيرة على آتى فأخذ يطريه ويتبسط فى تعداد مناقبه . وكان بين الحضور كاهن معروفاً بالوقار وحسن السمت فلما لعبت الخمر المعتقة بعقله خرج عن أفقه وانطلق لسانه من عقاله فقال: ما أطيب هذا النبيذ وما أجود طعمه وما أشبهه بالصابون . قال جاجابو : هذا تشبيه غريب فى بابه فاخبرنا

(١) اشار هيرودتس الى هذه العادة فى الجزء الثانى من تاريخه

عن أسبابه . قال الكاهن : ان النبيذ يطهر القلب من أدران الهموم والاكدار فهو من هذه الجهة كالصابون الذى يطهر الجسم من الاقذار . قال جاجابو : لله درك أيها الكاهن ولا فض فوك . ثم التفت الى بقية الكهنة وقال : ليأت كل منكم بمثل سائر وقول معروف فى مدح هذا الشراب والتنويه بحسن أثره ، ثم التفت الى النبي الاول لهيكل امينوفيس وقال : هات ما عندك هات فانت أول من يشنف سماعنا بتلك الآيات البينات . قال النبي : الحزن سم ترياقه النبيذ . ثم تلاه المستشار الخاص فى معية الملك فقال : لكل شيء سر وسر النبيذ الفرح وانبرى امين الاختام بعده فقال : النبيذ يطرد الهم من عتبة البيت ويوصد دونه الباب . واقتفى اثره حاكم هرمونتيس وكان من المعمرين فقال : النبيذ ينعش أفئدة الشيوخ ولا يفيد الشباب .

هنا صاح الحضور : هذا قول مبهم يحتاج الى بيان . فضحك الشيخ حتى بانت نواجذه وقال : أي بيان تبغون والقول من البداهة بمكان ؟ ألا تدرون أن النبيذ يبعث الهمة والنشاط فى نفس الشيخ ويكسب الشاب أخلاق الصبية ؟ قال جاجابو ملتفتاً للمدعوين الشبان : لا تنسوا هذا البيان معشر الشبان . ثم قال لرئيس المنجمين : وأنت هات ما عندك من الامثال . قال : النبيذ سم ناقع وشراب يستل من الرأس العقل النافع . قال جاجابو ضاحكا : اذا كان الامر كما تقول أيها الصديق فليس لمثلك أن يخشى عاقبة الادمان فدونك والشراب ! . ثم التفت الى ضابط الصيد والقنص وسأله : وأنت هات ما عندك من الامثال

قال : ان الكأس تشبه حافتها شفة الحسناء فمن احتساها كان كمن ارتشف الرضاب من ثغر الاحباب . ثم التفت الى قائد وسأل : وأنت ياحضرة القائد ؟ أجاب : أود أن يجرى فى النيل بدل مائه الدافق مثل هذا النبيذ وأتمنى أن يضخم جسمي حتى يصبح كأحد تماثيل أمينوفيس وأن تكون يدى كاس يبلغ ارتفاعها مسلة حاتاسو (١) لأجرع بها ذلك الشراب وأسكر حتى لا يهمنى أحضر عقلى أم غاب . واذ قد جاد كل منا بما في وطابه من الاقوال فعليك أن تتحفنا أيها النبي المحترم بما فى خزانة ذاكرتك من الحكم والامثال .

رفع جاجابو رأسه رويداً رويداً وأدنى الكأس منه وأخذ يحدق فيها بنظره مستثبتا كما يفعل العاشق المتوله اذا رمق معشوقه الكثير الصد ، وبعد أن شرب منها متمهلا أرسل الى السماء نظرة من نظراته الحادة كأنه يستنزل وحيها وقال : ان منزلتى لا تخولنى النهوض بمفروض الحمد والشكر للآلهة تلقاء ما غمرونا به من جزيل النعم . قال الوالى آنى وكان داخلا من الباب دون أن يشعر به أحد : أصبت أيها الكاهن ولو كان لنبيذى لسان لما عجز عن أداء حق الشكر لك تلقاء تنويهك بذكره على هذا النسق البديع . فما بلغ صوته الى مسامع الحاضرين حتى هموا واقفين وقالوا : السلام على الوالى . فسلم عليهم واستأذنهم فى الانصراف ، ثم قال : أدعو الى تناول الطعام غدا كل من طاب له

---

(١) هي المسلة التى ما زالت قائمة في هيكل السكرنك ويبلغ علوها ٢٣ مترا . ويبلغ ارتفاع المسلة التى نقلت من الاقصر الي باريس واقيمت بها فى ميدان الكونكورد ٣٢ مترا

تعاطي هذا النبيذ حتى اذا سره شرابه فى الغد كما سره اليوم فتحت له باب دارى فى كل مساء ليتعاطى ما شاء من الشراب . وليكن خير وافد وأكرم ضيف وأجدر بالاكرام والترحاب .

ما كاد يتم آنى هذه الكلمات حتى دوت أركان المكان بالتصفيق وصيحات السرور وتضاعف دوي الهتاف له حينما دنا من الباب وشيعته الافئدة والالباب . ولبث المدعوون فى تعاطى شراب وهرج واضطراب ولم يزايلوا مكانهم الا بعد أن تنفس الصباح وكلل هامات الجبال بتاج لجيني من ضيائه المتألق . وكانت العادة فى مثل هذه الظروف أن السواد الاعظم من المدعوين يقيمهم العبيد من الجانبين أو يحملونهم من الذراعين والقدمين ليضعوهم فى المحفات ثم يسيرون بهم الى دورهم شتى وزرافات ، ولكن الكاهن الاعظم أمر بأعداد الأسرة لهم داخل الهيكل لهبوب العواصف المريعة وهياج عناصر الطبيعة .

وبينا كان المدعوون مقبلين على الشراب لا يكفون عن الضحك والاسترسال فى التطايب والمماحة بلطيف النكات . كان الشاعر بنطاؤر فى غيابة السجن جاثياً على ركبتيه باسطاً الى السماء كفيه لا يفتر عن الدعاء والصلاة ، وقد تجرد لهما حتى لم يشعر بالرسول الذى أنفذه الكاهن الاعظم يستدعيه اليه ليستجوبه فى حضرة الوالى عن حوادث اليوم الماضي . ذلك لأن بنطاؤر كان يجهل حقيقة الحب ومقدار سلطانه على القلب فاصبح من نفسه فى حرب عوان إذ كان تارة يتغلب عليه بقوة الاقناع وطورا يذل له بما فطر عليه من الميل وسرعة الاندفاع . وكانت

عادته فى كل مساء قبل الاستسلام الى الراحة من العناء أن يعرض على ضميره صحيفة سلوكه وأعماله فى اليوم الماضى ويحاسب نفسه حساباً عسيرا ويوازن بين حسناته وسيئاته ، فان خفت موازينه ولو بمثقال ذرة انحى عليها باللائمة . ولكنه فى تلك الليلة لم ينظر أمامه غير الظلام الحالك ولم يوجه الى ضميره كلمة لوم قارص ولم يتمثل لخاطره غير صورة خيالية واحدة هي صورة بنت أنات التى كانت تتجلى له فى أجمل المظاهر فتسلبه المشاعر وتحيطه بسياج متين لا منفذ فيه للخلاص .

وزاده اضطراباً وحيرة فى تلك الليلة انه لم يعتد على أحد بالضرب من قبل ولم يسفك قط دما فأخذ يقرّع نفسه على سوء فعلها ودبت الوساوس فى ضميره . ولكنه كان كلما استمكنت هذه الخيالات من نفسه أحس بالجنادرة الموكلين بحفظ الأمن يهوون بأيديهم الجافية على ناصية وردة ولمح كأن بنت أنات تحدّق فيه النظر تستحثه على انقاذ الفتاة وتستنهضه الى تخليصها من أيدي الظالمين فلا يسعه الا تلبية ندائها بالمبادرة لتنفيذ طلبها . وكان يخيل له فى أثناء ذلك أنه يراها تتابع حركاته بنظرها فتبث فيه الاقدام على القيام بالمهمة الخطيرة التى عهدتها اليه . وما كان له ان يتخلى عن تنفيذ أوامرها لأنه كان فضلا عن انصياعه لميوله القلبية يشعر بأن ما عمله يطابق الواجب تمام الانطباق وأنه لا لوم عليه ولا تثريب على الاطلاق .

على أنه ما نشب أن تبين مما مرّ به من الحوادث أن مستقبله فى الحياة قد أخذ سبيلا أخرى أجدر بالاعتبار وأحرى . . ألم يخالف

التقاليد التى رسمتها عليه النصوص الكهنوتية . . ألم يرسخ فى عقيدته أن التقيد بالقيود السابقة وحصر النفس فى دائرتها الضيقة أصبح مستحيلا ، وان توافرت فى هذه الدائرة أسباب الراحة والهناء والبعد عن الهرج والضوضاء . . .

لما عبثت به لجات الحيرة وقذفته على ساحل الشكوك والريب مديد الضراعة والابتهال الى الاله الواحد ذى الجلال أن يكلأه بعين رعايته ويسبل عليه ستر حمايته ، ثم حلق بأجنحة الفكر فى سماء الهداية والتمس من والدته التقية الرحيمة أن تشد أزره فى التماس الطمأنينة لقلبه والراحة لضميره والقناعة بحاله ، غير أن اخلاصه فى التوكل لم يعصمه من الوقوع فيما قدّر له منذ الازل . لانه كان كلما بالغ فى الانابة والطاعة وبذل فى ذلك جهد الاستطاعة شعر فى نفسه بدافع لا يقوى على رده يلقى به فى تيار لا غاية له من الامانى والآمال . ثم يتولاه الذهول فيقع فى وهدة اليأس من الرشد والقنوط من الهداية الى سبيل الصواب يضرب صدره اسفاً وحسرة معتقداً انه ارتكب جرماً لا يغتفر وذنباً لا شفاعة فيه وعضّ أنامله حزنا وندما .

كان بنطاؤر فى هذا النزاع الشديد بين اهوائه النفسية ووازع الضمير حينما وفد عليه رسول الكاهن الاعظم . فلما وقف على مهمته قام من فوره تلوح عليه علامات البشر والاغتباط لا علامات الخوف أو الامتعاض . فلما صار فى حضرته روى عليه الحوادث بتفاصيلها وشرح كيف انه نازل طغمة الاغتام ثم وصف الخطر الذى أحدق بوردة من

تعديهم عليها وتضافرهم على الفتك بها حتى اضطر الى الاقدام على حمايتها ، وذكر ما كان من جهاده فى ذلك حتى تمكن من خلاصها وفاز هو بالنجاة من أيدى أولئك الطغاة .

فقال أمينى : ولكن أجهلت انك للوصول الى هذه الغاية قتلت أربع انفس مما حرمت الآلهة قتله وجرحت ضعف هذا العدد من انفس اخرى ؟ وما الذى عاقك عن مكاشفة القوم بأمرك وانك من الكهان ليكفوا فى الحال عن العدوان . . لم لم تخبرهم بأنك أنت الذى قام فيهم خطيباً فخلب البابهم ببلاغته وملك أفئدتهم بفصاحته . . لم لم تجتهد فى تسكين الخواطر الثائرة بما اشتهر عنك من شدة التأثير فى الحث وقوة الحجة فى الاقناع . . لم عدلت عن هذه الوسائل كلها مؤثراً عليها القوة الجائرة ؟ أجاب بنطاؤر : لم أكن ساعتئذ فى أمساحى الكهنوتية . قال امينى : هذه غلطة فوق تلك الغلطات وذنب جاء ضغثاً على إبالة تلك الذنوب . . أنسيت أن القوانين تحرم عليك مبارحة الهيكل فى غير شوار الكهان المعروف بلونه الابيض من قديم الزمان . . أتنكر أنك لو كنت على الاقل لابساً ثياب العمل لكفت كلمة منك لصد المعتدين أم كنت تجهل ما خولته من نفوذ الكلمة بين افراد الامة ؟

قال بنطاؤر : لا أنكر أنه كان باستطاعتى ان أصد الناس عن التعدى لو لبست ذلك اللباس ولكنهم كانوا قد تدفعوا فى تيار الغضب والانتقام فلم ينفع معهم غير انتضاء الحسام ، على أنى لم أجد من الوقت ساعتئذ فسحة للتفكير فى ذلك الامر ، لاسيما وقد رأيت أحد الهمل

المتشردين قد انقضّ على الفتاة المسكينة كالذئب الخاطف وجذبها من شعرها فلم أتمالك من الاندفاع لانقاذها غير مفكر فى أنه ربما عرضت للموت حياتى ، وسرى فى عروقى دم الغيرة والحمية بحيث كان فى قدرتى أن أقتل الف نفس بدون أن احسب حساباً أو أخاف عقابا .

قال أمينى : ارى فى عينيك لمع البرق الخاطف ولربما كنت الآن تعتقد انك جئت بما عجز عنه الاوائل من آيات البسالة في حومة الوغى . . اما علمت ان الذين جندلتهم هم ابناء وطنك البررة وأنهم كانوا عزلا من السلاح كما لم يكن معهم من يدفع عنهم السوء ، وأنهم اذا أستشاطوا غيظاً فما هو الا للغيرة على الدين حينما رأوا أن الدنس كاد يلحق به بسبب ذلك الشيخ الدنىء . . من اين جاءتك تلك الحمية العسكرية والحماسة الحربية وأنت لم تخرج عن كونك ابن بستاني يتفانى فى خدمة الربوبية فى اخلاص وسكون . قال بنطاؤر : لما رأيت القوم قد تكاثروا من حولى وانى تأهبت للدفاع عن نفسي شعرت فى قلبي بما يشعر به الجندى أو البطل الكمي اذا أحس ضرورة الدفاع عن الراية التى عهدت حراستها اليه . نعم لم أخرج عن كونى كاهناً وأنى بهذا الوصف اعترف بذنبي وأكفر عنه بقبول العقوبة عليه دون تذمر ولا مقاومة . ولقد شعرت بما طرأ على نفسى من العواطف فلم يسعنى الا العمل بمقتضاها . قال أمينى : وتريد بعد هذا أن تكفر عن ذنبك بقبول العقوبة ! ولكن لمَ أغفلت فى سياق كلامك الحادثة التي ترتبت عليها نجاتك . . أتريد أن تعلم ما هى . . هي وصول بنت أنات فى خلال

تلك الحادثات وتدخلها بين الجموع وهو ما لم يكن منتظر الوقوع . . وتكذيبك للاميرة أمام القوم بأنها ليست بنت أنات ، مما دل على معرفتك اياها بالذات وأنك عمدت انكار ذاتها لغرض فى نفسك . . فجاوب على هذه التهم جاوب أيامن جعل نصب عينيه الترفع عن سفساف الامور ورفع بيمينه لواء الحق المنشور .

ما طرقت هذه الكلمات أذن بنطاؤر حتى تربد وجهه واكفهر وشخص بعينيه الى آنى الذى كان عند سماعه هذه الاسئلة يلزم الصمت ثم قال : لا أرى مجال القول ذا سعة اذ لسنا هنا بمعزل عن الناس . قال أمينى بفتور : الحقيقة واحدة لا تتعدد وما تريد الاجابة به على سؤالى يجوز أن يسمعه جناب الوالى ، فهل عرفت بنت أنات وأنها كريمة فرعون . إن الحق لا ينكره الا الخاسرون . قال بنطاؤر وقد تخبل فى أمره وارتاع : حقا ان المرأة التى انقذتنى من الخطر تحاكي بنت أنات ولكن وجوه الشبه بينهما لم تكن متوافرة فى نظرى . ولو أنى نظرتك وأنت استاذى ومهذب روحي ومثقف عقلى ، الذى طالما اكرمنى ورفع مكانتى ثم قذف بى من حالق فى درك المهانة ، اقول لو انى نظرتك كما نظرت بنت أنات لعاملتك بما تؤاخذني به بلا وجل ولا تردد . . الم يك من واجبي إزالة الشبه فى نفس الاميرة وصون كرامتها المستمدة من الالوهية والتى تسمو بها درجات على العناصر البشرية . . الم تهبط من عرشها الملكى لتنقذ من الخطر رجلا مثلى منحوس الطالع ؟ أما كان فرضاً محتوما علي بعد ذلك التفانى فى حمايتها ودفع الاذي عن ذاتها ؟ . .

قال : أميني لا عجب فأنت فارس الميدان فى البلاغة والبيان . ثم تكلف العسف والتجبر فى كلامه وقال : انى أطالبك بأجوبة سهلة خالية من التعقيد. نحن موقنون أن بنت أنات كانت متنكرة بزي نساء العامة ، وقد كاشفت بعاكر بحقيقة أمرها ، وهو الذى أخبرنا بأنها شهدت الحفلة من أولها الى آخرها وانقذتك من مخالب الخطر .. وهل كنت تعلم أنها كانت معتزمة عبور النيل ؟ . أجاب بنطاؤر : ومن أين لمثلى الاطلاع على مكنونات الصدور ؟ قال أميني : لا ريب أنك حينما تدخلت فى الامر ، كنت تعلم أنها بلا اشتباه ولا تلبيس فتاة الملك رعمسيس . أطرق بنطاؤر رأسه وارتعدت فرائصه ثم قال: نعم كنت اعتقد أنها هي . قال أميني : ان طردك اياها مع اطلاعك على سرها والصاقك بها الغش والادعاء لنفسها بما ليس فيها لمن الوقاحة والجرأة بمكان . قال بنطاؤر : لست أنكر هذا الفعل الا انى رأيتها جازفت بكرامة والدها اذ تقدمت لانقاذى من الخطر ، فأحببت أن أفدى هذه الكرامة بحياتى وحريتى وسمعتى . قال أميني: كفى! كفى .. قال آنى : وماذا تم فى أمر الفتاة التى أنقذتها ؟ أجاب بنطاؤر : اخذتها الساحرة نيخت الى مغارتها كما اخذت جدتها زوجة الشيخ ينيم .

انتهي الاستجواب هنا فأعيد بنطاؤر الى سجن الهيكل وما كاد يتوارى عن العيان حتى قال الوالى : حق لنا أن نخشى هذا الرجل لما يبديه من التحيز لجانب رعمسيس . قال أميني باسما : بل لجانب كريمته بنت أنات . . ان تشيعه اليها هو ما يخشي منه ، وأما ميوله فيما بقي من

احواله فأنا من أعرف الناس بها . قال الوالى : ولكن راعنى منه جمال منظره وسعة مخبره وطلاقة لسانه وثبت جنانه . . انى أريد سجنه عندى لانه قتل واحدا من جندى . فعبس وجه أمينى وقال بتؤدة : إن لهيئة الكهان وحدها الحق فى محاكمة الخارجين عن القوانين من رجال الدين . وهو امتياز ممنوح لها ، فكيف تطالبنى بذلك وانت باعتبار كونك مليكنا والقابض فى المستقبل على زمام امورنا أقسمت بالمحافظة على هذا الامتياز ، لاسيما وقد نصبنا انفسنا للدفاع عن حقوقك المقدسة؟ فتبسم آنى وطمأن الكاهن الاعظم قائلا : سأستبقى امتيازاتكم مصونة دائما ولكنى ارى الخطر سيتهددنا بهذا الرجل فملت الى الصرامة فى معاقبته . قال أمينى : أما الصرامة فهى ما لابد منه ولكن ليس لاحد سوانا أن يحاسبه على ما قدمت يداه . قال آنى محتدما غيظا : ارتكب الرجل جريمة القتل بسفكه دم أربعة انفس كان حراما قتلها بغير الحق فهو لعقوبة الاعدام مستحق . قال الكاهن الاعظم : متفق معك على أنه قتل أكثر من واحد ولكنه كان فيما اجترمه مسوقا بحقه فى الدفاع عن نفسه . ولست أرى ما يدعو الى التفريط فى حياة شاب أفاضت عليه الآلهة اسمى المواهب ؛ لمجرد انه لم يجد سوى التجبر مركبا فركبه فى ظروف غير ملائمة . وانه ليلوح لى من اقوالك وحركاتك أنك تضمر له الحقد ، وهو ما يحملنى على الريبة فى نيتك نحوه ويدعونى الى الخوف على حياته منك فعدنى عدة صادقة إن كنت لى محالفا ولمشروعى مؤازرا الا تغدر به . فتبسم الوالى وقال : أعدك هذه العدة . ثم مد

يمينه مصافحاً ، فقال الكاهن الاعظم : أشكر لك هذه المنة . . ان بنطاؤر مقدم على تلاميذى كلهم وهو أحقهم باحترامي ومحبتى رغم غلطاته المتكررة ، وأناشدك الحق ، أما لحظت وقتما كان يشرح لنا اسباب منازلته القوم تلك الشمائل التى كان يتجلى فيها فلا يسع الناظر اليه معها الا القول بأنه آسا أو ابنه الموهار السابق الوالد الاوزريسى لبعاكر رئيس الطلائع ؟ . .

قال آنى : لا بد مع توافر الشبه بينهما ان يكون وضيع الاصل خامل الذكر . . والى أى أصل تمت والدته ؟ . . أجاب أمينى : أمه زوجة بواب الهيكل وهى معروفة بحسن الخلق وسلاسة الطبع ولين العريكة . قال آنى بعد أن أطرق رأسه مفكراً : انى عائد فوراً الى المدعوين ولكن لى عندك حاجة اروم قضاءها . ذلك أنى كنت اشرت الى سر يجعل بعاكر فى قبضتنا وآلة فى يدنا . واذ كان لا يعرف هذا السر سوى ساحرة آوت وردة عندها فمن صواب الرأى استدعاؤها هنا لاستجوابها فى امور أروم تحقيقها بشرط الا يصرف هذا الامر الخواطر الى مشروعنا . فوعده أمينى بقضاء هذه الحاجة اذا بادر بانفاذ الجند ليأتوا بالعجوز وأمر أحد أعوانه باعداد قاعة الجلسات وإضاءتها بالانوار الساطعات ووضع كرسي له فى الحجرة المجاورة لها ليتسمع من وراء الباب ما يدور بين الوالى وبينها من السؤال والجواب .

الفصل الخامس

بيكى احدى حسان طيبة الفاتنات وليلة التجليات

بينا كان ضيوف بيت سيتى يعاقر بعضهم ابنة العنب ويدبر البعض الآخر الدسائس على مايوافق أطماع الوالى ، وبينا كان أحراس الكاهن الاعظم يقطعون وادى المقابر ركضاً على الاقدام فى طلب الساحرة ، هبت فى وادى النيل ريح عاصفة اقترنت من ناحية الجنوب الغربى بريح السمائم التى كانت تطارد أمامها سحباً قاتمة اللون وتثير رملا أسود فتذروه فى جميع الأنحاء وتلوى أشجار النخل العظام فتجعلها كالقوس اذا أرسلت منه السهام ، وتقوض أعمدة الخيام وتقذف فى واسع الفضاء قماشها فيبدو كالخيال الابيض فى حالك الظلام ، ثم تصدم وجه النيل فبعد ان يكون فى استواء المرآة يضطرب كالبحر الخضم فيلتمس راكبوه النجاة ، وتصطدم موجاته صفافه بالتواتر كصفوف جيش انتضي جنده من السلاح كل حسام باتر .

وكان بعاكر آنئذ فى زورقه فأخذ يحث النوتية على بذل الجهود لبلوغ الضفة الاخرى . وكثيراً ما أشرف الزورق على الغرق ولكنه تلافى الخطر مذ قبض على الدفة وسير الزورق بنفسه حتى وصل فى أمان الى الضفة الاخرى . وكانت الرياح لشدتها أطفأت المصابيح المعلقة باطراف الاذقال ايذاناً بالرجوع ، فلما هبط بعاكر البر من الزورق

لم يجد بانتظاره أحدا من الخدم وحملة المشاعل فاضطر الى اختراق الطريق الموصل الى بيته في حالك الظلام تعبث به الرياح المحرقة وتسفى على وجهه الرمال وتثير العثير . وكان اذا صار على مقربة من داره وسمع البواب نباح كلبه بادره، وقد أيقن أنه عاد، بفتح الباب وقابله بالترحاب غير أنه لما قتل الكلب اضطر النوتية الذين صحبوه لحراسته ومؤانسته فى وحشة الطريق الى طرق الباب ولبثوا يطرقونه بكل ما أوتوا من قوة زمناً طويلا فتنبه البواب من نومه وهمّ بفتحه خائفاً مذعوراً .

وكان صحن الدار حالك الظلام لأن المصابيح كانت اطفأتها الرياح ولم يكن بها كلها غرفة مضاءة سوى مخدع ستخم . فلما أحست الكلاب همسه هو ومن صحبه من الاحراس عوت عواء طويلا فانقبض لسماعه صدر بعاكر اذ لم يتبين فى هذا العواء هرير كلبه المحبوب . ولشدّ ما تألم قلبه وكسف باله لما أبلغ الشيخ الحبشي القائم على حراسة مخدعه قتل كلبه فبث أنين الحزن والشجو ، لأنه كان شريكه فى الحياة وقسيمه فى السراء والضراء . وتغلب اليأس على بعاكر فالقى بنفسه على كرسي وسأل الحبشي ماء بارداً يضع فيه يده الجريحة عملا بأشارة الطبيب نبسشت . فلما شهدها الخادم الامين والدم يسيل منها صاح صيحة الجزع سائلا : من الذى جرحك وقتل كلبك ؟ أما زال هذا المجرم الغادر على قيد الحياة ؟ فأومأ بعاكر بايماءة الايجاب ثم أطرق رأسه وعجل بوضع يده فى ركوة ماء جاء أحد الخدم بها خلال ذلك الحديث .

وكان بعاكر يحس بضعف فى قوته وانحطاط فى مكانته وجرح فى عزته . وكان يود أن لو تنشق مياه النيل كالاخدود فتبتلعه أو يعود طفلا ليسترسل فى البكاء دون أن يلومه لائم . واتجه خاطره بعد ذلك صوب غاية أخرى واشتد خفقان قلبه وجحظت عيناه وازداد تقلبهما فى حجاجيهما كما يفعل الذى به طائف من الجنون . وكانت نفسه ساعتئذ متأثرة بعامل التشفى والانتقام وارادة السوء لمن صبوا عليه جام الرزايا والآلام . ولقد بدا بعد من أمره أنه اطرح الهوى ولم يتخذه شفيعاً لدى من جنوا عليه ، وظل تنتابه الهواجس ردحاً من الزمن ثم قال : أياشأفة رعمسيس لسوف استأصلك وأمحوك من الوجود فلا يبقى لك من أثر . وسأعمل معاول الهدم والاستئصال فى حاشيته المقربين فلا يكون فرق فى الاندثار بين الملك فى سماء المجد والعلياء ومينا والامراء الذين أخذتهم الكبرياء .. لا بد لى من إبادتهم جميعا والتعفية على آثارهم . وانى لعالم بالسبيل الى تحقيق هذه الامنية فصبراً صبراً ! وما انتهى من مناجاة نفسه بهذا الكلام ورفع يده كمن تأخذه حدة الغضب فيهم بضرب من حوله انفتح باب الغرفة ، واذا بستخم داخلة تسير على مهل . ولم يكن بعاكر سمع لها همساً حينما اقبلت على مخدعه لشدة قصف الرعود وعصف العواصف فرأته وهو فى ذلك الوضع الغريب ، فدنت منه وصاحت باسمه وقد تولاها الذعر اذ كان ما خمنته أنه أصابه من الشيطان مسّ . فما أبصر بوالدته حتى أرعد ولكنه تكلف السكون وضبط النفس وقال : يا والدتى ! ها أنت ذه ! لقد أوشك الصباح ان يسفر وينتشر ضياؤه فى

الخافقين. وهى ساعة ما أحيلى النوم فيها، فلم جئت هنا؟ أجابت: اعتراني سهاد لان الرياح اشتد عصفها فخيل لى انها تدك جدران الدار دكا وصرت من الفزع فى حالة لا يماثلها الا حالتى يوم توفى ابوك. قال مشفقاً: أفضل أن تبقى هنا وتنامى فى فراشي. قالت: لم آت هنا للنوم بل لما وقع بضفة النهر فأنه ألقى فى فؤادى الهلع والقلق. وليس هذا لانك اصبت فى يدك بجرح بالغ ولا لما تعانيه الآن من الآلام بل لأنك سلكت مع ابن الملك مسلكا يستثير عليك غضبه ونقمته.. لا يفوتنى أن جلالته لا يحبك كما كان يحب والدك بل يمقتك المقت كله، ولذا ترانى على خوف من أن يفتك بك. ثم اننى لم أفهم معنى لضحكك الذى سمعته.. ونبراته بليلتها وعطفاتها ومدّاتها تدل على خبث الطوية وقصد السوء.. وما رأيتك عليه من الاوضاع الشاذة.. أفلا يكفى أن يملأ قلبي رعباً وترتعد له فرائصى فزعا؟.

لزم بعاكر ووالدته الصمت بحيث كان يتوهم الناظر اليهما أن قصف الرعود قد استرعي سمعهما فأصاخا اليه. ولقد ظلا فى هذا الوضع الجامد زمناً قالت بعده ستخم: أحس بعاطفة غريبة تتملكنى هي غير التى تظن اننى متأثرة الآن بها.. ما برحت أفكارى متولية شطر ذلك الشاب بنطاؤر الذى خطب الناس فبهرهم بفصاحته وعواطفي نزاعة اليه لأنى أرى قرائن الشبه متوافرة بينه ووالدك يوم خطبنى من أهلى.. وجوه الشبه بينهما تحملنى على الاعتقاد بأن الآلهة لما دعوا اليهم المرحوم زوجى قضت ارادتهم النافذة بان تبقى على وجه

الارض صورة حية من ذلك الاصل العريق المليح . قال الشيخ الحبشى : أصبت ! . . انى أرى بين سيدى المرحوم وشاعر القوم قرائن شبه كثيرة . ولقد أمعنت فيه النظر أمام بيت المحنط وهو ينازل المتعدين عليه فشمت فيه الشهامة ، وكان يرفع بيد واحدة عمود الخيمة ويجيله بها كما كان سيدى المرحوم آسا إذا نزل فى حومة الوغي يشهر سيفه ويخطر به بين الاعداء . وما سمع بعاكر هذه الآراء حتى اندفع يقول : دعك من هذا الهذي يا مجنون ، أين وجه الشبه بين واحد من الكهان ووالدى زعيم الشجعان ؟ ولو أن هناك جامعة شبه تربطهما لما منعنى ذلك من المضيّ في أخذ الثأر ممن سبنى وبوقاحته غلبنى . قالت ستخم : ولم هذا العناد وهذه البغضاء وكيف لا تقتدى بأبيك فى خلاله الشماء ؟ أتكره التشبه به فى اكرام الاشباه واحترام النظراء ؟ قال بعاكر : وهل يحبنى هؤلاء الاشباه حتى أحبهم ؟ . . قد بلغ من نكد طالعى ان يعارض الآلهة انفسهم رغائبي ويعاكسوا مطالبي ويلقون المعاثر فى طريقى وأنا أنا الذى يوافيهم بالهدايا والقربان فى كل آن . فيالله الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ! !

قالت ستخم : حذار يا بني ! ان زمام أمور العالم بأيدى الآلهة فلا تطير ريشة فى مهب الريح الا بأذنهم وسابق ارادتهم . وقد كان المرحوم ابوك على هذا الاعتقاد يجهر به فى كل محفل وناد ، ولكن ما أعظم الفرق بينك وبينه فى محاسن الاخلاق وتصوير الخلاق ؟ . . قد امتلأ قلبي ذعراً مذ رأيتك تقذف من فيك شواظ الشتائم الفاضحة

على ولي نعمتك ومغدق الخيرات على والدك من قبلك ، أميرك المبجل رعمسيس . قال بعاكر : اصبح هذا الملك ألد خصومي ولسوف تسمعين عنه ما هو أجدر من الشتائم بالاهتمام بل لسوف يعلم ابناؤه ان ابنك وابن المرحوم زوجك لا يتذلل لأحد ولا يصبر على الهوان والضيم ، بل ينتقم شر الانتقام ممن يريدونه بالأساءة أو يقصدونه بالحطة والدناءة . . ان صدري لينشرح سروراً لو رأيت تلك الذرية القذرة تتلوى حول قدمي . فصاحت ستخم وقد طار لبها : انك لعتل ذميم وخائن أثيم . . نعم لست الا امرأة ضعيفة الحول ولكنني أقسم بطاعتي لابيك واجلالي لسيرته لأسلبنك نعمة حبي وعطفي إن لم . . آه لقد رأيت . . لقد فهمت . . لقد علمت . . أجبني أيها الجاني الاثيم أين السبعة السهام التي كانت معلقة هنا ؟

ما كادت ستخم تفوه بهذه الجملة حتى ألقت بنفسها على بعاكر فتراجع الى الخلف كما كان يفعل في طفولته إذا سقط في هفوة ، وهمت والدته بعقابه فاقتفت أثره حتى أدركته وجذبته من نطاقه . ثم كررت عليه صائحة ذلك السؤال ، فاضطرب حنقاً وحقداً لا خوفا من والدته واحتراما . ثم قال : أما السهام فما برحت في كنانتي وها هي ، على أنني ما زلت مصراً على رشقها في كبد عدوي ولسوف تقفين قريباً على حقيقة كل شيء .

وفاضت العبرات من عيني ستخم وثارت نفسها فرفعت يدها ثانيا في وجه بعاكر الذي لم يتمالك أن دفعها بعيداً عنه قائلا : اعلمي

لست أيتها السيدة طفلا وإنما أنا رجل ولى وحدى هنا الكلمة والامر . لا مفر لى إذن من تنفيذ ما أردت ولو اقتضى أثرى مائة امرأة مثلك يعولن خلفي أو يعوين كالكلاب المسعورة . قال هذا واشار الى الباب يريد بذلك صرفها من حجرته ، فطفقت ستخم تبكى وتنتحب حتى إذا بلغت الى الباب وقفت ثم أجالت النظر فى داخلها وكان بعاكر جالسا في كرسي معتمدا رأسه بيديه فصرخت مراراً باسطة يديها نحوه وقائلة : لا يمنعنى مانع من ان اضمك الى صدرى إذا عدلت عن نياتك الخبيثة ومشاريعك الشيطانية .

هز بعاكر رأسه إيماء الى الرفض فتولى الأم من جراء هذا العقوق يأس شديد وأرخت ذراعيها وقبضت كفيها ثم قالت منتحبة : أتذكر ياولدى ما جاء فى الكتابات المقدسة من الاوامر والنواهى التى لقنك إياها والدك فى صغرك . . فقد جاء فيها « اعتبر طاعتك لوالدتك جزاء لها على صنيعتها لك بالقيام على تربيتك ولا تلجئها بسببك الى بسط يديها بالدعاء عليك واسلك معها مسلكا يحجب عن السموات صعود شكواها اليها » (١)

ما طرقت هذه الكلمات أذن بعاكر حتى أخذ يئن وينتحب ولكنه لم يبرح مكانه ولم يتكلم بكلمة . فصاحت ستخم باسمه مرة أخرى وكان صوتها يدل بنبراته الناعمة على ما يخالج فؤادها من عواطف الحنان والرفق ، فلبث ساكتاً ساكناً كأنه لم يسمع نداءها . وكانت فى خلال

(١) هذه التعاليم تتضمنها الورقة الرابعة من اوراق البردى المحفوظة بالمتحف المصرى

ذلك قد لمحت الكنانة بين اسلحة أخرى فانقبض صدرها وتربد وجهها وقالت بصوت متهدج : لست ارضى لك المضي مع هوى النفس فيما تروم من الانتقام . . أسمعت قولى . . أعوّلت على اتباعه . . لمَ لا تجاوبنى . . لقد ضقت ذرعا أيها الناس فخلصونى من شر هذه المحنة !

وبعد هنيهة انقضت على الكنانة فاستلت منها سهماً همت بكسره فوثب بعاكر عليها من مكانه واستخلص السهم بعنف من يدها ، فأصاب نصله ذراعها فسال الدم منه دافقاً على جسمها . وقد أحست الالم ورأت الدم متقطرا فتولاها خوف شديد ، لانها كانت تكره سفك الدماء ، ثم قالت بصوت خافت : ان هذه اليد التى سفكت دمها عليها عهد الآلهة وميثاقها الا تلامس يدك ما لم تقسم بالايمان المحرجة لتعدلن عن نية الانتقام وتنبذن ظهريا هواجس القتل والاعدام وتطهرن ضميرك من كل ما يدعو الى تلويث شرف والدك والحط من مقام أسرتك .

ما سمع بعاكر هذه الكلمات حتى جثا على ركبتيه متأثر الوجدان واخذ لوخز الضمير وعقاب السريرة يتلوى كالثعبان ، فاتجهت والدته نحو الباب اذ وقفت قليلا دون أن تنبس شفتاها بكلمة الا أن توجه نظرها نحو ابنها ونزوع نفسها اليه جعلاها فى وضع يخالها الرائى فيه أنها تنادى ولدها وهو لايجاوبها وترجو منه وتبتهل اليه . ولا بدأن قد أعيتها معه الحيل فخرجت من الباب الذى انغلق فجأة خلفها بقوة الرياح التى دفعته .

وكان بعاكر قد فطن لانصراف والدته فأخذ يبكى وينتحب قائلا : والدتى ! والدتى ! . . لاأستطيع العدول . . لايمكننى الرجوع . . وهنا كف عن الكلام لانه سمع من قصف العواصف ما كاد يصم أذنيه وما لم يعهد له نظيرا من قبل وأحس الدار كأنها تنتفض كالعصفور بلله القطر ، وخيل له أن صخوراً صلدة تساقط من الجو فى فناء الدار فتحدث تلك الرجة التى ارتاع لها قلبه وقام نحو النافذة ونادى بالخدم يسألهم عن الحادث الجلل فتقدموا اليه فوجاً بعد فوج. وكان فى طليعتهم قيم الدار فقال لمولاه : لقد اقتلعت العاصفة كل الاقوال المغروسة امام الباب الكبير . قال بعاكر : أو ممكن هذا ؟ . قال القيم : مولاى ، هذا ما حصل ، ولا شك عندى فى أن الخواص الذى كسرت ترقوته قطع تلك الاقوال عند مغارسها فى الارض . وإذا حصرت الشبهة فيه فما هو إلا لأنى بحثت عنه فى أركان الدار فلم أجده ولعله اركن الى الفرار . قال بعاكر : أطلق الكلاب فى أثره وليطارده من يحسن الركض منكم ليأخذ الآفاق عليه ، ولمن يرجع به فك رقبته وملء يدى خمس مرات ذهباً .

كان ضيوف هيكل سيتى يلتمسون الراحة بالنوم وقتما ورد على أمينى خبر قدوم الساحرة مع الاعوان الذين انفذهم فى طلبها . فقصد فى الحال الى الغرفة التى كان آنى ينتظر بها ساعة اللقاء بالعجوز . وكان هذا الوالى نهباً للهواجس آنئذ ، فلما سمع وقع أقدام أمينى وهو مقبل عليه هب من غفلته وقال فجأة : أوصلت العجوز ؟ أجاب الكاهن

الاعظم : نعم . فأخذ الوالى يسوى شعره المرسل على كتفيه ونظم عقده الكبير ثم قال : فى قدرة تلك الساحرة أن تلحق بي أذى ، أفلا تمنحنى البركة اتقى بها شر سحرها . . نعم ان معي الطلسمات الواقية من الشرور كعين هوروس وفتنة ايزيس ، وإنما يحسن من باب النظر فى العواقب أن . . قال أميني : فى وجودى هنا وقاية لك من شر السحر ، بيد أنى أعلم من جهة أخرى أنك راغب فى مكاشفة العجوز بشؤون ليس لى أن أطلع عليها . والأمثل عندى أن تدخلها الغرفة المنقوشة الجدران بالامثال المقدسة حتى لا يتسلط سحرها عليك وأبرح هذا المكان طلباً للراحة . ثم ودعه وأمر كاهناً كان يسير وراءه : جيء بالساحرة الى الغرفة المقدسة ورش عتبتها بالماء قبل أن يتخطاها الوالى .

قصد أميني الى خزانة صغيرة لصيقة بالقاعة المقدسة التى أمر الكاهن باستقدام الساحرة والوالى اليها ليتمكن وهو جالس بها سماع ما يدور من الحديث بينهما بواسطة أنابيب وضعت بالجدار فى أوضاع مديرة بحيث توصل الصوت مفخماً الى أذن المتسمع وإن يكن فى الحقيقة خافتاً . وما هى إلا فترة قصيرة حتى دخلت الساحرة فتفزع آنى لرؤيتها واستطير لبه روعا من هيئتها . وزاد فى تفزعه أن المرأة لبست ثيابا رثة بالية وفكت شعورها البيضاء المرسلة الى ما يؤازى منتصف الجبهة واتخذت لها عكازا تتوكأ عليه . فلما أن وقفت شخصت في الوالى بعينيها الحمراوين بتأثير ماكانت الرياح تسفيه عليهما من الرمال حتى صارتا كجذوتى النار . وكان الناظر اليها فى هذا الشكل الرهيب لا

يفرق بينها والضبع الذى يتربص بالفريسة فلم يلبث آنى حين رآها وسمع قولها وهى تسلم وتعاتب لانه استقدمها في وقت لا يلائمها أن ارتعدت فرائصه فرقاً وتوجس منها خيفة واستطردت هي الكلام فانتقلت من العتاب إلى الثناء والشكر تلقاء عدته إياها تجديد الاذن لها ، الى أن قالت معترفة أنها هى التى وافت بعاكر بالماء السحرى . ثم أزاحت الشعر عن وجهها فعلم آنى آنئذ ان الواقفة أمامه امرأة وكان قبلا فى ريبة من أمرها .

كان الوالى جالساً فى كرسي والعجوز واقفة تبدو عليها أمارات التعب والضجر فرجت منه أن يأذن لها بالجلوس قائلة ، إن عندها من جمّ الاخبار ما يمهد له اتخاذ بعاكر آلة فى يده ، فأشار آنى الى زاوية من زوايا الغرفة فانحدرت العجوز اليها وجلست فيها ولم تنتظر أن يأذن لها بالكلام ، لأنها ماكادت تستقر فى مكانها حتى أخذت تناجى نفسها : نعم لا بدلى أن اذيع له ماكان كاتماً من أسرارى كي يرتاح بذلك ضميرى وتهدأ نفسى وأخلص من اعباء المسؤولية ، فلست أحب أن احرم تحنيط جثتى بل أود الاطلاع على حوادث الحياة الاخري . . أعرنى سمعك ! يجب عليك قبل أن أثير لك ما هو كامن في صدرى أن تقسم بالآلهة لتدعني وشأنى أعيش فى سلام وأمان وتباشرن فى تحنيط جثتى بعد موتى . . أقسم باليمين والا فلست أبوح بشيء .

اقتصر آنى فى جوابه على ايماءة الرضى بهذا الشرط فاعترضت العجوز : الايماء فى هذا المقام لا يكفى لتوكيد القسم . بل لا بد

أن تجهر في صراحة بصيغة اليمين التي املیها الآن عليك وهي : « اذا لم أف لنيخت بوعدي إياها قضاء مرادها في مقابل عملها على أن تجعل الموهار في حوزتي وتلقي بزمامه في قبضتي فللشياطين الخاضعة لمطلق إرادتها والمنفذة لجازم مشيئتها أن تسلبني نعمة الحياة قبل الصعود الى عرش الملك» ..لا تحفظ عليّ يا مولاي اذا شرطت هذا الشرط فانما يقولك « نعم » توكيدا لهذا اليمين تستفزني الى سرد حوادث على مسامعك هي لغرابتها أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ، مع أنها الواقع الذي لا اختلاق ولا مين فيه .

قال آني وقد عيل صبره : أقسم بذلك القسم وأقول « نعم » غير حانث ولا ناكث . عندئذ تمتمت العجوز بكلمات لا تفيد معنى ولا تؤدي الى مراد وظلت ساعة في تأمل واستجماع فكر ، ثم اشرأبت عنقها فبدأ جيدها ضئيلا يكاد يظنه الرائي لشدة نحوله فقرات عظم مكسوة بالجلد ، ثم شخصت فيه بعينيها المتقدتين ناراً قائلة : أسمعت في شبابك أن غادة تدعي (بيكى) فتنت الشبان بجمالها الباهر وخلبت مسامعهم بصوتها الرخيم . . إذا كنت لم ترها ولم تسمع عنها فانظر أمامك جيداً تجدها بين يديك . قالت هذا وضحكت بطفاً لظهر ثم استجمعت بيديها اطراف ثيابها الرثة البالية لتستر بها ما بدا من سوأتها وقبح صورتها . وبعد هنيهة استأنفت الحديث قائلة : نعم ان الرجل يتناول قطف العنب فيمتص عصير حباته بلذة وهناءة ثم يطرحها على الارض ويدوسها بقدميه . فما أشبهني اليوم بحبة منها أهينت وديست

بالاقدام بعد أن استنزف خيرها وامتص كل حسن ولذيذ فيها . . لا ترمقني بعين الرأفة . . لانني وإن قوست الشيخوخة ظهري والتصقت بالتراب ذلا ومهانة وفقراً واستكانة لم يستطع احدهم ان ينكر عليّ أنني كنت ذلك القطف اللذيذ الطعم الذى طالما جد الكثيرون فى طلب التمتع بلذته . . ولست أجد فى ألف امرأة مثلي كانت فى حياتها مجمعاً لتضارب الاضداد من سعادة وشقاء وحب وبغضاء وسرور وآلام وتسامح وانتقام ونشاط وثبوط وأمل وقنوط . لذلك أراني كلما فكرت فى هذه الحياة جديرة بالصعود الى عرشك المنيع والاستواء فى مكانك الرفيع . ولا توجس منى خيفة أبداً فقد اعتدت من أمد بعيد الزحف والتسلق والهجوم والتدفق فاسمع إذن كل كلامي ولا تقاطعني وأنا أوافيك بما تتوق الى الوقوف عليه من الحوادث الجلى والوقائع العظمى .

كنت فيما غبر من أهل الطبقة العالية فى الامة . وكانت عادة الاكابر وذوى الحيثيات أن يتزلفوا الى المرأة الجميلة بأنواع الملق والمداهنة وتصنع الخشوع ، وابتسم لى ثغر السعادة والعز فأصبحوا طوع أمرى جميعا . هذا ولقد آن لى ان أقص عليك تاريخ حياتى وان لم اجرأ من قبل على مفاتحة أحد به ولو كان من اولياء الامور .

قبل نحو الخمسين عاما كانت الشبيبة تتهافت على سماع صوتى وتتنافس فى التقرب إليّ للأنس بى والحظوة منى بلفتة أو ابتسامة أو كلمة ، وكنت لا أغني صوتا الا ويجيء صحيح الصنعة والتجزئة فتراهم يتوثبون من أماكنهم اليّ اهتزازا بتلاحينه واعجابا بما كنت عليه من

براعة جمال وحسن محاضرة . وكان والدى ذا أصل وفضل وجاه . عهدت اليه فى زمانه أزمة الحكم على مدينة أبيدوس ولجهره بالولاء والاخلاص للأسرة التى أنت غصن دوحتها والحلقة الاخيرة من سلسلة سلالتها اضطهده رعمسيس الاول بعد إذ خلص له الملك اغتصابا وتعدى بالبغى عليه واوصل صنوف الاذى اليه ، فقد أمر بابعاده هو وأفراد أسرته الى منجم الذهب ببلاد الحبشة فلقوا حتفهم فيها جميعاً ولم يبق منهم وقد انقرضوا سواى . وكنت لم أزل على جمال غض وصوت رخيم ، فلما عدت الى مصر اندرجت بطيبة فى سلك فرقة موسيقية ، فكانت لا تقام معالم الافراح والحفلات الا وأكون لها غرة جبين ودرة تاج . وقد جمعت فى ممارسة هذه الصناعة مالا كثيراً وجذبت الى دائرتى عدداً لا بأس به من الشبان وحصلت من مشتهيات الحياة الدنيا ماتجاوز المأمول . ولكن الرزايا التى ألمت بأسرتى والمكاره التى حفت بأخوتى ووالدى ووالدتى افعمت قلبى بهموم جعلتنى ذاهلة دائمة التفكير كثيرة الهواجس ، مع اننى كنت فى سن يحلو فيه مذاق المر ويعذب طعم الصاب والعلقم .

وكان لا يجرأ أحد من ابناء الامراء والكبراء الذين تدلهوا فى عشقى وتسابقوا الى كسب مودتى وتنافسوا فى مرضاتى على أن يلمسنى باطراف أنامله إذ كنت أضن عليهم حتى بهذه الحظوة استعلاء واستكبارا . بيد أنه كان لكل كبرياء حد ينبغى أن تقف عنده ، فقد قضت الآلهة فى حكمتها الأبدية ان تستذلنى وتكسر من شكيمتى ،

فساقت لى الشاب آسا الذى لابد أن تعرفه ، وهو والد الموهار السابق وجدّ بنطاؤر ، وإن تشأ فقل جد بعاكر رئيس الطلائع . كان ذلك الشاب يجمع الى جماله الرائع شرف الاصل وكرم الاخلاق ، فكنت كلما غنيت دوراً عمد الى الجلوس أمامي ووضع عينيه علىّ واصغى سمعه الىّ واستقر فى مكانه لا يلتفت يمنة ولا يسرة . وفى هذا القدر كفايه لكي تعرف ماوقع بعد . . ولكنك لا تستطيع ان تعرف ما حصل . . لم يتفق لمخلوق على وجه الارض ان يتفانى فى عشق آسا كما تفانيت فى عشقه . . ما لى أراك لا تهش لسماع هذا الكلام . . ولكن لعل لك عذرا فقد يكون من المضحكات أن تسمع الحديث من عجوز مثلى لا سن واحدة في فيها . . توفى آسا منذ بعيد ، ولعلى لم أزل اضمر له البغضاء ذلك لان حبه ما برح متأصلا فى فؤادى . . قضى آسا حولين كاملين لم يعرف فيها امرأة غيرى ثم سافر مع الملك سيتى فى محاربة الاعداء ، فكان لا يمر بى يوم الا كما يمر العام مللا من الانتظار . فلما حطت الحرب الاوزار وعاد الى الوطن متوجا بأكليل الغار ومنيت النفس بقرب لقائه وبعودة المياه الى مجاريها ، فما أشد مصابى حين علمت أنه اقترن بفتاة جميلة من بيت عظيم ذى محتد كريم وما أسرع ما دبت في قلبي عقارب الغيرة حتى كدت اذوب غيظاً وأموت حسرة وكمداً .

وكنت لم أزل على جمال غض وشباب نضير فتحينت الفرص حتى التقيت به وجها لوجه عشرين المرة ، غير أنه كان فى كل منها يصدف عن طريقى ويلتمس الفرار منى كما يفر السليم من الاجرب فكبر الامر

على نفسى وانتابنى من جرائه جزع شديد وتوله لم يلبث أن نالتنى بسببه حمى شديدة عجز عن علاجها نطس الاطباء حتى كادت تذهب بحياتى. ولما يئست من شفائى وقنطت من تحقيق رجائى حررت له الرسالة الآتية: « أشرفت بيكي على الهلاك وتتمنى أن لو تتزود منك نظرة قبل وفاتها فتفضل بتحقيق أمنيتها » ثم طويت ورقة البردى التى حررت فيها هـذه الكلمات على أول هدية قدمهـا الىّ وهى خاتم وضيع القيمة . . أتعرف ماذا كان جوابه على رسالتى ؟ أرسل إلىّ مالا وفيراً من النقدين الكريمين، فما وقع نظرى عليه حتى خيل لى أنه وضع فى عينى حديدا حمي فى النار حتى احمر، وما زلت حتى اليوم أحس لسعاته الحامية كلما فكرت فى خيبة أملى وفشل سعيي، ولـكنكم أنتم معشر الرجال والسادة الذين طالما استسهلوا الصعب وانقادت لهم الآمال لا تقدرون تأثير اليأس فى القلوب الكسيرة والافئدة الكليمة . ولو اجتمع منكم ثلاثة أو أربعة وقصصت عليهم هذه الحادثة لما وسع أرفعكم مقاماً أن يقول بصوت جهوري « لقد أصاب فيما فعل » ثم يبنى هذا الحكم على ان آسا كان متزوجا زواجا شرعياً وأنه لا يليق به أن يختلف الى غانية تطرب الجمهور بصوتها الرخيم، لانه ان فعل فقد نقض عهد الزواج ولم يقم بالواجب وجر على نفسه اللوم والتعنيف .. ولـكن أفى مثل هذا التعليل ذرة من الحق والصواب ؟ كلا ! لان صاحبه لا بد ان يكون ممن يعتقدون فى المرأة البائسة التى فوجئت بالهجر المتلف انها ليست من البشر وأن جوفها خال من قلب رحيم يتأثر بالعواطف الشريفة أو

يحفظ عهد الوفاء ، وأن هذا القلب لو وجد فعلا لبقى متنكساً فى وهدة اليأس والقنوط خمسين عاما فلا يحس قلب امرأة أخرى شيئاً من الغيرة بسببه ، فهو اذن وجود عدم . . ان آسا تحرى فى سلوكه اجتناب اللوم من قرينته . . . ولكنه جوزى على بغيه بتساقط اللعنات عليه والتصاقها بذريته من بعده ، فهي ملازمة لهم أبد الآباد . . رأى أنه كان حريصاً على الفضائل متمسكا باهداب العفة فى حين أنه قد أثم إثما ليس له من شافع اذ ألقي فى مهواة اليأس قلباً كان مابرح مقيما على عهد الولاء له . . ولا ريب فى أن اجتنابه الحضور عندى فى ذلك العهد دليل على أنه كان لم يزل مغرما بى ، وإنما خشي أن تذكى رؤيته إياى بعد طول الثنائى نار هذا الغرام فى فؤاده ، وحسبي ذلك باعثا على التماس العذر له . واذا كان هناك ما يفت فى عضدى ولا أعذره من أجله فانما هو ارساله الىّ بذلك المال . . انه بهذا الفعل الذميم قد جنى جنايه لا شفاعة فيها ولا غفران .

فاهت العجوز بهذه الكلمات فكان يخيل للسامع أنها فى حلم تهذى فارتاع الوالى من منظرها وبدرت منه حركات جعلته وهو فى كرسيه يتراجع الى الخلف . وتنبهت الساحرة اليه فاستجمعت قواها لاستئناف الحديث وقالت : أنتم معشر القوم الذين تحلقون فى سماء السيادة والعز بأجنحة الكبرياء والعظمة كما تحلق الطيور الجارحة فى أجواز الجو ، لا يقلق بالكم ولا يزعج ضميركم شأن اولئك الذين وضعتهم الاقدار فى الدرك الاسفل . . ولكنى استأنف حديثي فأقول : لما كتب لى الشفاء

مما اعترانى من الادواء شعرت بصوتى الرخيم وقد ذهبت محاسن نغماته ورصانة نبراته وعطفاته ، وكنت مع هـذا فى مال كثير وعيش رغيد فصرفت ما أملكه على سحرة طيبة وشربت مياههم السحرية التى تجدد فى القلوب ما اندثر من معالم الحب وتستأصل جرثومة الشر ، وصرفت همتى الى استرجاع صوتى الذى كان رسول الغرام بينى وقلب آسا وبه امتلكت قياده ، فلم تجد الأدوية نفعاً بل أصبح صوتى أقرب ما يكون الى نعيق الناعق أو نعير الناعر . وقد اطلع على خبيئة أمرى كاهن طرد من هيكله وكان ساحراً ماهراً عرافاً ، فلزمته ملازمة الظل للشبح حتى تلقيت عنه أسرار السحر ، وإذ رأى أن اصدقاءه فى وقت الصفاء والهناء قد انفضوا جميعاً من حوله فقد التجأ الى المقابر ، فاقتفيت أثره بيد أن الحكومة ساقته الى المحاكمة وانتهى أمره بالمشنقة فبقيت وحدى فى إحدى المغائر وشهرت بين الناس حتى الصبية فى الطريق بممارسة السحر ، فكانوا يعدلون عن طريقى وامتلأت صدورهم علىّ بالاوغار والأحن كما امتلأ صدرى بهـا على نفسى ، وكان هـذا كله جناية وحيد طيبة فى التقوى والمروءة والصلاح . . آسا ؟

ومع توالى هذه النكبات كنت حذقت مهنتى الممقوتة ومارست معها نحو مائة مهنة أخرى . فلما كان مساء ذات يوم قدم الىّ (سنت) مباشر البستان الذى كنت أشترى منه ما أحتاج اليه من الحشائش ، ومعه غلام وليد أصابع احدى قدميه تبلغ الستة عداً ، وسألنى أن أصلح منه ما أفسد الدهر بأن اجعل الستة خمسة وقال إنه جاءها على غير علم

من زوجته وأنها لو كانت وقفت على سر ما أراده لمانعته فى تسليم الغلام الي ، وكان من المستطاع في الواقع اصلاح ذلك التشويه احياناً .

وفى ضحى اليوم التالى سمعت صدى ضوضاء وهرج فى الوادى فما هى الا برهة حتى أقبل فوج من الخدم يسألوننى المبادرة بمصاحبتهم لانقاذ مولاتهم ، وكان أخذها الطلق وهي فى زيارة قبور الاجداد ، فأخفيت الغلام السداسي الاصابع طي ثيابى وأمرت خادمى أن يحضر الماء ثم عجلت بالانصراف مع الخدم الى مكان الحادث ، فاذا بى أمام قبر والد آسا . وهناك علمت أن المرأة التى جعلتها آلام الطلق تتلوى كالثعبان إنما هي ستخم قرينة ابن آسا ، وكانت قد وضعت الجنين قبل وصولى اليها بدقائق . غير أنى رأيت فى حالتها ما ينذر بالخطر فأنفذت الخدم فى الحال ومعهم محفة كنت رأيتها بجوار الباب لاستدعاء أحد الاطباء من بيت سيتى .

وفى غيابهم جميعاً قالت لى خادم من غاشية السيدة أن مولاها الموهار والد الغلام فى ميدان الحرب وان جده الشريف اسا وعد بالحضور الى المقبرة وهو لا بد واصل اليها بعد فترة من الزمن وان لم ينته اليه بعد نبأ الوضع . وكانت ترمي بهذا القول الى الاستئذان منى في الخروج للقائه ، فأذنت لها ولما ألفيت نفسي وحيدة غسلت جسم الطفل وأخذت أقبله بشغف كأنه والدى ، ثم سمعت وقع أقدام على أحجار الوادى فمرت بخاطرى ذكرى ساعة النزع التى رأيت الموت فيها رأي العين . وكنت انتظر أن يقبلنى آسا القبلة الاخيرة ولكنه بدلا منها

أرسل اليّ من المال ما كنت عنه فى غنى ، فتولانى من ذلك غيظ وامتلأ صدرى حقداً وميلا الى الانتقام حتى أصبحت كمن مسها خبل ، ولم أدر كيف استطعت أن أعطي خادمتى المولود حفيد آسا ، وان آمرها بالذهاب فورا الى المغارة . ووضعت فى حجرى ولد البستاني الذى كنت أحمله فى طيات ثيابي البالية . وقد خيل لى عندئذ أن الدقائق تمر كالساعات لشغفى باستطلاع محيا آسا ، فلما أقبل رأيت بالرغم من بياض فوديه أنه ما زال باسم الثغر حلو الشمائل فقدمت اليه ولد البستاني وأنا أشعر بقلبي وقد سكنته الشياطين والجن والمردة .

أما هو فأطال فى الغلام النظر ثم أعاده اليّ دون أن يعرفنى أو يستبطن حقيقة أمرى ، وأبرز لى من جيبه بعد ذلك ملء كفه ذهباً فتقبلته منه دون أن أفوه بكلمة واحدة ، ثم انصرفت . وكان كهان بيت سيتى قد توارد وا منه تباعاً ، فسمعتهم ينشدون الاناشيد يضرعون فيها الى الآلهة أن يكون طالع الوليد الجديد سعيداً ومستقبله فى أوج السماء . فلما عدت الى المغارة اغربت فى الضحك حتى اساقطت الدموع من عينى . ولم يكن ذلك لابتهاج فؤادى الواله الى حدّ أنه من كثرة ما قد سرنى ابكانى وإنما لاسباب ، لا تخفى على اللبيب الفطن .

وبعد أيام سلمت الى البستاني حفيد آسا قائلة له أننى قد نجحت فى إزالة إصبعه الزائد . وكنت ، لخدعه وذرّ الرماد فى عينيه ، قد عنيت بخدش أصبعه وتضميده . وعلى هذا المثال شب ابن الموهار وحفيد آسا وترعرع فى أسرة البستانى الوضيعة كما تربى ابن هذا الرجل الحقير

فى اسرة ذاك . ولقد تلقي بنطاؤر العلوم فى بيت سيتى واشتهر فيها بالفوق على أقرانه . . وبعد أفلا ترى قرائن الشبه متوافرة بينه وآسا وأن بمقدارها تجد أسباب التباين واضحة بين بعاكر ذى الستة الاصابع وجده الشريف المزعوم ؟ . .

أصغى آنى الى العجوز وكأن على رأسه الطير . واذ كان الانسان مجبولا بفطرته على اصطناع من يحسن اليه أولا يفشى له سرا أو يساعده على انجاح مشروع فان آنى لم تحدثه نفسه قط بعقاب الساحرة على هذه الجناية ، كلا ولا بتوبيخها على سوء فعلها ، بل طفق يطيل التأمل فيما كانت عليه من جمال رائع وصوت رخيم ، وفى أنها فتنت بحبها شبان ذلك العصر . ثم قارن بين خلالها فى ريعان شبابها وبينها الآن فشبهها بالزهرة الزاهية وقد ذبلت وذوت وبالقناة وقد احدودبت . لهذا قال لها : يا بيكى ! لك أن تعيشي فى أمان حتى ترحلى من هذا العالم الفانى وانى لأعدك عدة صادقه بتحنيط جثتك اذا مت ، وانما أرى أن قد اصبح جديرا بك ترك السحر والعيش بما عندك من المال فى أرغد حال وأهنأ بال . وإذا كان المال ينقصك فخبرينى بما تحتاجين اليه منه وأنا لا أضن عليك به ، ولست أخشى أن أتحفك بشىء من الذهب واذا أكن علمت من كلامك ان الذهب يثير كامن الحقد فى صدرك . قالت : ربما احتجت يوما الى مالك ولكن دعنى الآن أذهب الى حال سبيلى . ثم اتجهت مهرولة نحو الباب فاستوقفها آنى ليسألها اذا كان آسا هو والد نيمو قزم راتوتى فضحكت ظهرا الى بطن وقالت : ألمحت فى هذا

القزم مشية آسا أو ملامح بيكى ؟.. حقيقة أمره انى ربيته ككثيرين من أمثاله. قال آنى : لقد أنست منه حيلة واسعة وذكاء مفرطا. قالت : لاعجب فأنه من أقدر الرجال على حسن التدبير وجودة التفكير. وقد امتاز بشدة اخلاصه لراتوتى، وهو خير من يعاونك على نيل مقاصدك لأن له هو أيضا مقاصد يسعى اليها. سأل : وما هي هذه المقاصد. أجابت : اذا اصبحت راتوتي قوية بعضدك ومثرية ببماكر فلن يعترض الموهار مانع عن الرحيل للفتك بمينا وترميل زوجته نيفرت. قال : أرى أنك واقفة على أسرار كثيرة تدعونى الى توجيه سؤال آخر اليك.. أصحيح أن هناك ماء سحريا يذكى فى شاربه نار الحب ؟ اجابت : سأقفك على الحقيقه لتفى لى بوعدك.. نادراً ما يؤثر الماء السحري فى شاربيه بقدر ما يؤثر فى النساء الخالية قلوبهن من الهوى ، فأنت اذا قدمته الى فتاة فاتنة تهوى فتى جميلا وشربته هامت به. سأل : أعندك حيلة للمرء يستطيع الخلاص بها من غائب ؟ اجابت : كيف لا !.. يكفي لذلك أن يسعى الوضعاء والافناء بالنميمة في حقهم ويشهروا بسيرتهم. والظاهر لى من أسئلتك أن ما رويته عليك من الحوادث لم ينبه في قلبك عاطفة الرحمة فاننى استخلص منها شدة كراهيتك لبنطاؤر.. لم أراك تضحك.. ان ذكرى هذا الشاب ما برحت متمثلة لخاطرى لأنى بشطارتى حرمته ميراث ابيه.. ان جمال صورته وعزة نفسه يصوران لعيني تمثال آسا ، فلا عجب أن اشعر في نفسى بعاطفة تدفعني الى حبه كما أحببت جده وهو أمر من

الغرابة بمكان ولكن لا عجب ولا دهش اذا قيس هذا الشعور بما اشهده من السيدات السيئات الحظ اللائى يفدن زرافات ووشتى على مغارتى لالتماس معونتى . انى أراهن على شغف عظيم بمن تنحوا عن ودادهن وهجروهن الهجر المتلف . وما اشبهنا معشر النسوة بعضنا ببعض فى أمور كثيرة . ومع هذا فلست راغبة فى حب حفيد آسا وليس لى أن أحبه وانما ينبغى لى أن أعمل على ايصال الاذى اليه بيد خصومه .. نعم ان آسا مات وأصبح من الرفات ، ولكن نار اساءته الي مابرحت متقدة فى جوانحى وهى لاتخمد الا بخمود حياتى ، فليكن إذن ما قدر فى سابق الازل لبنطاؤر من الشقاء والتعاسة .. واذا كنت تريد به سوءاً فما عليك الا الاتفاق مع نيمو الذي يضمر له الحقد . فاذا استعملته فى هذا الغرض ، فان عمله سيكون بلا ريب اكبر أثرا من سحرى وطلسماتى ومياهى السحرية .. وبعد فأننى ارجو منك أن تأذن لى فى الانصراف .

انقضت ساعات على انصراف نيخت من حضرة الوالى فاذا برسول أميني يمثل بين يديه ليدعوه الى تناول الطعام على مائدته ، فلما ذهب اليه آنى سأله : أتدرى من هى الساحرة نيخت ؟ أجاب أمينى : كيف لا ، انما هي بيكي فاتنة شبان طيبة بجمالها وساحرة عقولهم برقة صوتها . . وهل لى أن ألم بما قالته لك ؟ فرأي آنى أن من الاوفق له ألا يكاشف أمينى بسر ولادة بنطاؤر ولهذا تردد فى اجابته الى طلبه . وإذ كان أمينى داهية دلكته الحوادث وحنكته العبر فقد استأذن

من حليفه ان يوافيه هو بمجمل الاسرار التى أفضت اليه بها ثم اخذ يسرد عليه ما دار بينه والعجوز متعمدا التغيير والتبديل فى بعض الحوادث حتى لا يداخل الوالى انه كان فى مخبأ يتسمع لهما . وما استقرت الرواية فى سمعه حتى تظاهر بالدهشة ووافق على ما ارتآه الكاهن الاعظم من وجوب كتمان أصل بنطاؤر وانكاره عليه . قال أمينى : ان بنطاؤر ذو قريحة وقادة وفكرة نقاده واخشى أن يدبر لنا المكايد وينصب المصايد إذا نحن لم نكاشفه بحقيقة أصله .

وكانت العواصف فى خلال هذه المحادثة هدأت والسحب انقشعت وصفا أديم السماء وبرد الجو ، ولكن الحرارة لم تلبث ان انتشرت فيه رويدا رويدا بطلوع الشمس على الافق . وما غادر الناس مراقدهم لممارسة اعمالهم حتى رأوا وجه الارض مجللا بما اقتلعته العواصف من الاشجار والاكواخ خاوية على عروشها والمنازل متهدمة والخيام المضروبة فى حي الاجانب متمزقة ، وطارت مئات السقوف المتخذة من سعف النخل بفعل تلك العاصفة التى لم تصدها قوة الانسان ولم تنفع فيها حيلته .

عاد الوالى والكاهن الاعظم الى طيبة وكان ثانيهما يود ان لو يقف بنفسه على ما أتلفته العواصف فى حديقته فما كاد زورقهما يتوسط النيل حتى اقترب من زورق بعاكر فصوتا به ، فلما التفت اليهما طلب الوالى منه فى رفق وملاطفه أن لا يضن عليه بزيارته والتردد عليه لمشاهدته ومحادثته .

وكانت حديقة الكاهن الاعظم لا تقل انفساح جوانب وحسن تنسيق عن حديقة الموهار ، لا نه ورثها عن أبيه فعني بترتيبها على أجمل نسق . وكان يخيل للناظر أن الدار القائمة بوسطها بين الاشجار الباسقة قصر باذخ وبناء شامخ . وكان من عادته تناول طعام الغداء مع قرينته وهي امرأة ما زالت فى فتاء السن وتوافر الحسن ، ومع بناته الفاتنات بجمالهن . فلما أن وصل الى حديقته وشهد ما لحق بها من أذى العاصفة جلس معهن تحت أرجوحة متخذة من أغصان الشجر وأنشأ يسليهن عن تلك الخسارة الفادحة ويعدهن باصلاح ما سقط على الارض بقوة الريح من اقفاص الحمائم وأن يجعلها امتن وأحسن مما كانت ، ثم انتقل من التسلية والوعد الى المزح والتملح ، لا نه كان مع ظهوره ببيت سيتى فى مظهر الرئيس الشديد الوطأة لين العريكة فى بيته متواضعاً فكان لزوجته القرين الموافق ولبناته الوالد الحنون يشاركهن فى سرورهن ويقتدى بهن فى محبة ازهارهن وطيورهن .

ولما تناول الطعام وغادر المائدة يحيط به بناته دخل أحد الخدم يعلن وصول السيدة ستخم والدة بعاكر . فأمره أمينى : ارشدها الى مكان سيدتك . غير أن الخادم الذى كان يخفى فى كفه الهدية الثمينة التى اتحفته بها ظل واقفاً فى مكانه قائلا انها إنما تريد مقابلة الكاهن الاعظم لمحادثته فى أمر خطير . قال أمينى مغضباً : ألا يتاح لى التمتع بالراحة ولو ساعة من الزمن ؟ الأحسن ان سيدتك تستقبل ستخم وان تبقى معها حتى استطيع مقابلتها بنفسى . . ألم يكن المعقول يا أولادى ان اخصكم

بهذه الساعة أنتم والدجاج والبط والحمام ؟

فلم يجاوبه أولاده بغير التعلق برقبته والاستمساك بذيول أمساحه ثم انصرفوا يتوثبون ويطفرون مبتهجين . وقد مضت وهو بينهم على هذه الحال ساعة طلب بعدها اليه السيدة فجيء بها الى الحديقه فأنشأت تقص عليه ما نالت الاحزان والهموم منها ، وكانت عيناه أثناء الحديث تترقرقان بالدموع ومما قالته له : أنت المرشد الروحانى لولدى وفلذة كبدى ، وغير خاف عليّ مقدار ما يقدمه للآلهة من القرابين اثباتا لاحترامه اياهم ، الا أنه لا يصغي لنصائحي ولا يحترمنى احترام الولد البار لوالديه . وظهر لى أخيراً أنه يضمر النيات الخبيثة والمقاصد السيئة ، فاذا لم تتهدده بغضب الآلهة عليه فلا خلاص لمينا من بين يديه وربما . . وربما . . قال أميني : وربما اعتدى على الملك .. انى عليم بموضوع شكواك ولسوف أحدثه فيها . قالت وقد تناولت طرف ثوبه لتقبله شكراً وامتنانا : أشكرلك صنيعتك معى ما دمت على قيد الحياة ولا تنس أنك على أثر ميلاد هذا الولد قد بشرت والده بحسن طالعه ويمن نقيبته وأنه سيكون زينة أسرته وفخر قومه ، والا فهل قدرت الآلهة عليّ أن أخسره فى الدنيا والاخرى بعصيانه أمرى ومروقه عن طاعتى ؟

قال أميني : مابشرت به المرحوم قرينك من حسن طالع ولدك ويمن نقيبته متحقق لامحالة ، لأن للآلهة فى تحقيق الآمال سبيلا غير سبيل الرجال . قالت ستخم : فلتكن كلماتك هذه بردا وسلاما على قلبي المفعم بالحزن مما نابنى من ولدى . ولقد كنت مترددة فى الحضور

اليك لعرض شكواي عليك ولهذا لم أبح لك بكل ماحصل . . فقد سقطت الادقال العالية التى جلبها من جبال لبنان البعيدة لتخفق الاعلام باطرافها أمام داره وألقتها العواصف على الارض بعد أن اقتلعتها من مغارسها . قال امينى : صبرا صبرا ياسيدتى فلسوف يطمئن قلبك وينشرح صدرك ولا بد لولدك ان يذعن لارادتك كما اذعنت تلك الادقال لقوة العواصف . قالت ستخم : شكرا لك ولكن عندى سرا اريد مكاشفتك به . . أعرف انني ضيعت عليك شطراً ليس بالقليل من نفيس وقتك، وهل انفس عندك من الوقت تقضيه بين افراد اسرتك ؟ ولقد سمعتك تقول يوما لزوجى المرحوم أنك كلما جئت الى طيبة تشعر فى نفسك برضاء يسرى عنها الهم ويجلى الكرب وتكون اشبه بالجواد الكريم يخلى من سرجه ولجامه ويرخى لبه ثم يطلق سراحه فى المروج الزمردية والسهول المترامية الاطراف فيمرح كما يشاء . ولكنني اسالك أن تصغي الى حديثي فقد رأيت فيما يرى النائم مايوجب الدهشة ويقضي بالعجب .

ذلك أن بعاكر لما أبى العمل بنصيحتى وولى عنى بكتفه عدت الى حجرتى فأخذتنى عند طلوع الشمس سنة من النوم رأيت فيها بنطاؤر خطيب الاعياد الذى خلب العقول بذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وانه من توافر الشبه بزوجى المرحوم بما يخيله للناظر قريبا لا غريبا، ثم رأيت بعاكر يتقدم نحوه ويمتهنه ويسفهه ويفحش فى حقه ويستطيل فى عرضه . وكان فى توثبه عليه يحاول إلحاق الاذى به ، فلما تبين بنطاؤر منه هذه

النية بسط يده للدعاء كما فعل يوم الاحتفال ، ولكنه إنما بسطها ليأخذ بتلابيب ولدى وليجره الى منازلته . وقد تم له ما أراد اذ تنازل الاثنان فخيل لى أن بعاكر قد تدخل جسمه بعضه فى بعض حتى تبدل من صورته الانسانية المقوّمة بكتلة لا وصف لها ولا كيفية ، وأن هذه الكتلة سقطت على قدمي بنطاؤر ، وتبين عند فحصها أنها لم تكن الا قطعة صلصال كالذى تتخذ منه الآنية سواء .

قال أمينى : غريبة فى بابها هذه الرؤيا ! على أننى ما زلت ابشرك انها فأل خير وعنوان سعادة ، لان الصلصال بمرونته يتشكل بجميع الاشكال وفى تحوله اليه حكمة خفية اراد الآلهة بها إفهامك انهم يعوضونك من بعاكر خيراً منه صورة ونفساً وعقلا . ولست أدرى على وجه التحقيق كيف يتم ذلك كله ، ولهذا أرى أنه لا بأس من مواصلة الدعاء بالدعاء والصلاة بالصلاة واهداء القرابين مع الاتكال على احكم الحاكمين . وهناك نصيحة أخرى لن أضن عليك بها وهى أن تقابلى بعاكر ، كلما لقيك ، بوجه باش وصدر رحب فاذا أقام على عناده القديم فلا تدعيه يدنو منك والفظيه كما تلفظ النواة .

وما ختم الكاهن الاعظم نصحه حتى همت ستخم بالانصراف مطمئنة القلب مرتاحة الضمير . وكان أمينى يناجى نفسه ساعة انصرافه : لست فى ريب من أن هذه المرأة ستجزى خيراً على صبرها وآلام نفسها فقد أمرّ عيشها وأطال ليلها سلوك ذلك الشاب الحقير . ولكن استنقاذها منه فى المستقبل لن يحول دون امكان جعله آلة لتنفيذ

مقاصدنا ، ولطالما شككت فى صحة الاحلام ولكن لم تحدثنى نفسى يوما بأن المستقبل سيميط عن هذا السر العجيب اللثام . . ولعل قلوب الامهات تحس ما يقع فى المستقبل من الحادثات .

ما بلغت ستخم الى دارها حتى التقت ببعاكر يسوق عجلته عند بابها فلم تحفل به ولم يعن هو بها ، ولا يعلم الا الآلهة مقدار ما شعر به كلاهما نحو الآخر حين تلاقيا من انقباض الصدر وا كتئاب النفس . . وفى المساء التقى بعاكر بالوالى للتفاوض ثم قصد بيت سيتى ليطلب الى الكاهن الاعظم أن يبارك فى مشروعه ويدعو له بالتوفيق ، ثم وضع القرابين الكثيرة على قبر والده . وعلى أثر عودته أخذ يعد معدات السفر الى الديار السورية فلما هم بالركوب فى مركبته وافاه الخدم بنبأ القبض على الخواص المتهم بقطع الاذقال فأمرهم بأن يسملوا عينيه عقابا له على فعلته وكان هذا آخر ما أصدره من الاوامر والاحكام قبل رحيله الى بلاد الشام .

ابتعد بعاكر رويداً رويداً ، ولم تكن ستخم وجهت اليه كلمة وداع أو ايماءة تدل على رضائها عنه ، الا ان هذا الصدود لم يمنعها من الابتهال للآلهة ان يلينوا من قسوة قلبه الجلمودى ويقوه شر الوقوع فى الخطايا والآثام . وما تحرك قلبها بهذه العاطفة الا لأن الامهات فطرن على الرحمة بالاولاد والمفاخرة بهم فى كل محفل وناد .

الفصل السادس

تدريب الامراء على الاعمال كي يكونوا للغير خير مثال

مضت أيام ثلاثة على رحيل بعاكر الى الشام كان المصنع الذى انشأته بنت أنات يدوى فى خلالها بهمس العاملات كما تدوى الخلية بطنين النحل . وكانت الاميرة ونيفرت قضتا ليلة العاصفة أى الليلة التالية ليوم تنكرهما لشهود الاحتفال دون أن يأخذ الكرى بماقد أجفانهما . فلما تنفس الصبح رجت نيفرت من الاميرة أن تأذن لها بقضاء النهار فى التماس الراحة من عناء الحوادث الاخيرة، فرفضت الاميرة طلبها قائلة : الاليق بنا يا صديقتى أن ننفض عن انفسنا غبار الخوف وأن نوجه افكارنا شطر غاية أخرى . اما سمعت قول العقلاء « لا تؤجل الى الغد ما يمكنك أن تعمله اليوم » فاقتنى اذن اثرى بجلد واطمئنان . . ولكن هاء نذه اشعر برعدة تهز اركان جسمي كما لو كان الوحش بعاكر قد اهوي بيده على كتفى فلوثتها بدنسها .

اذعنت نيفرت لامر صديقتها فقضت معها اليوم الاول وقد عانت فيه تعبا ممضا وتولاها يأس مضجر . فلما كان اليوم التالى أنست من نفسها الميل الى ملازمة الاميرة والاغتباط بصحبتها . ولم يسعها فى اليوم الثالث الا ان تعترف بما احرزته من براعة فى العمل وأنسته في نفسها من ميل الى مجاراة غيرها فى اتقانه . وهذا شأن الانسان فى

ممارسة الاعمال ، كلما اتجهت عزيمته وخلصت نيته فى انجازها ازداد شغفاً بها . وما عليه الا ان يجلد ويصبر بادىء الامر على قمع نزعاته التى تصده عن مزاولتها ، فمتى تمكن من صدها حلا له العمل وانكب عليه من غير سأم ولا ملل .

ولقد أحسنت بنت انات اذ فوضت الى صديقتها الرقابة على طائفة من العاملات ، ومنهن فتيات صغيرات مات عنهن آباؤهن وأيامى قتل فى مواطن الحرب ازواجهن ولقطاء ولقيطات وبائسون وبائسات خانهم الدهر ورشقهم بسهام الغدر واوقعهم فى مخالب الفقر ، لان هذا العمل كان مما يوافق ميولها ويطابق رغائبها .

وكان عمل تلك العاملات مقتصراً على فرز النباتات الطبية . وكن يجلسن على الثرى متربعات حلقات بدوائرها متلامسات ، بوسطها تلك النباتات مابين رطبة ويابسات . وكان يرشدهن الى كيفية فرزها وترتيبها طبيب من ذوى الاسنان لا يكف عن التنقل من حلقة الى حلقة حاثا مرشدا ، وكانت نيفرت تحب الازهار حبها للاطفال فوجدت من العمل الذى ناطته بها بنت أنات خير فرصة للبحث فى تلك الازهار ودرس خصياتها وحث أولئك الاطفال على مواصلة العمل ، وصرفت نحو هاتين الغايتين همها فتمكنت فى الزمن القصير من التمييز بين المجتهد والكسول ، تعد ذاك بالمكافأة وتحث هذا على الاقتداء به .

ورأت اثناء هذه المراقبة طفلة عارية البدن نجلاء العينين فاتجهت صوبها وسألتها : ماذا تصنعين أيتها الفتاة ، ألا تدرين أنك بخلط هذه

النباتاب بعضها ببعض تسببين الهلاك لمن يعالجون بها ؟ أي مصاب أجل وخطر أفـدح من أن يصاب أبوك بجرح فى ميدان القتال فاذا وضع عليه بدلا من النبات النافع الناجع نبات ضار ورد شر الموارد وساء مصيراً .

فلما سمعت الفتاة هـذا العتاب علا وجهها الاحمرار واومأت برأسها ايماءة الامتثال لامرها والعمل بنصحها واستأنفت عملها بيقظة والتفات . عندئذ انصرفت نيفرت عنها قاصدة الى فتاة أخرى بدت عليها علامات التوانى والكسل ، فقالت لها : أنت كثيرة الهذر ! أنسيت والدك الذى ينازل الاعداء فى ساحة الوغى معرضا جسمه لطعنات الرماح وقاتل الجراح ! .. ماذا يكون مصيره ان لم يجد الطبيب على مقربة منه يسعفه بالدواء أو ماذا يقول هذا الوالد التعس ان رآك فى حلمه مخلدة الى السكون واضعة يديك على ركبتيك . . ألا يقول ان ابنتى لاتحبنى ولاتحترمنى لأنى أراها قاعدة لاتزاول عملا فى حين يجب عليها الاجتهاد فى اعداد الدواء الذى يترتب عليه خلاص والدها المريض من مخالب الموت .

ثم تراجعت الى مكان حلقة كبيرة من الفتيات فقالت لهن . . أتدرين أيتها الفتيات اين تنمو هذه النباتات ؟ . . لعلكن تجاوبنى بلا ، اذن انبئكن بأصلها . . خرج هوروس الطيب يوما لمحاربة سيت الخبيث فلما احتدمت بينهما نار القتال تمكن هذا الشيطان المريد من

إيذائه اذ فقأله احدى عينيه [١]، ولكن الظفر كان فى النهاية لهوروس لانه لابد من انتصار الخير على الشر وان طال الامد. ولما رأت إيزيس أن الدائرة دارت على ابنها العزيز تلقته بين ذراعيها واسندت رأسه الى صدرها [٢] وشعرت بما يشعر عامة البشر به من الحزن وانقباض الرجاء. وقد تأكد لها انه يتعذر بل يستحيل تعويض تلك الخسارة فتساطرت الدموع من عينيها وكانت تنحدر على الارض فينبت فى مسقط كل قطرة منها نبات من النباتات التى بأيديكن [٣].

فقالت احدى الفتيات: ان ايزيس تحب الخير، وقد ذكرت لى والدتى أنها تحب الاطفال الطائعين. قالت نيفرت: ماذكرته لك والدتك حق لامراء فيه فان لأيزيس ولدا شغفت به حباً وهو هوروس الصغير. وغير خاف ان الانسان اذا تحلى فى حياته بالفضائل عاد بعد وفاته طفلا صغيراً فتتبناه ايزيس وتعزه وتكرمه وتمده بمساعدتها وتشمله برعايتها حتى يشب ويترعرع ويصبح قادرا على القتال انتقاما لأبيه.

ورأت اثناء كلامها امرأة أثرت فى نفسها هذه الرواية بما حملها على

---

(١) هذه الحقيقة التاريخية مستخرجة من كتاب الاموات

(٢) يؤخذ مما جاء فى مقدمة اوراق البردى المعزوة الى الدكتور ايبرس مؤلف هذه الرواية ومما ورد فى كتاب الاموات أن ايزيس عالجت عين ابنها هوروس فاعادتها كما كانت

(٣) يسند المصريون الى دم آلهتهم ودموعها مزايا الخصب. وقد استقصى هذا البحث المسيو (لوفيبورد) فى كتابه تحت عنوان « عينا هوروس » ونشر (نافيل) كتابا فى مدائح را أو رع سمى الاله فيه (ريمى) ومعناه الباكى. ويوجد فى الكتابات المنقوشة على قبر سيتى الاول مع الصور الممثلة للذريات الاربع التى يتفرع منها افراد الجنس البشرى مانرجمته « انتم دموع عينى » الخ

البكاء فدنت منها وسألتها عن أمور أجابت عليها بما يفيد أنها فقدت زوجها ثم ابنها الاول فى حرب الشام فالثانى عقب عودته الى مصر . قالت نيفرت : ما أسوأ حظك أيتها المرأة . . ولكن الواجب عليك التسلى عن فقدهما بالعمل لعلاج الجنود الجرحى . . أتدرين ما فعلت ايزيس ؟ كانت ايزيس تحب زوجها أوزيريس كما كنت تحبين زوجك الذى رماك الزمان بفقده وكما أحب قرينى مينا وأتفانى فى الاخلاص له والمحافظة على عهده ، فلما وقع أوزيريس فى الشرك الذى نصبه له سيت اللعين حارت إيزيس فى أمرها وضاقت عليها المذاهب ، لأنها كانت تجهل المكان الذى احتوى جثة قرينها العزيز . فهي قد ذاقت اذن من العذاب أضعاف ما تذوقينه ، ذلك لان قبر زوجك موجود تستطيعين زيارته متى اردت . أما هي فلا ، لأنها لم تهتد الى مكانه فأخذت تخترق البلاد وتجوب الآفاق باكية نادبة حتى خشي على مصر أن يصيبها الجدب المهلك . ولما كان أوزيريس المودع لعناصر الخصوبة بين ذرات تربتها ، فقد كاد النيل يجف وتذوى الاشجار واشتد اليأس وعزت الحيلة ، غير أن دموع ايزيس سقطت فى مجرى النهر فارتفعت فيه المياه حتي بلغت ضفتيه . ومن ذلك العهد الى الآن صارت النقطة الواحدة من دموعها تكفى لأفاضة النيل فى كل عام بالبركة الوفيرة والخير العام

وكانت المسكينة تصغى الى حديث نيفرت ، فلما جاءت هذه على آخره قالت : لقد ترك ولدى بموته أربعة اطفال فكفلتهم ، لأن أمهم وهي تحترف بغسل الثياب للناس التهمها التمساح وهى تمارس حرفتها على

شاطىء النيل وكان لا ينبغى لمثلى ان يعنى بشأن الغير وهو عاجز عن العناية بشأن نفسه ولا أن أرثى لمصاب غيري اذا كانت المصائب محدقة بى . . وهل تظنين اننا في هذا البيت كنا نشتغل ونقضى معظم الوقت فى العمل لفائدة الجرحي ، لو لم تغدق علينا الاميرة بنت أنات جزيل الاحسان ووافر الصدقات . . انه لما يضاعف الاحزان ويثير الاشجان ان يتولانى الضعف والاضمحلال فلا أعود قادرة على تربية اربعة من الاطفال .

ارتاعت نيفرت لسماع هذا القول الذى ماطرق مثله سمعها الامنذ ثلاثة ايام فلم يسمها ، وهى عاجزة عن مؤاساة تلك المرأة المسكينة بعبارات العطف والرفق ، الا ان قصدت بنت أنات ورجت منها أن تزيد مرتبها من فيض مكارمها . فلما شهدت الاميرة جزعها هدأت روعها قائلة : هل لى ان ارفض رجاك ولا اقدر مسعاك وأنت الوزر والعون لى على عملى ؟ . . تعالى معى الآن لتفقد أحوال الطاهيات فقد أمرتهن بانضاج بعض الثمار والفاكهة وحفظها فى العلب ليتذوقها والدى واخوتى ، وسأرسل الى قرينك مينا حصته منها . فرافقتها نيفرت الى المطبخ حيث رأت الطاهيات يرتبن الثمار الذهبية اللون المجلوبة من واحة آمون (١) فى علب يحكمن اقفالها ويضعن الثمار المستوردة من النوبة فى أوعية أخر برسم الملك رعمسيس ، لتفضيله إياها على غيرها . قالت : دعينى أضع هذه الثمار فى الاوعية الخاصة بها . ثم أخذت ترتبها

(١) هى واحة سيوة

فيها ، يتخللها فواكه اخرى مختلفة الوانها ، فكانت كل طبقة منسقه على شكل جميل يروق العين مرآه . وكانت بنت أنات ترمق الطبقات على مختلف نسقها بعين السرور والارتياح . فلما أتمت نيفرت عملها صافحتها الاميرة قائلة : مالمست هذه الاصابع شيئاً الا وجعلته جميلا ومحبوباً مثلها . ثم تناولت الورقة التى تلصق على الوعاء للدلالة على مافيه وكتبت عليها « رتبته ونمقته قرينة مينا العريقة فى الحسب ورفيقة بنت انات »

وبعد الغداء وصل الى القصر لفيف من الناس سألوا عن الاميرة فبرزت لمقابلتهم ، ولزمت نيفرت العاملات الى أن آذنت الشمس بالمغيب ، وهمت هذه النسوة بالانصراف فأستوقفتهم نيفرت وقالت لهن : أن زورق الشمس يغيب وراء حجب الجبال الشرقية فلنبتهل الى الآلهة أن يحفظوا حياة الملك ويوقوا الغائبين عناشر العناء والهموم ، ولتفكر كل منكن فى أقربائها وذويها المحاربين فى مواطن القتال . وأنتم أيها الاطفال أذكروا آباءكم بالخير وادعوا لهم بالنجاح والفوز . وأنتن جماعة النسوة اذكرن ازواجكن ، ولنسأل آمون أن يعيدهم الينا سالمين كما تعود الشمس بعد غروبها الى الشروق ، ثم جثت على ركبتيها فاقتدى بها الاطفال والنسوة . ولما نهض الجميع تقدمت اليها فتاة فجذبتها من أطراف ثوبها وقالت : بالامس قد أجلستنى على ركبتى وشهدت اليوم أن صحة والدتى قد تحسنت فهل سبب هذا التحسن اننى دعوت لها بالشفاء ؟ فربتت نيفرت بيدها شعرها الاسود وقالت :

أجل ، أن سبب شفائها دعاؤك لها . ثم انصرفت للبحث عن بنت أنات فرأتها متكئة على حاجز الشرفة ناظرة الى طيبة الاموات التى كان الظلام ينسدل عليها شيئاً فشيئاً ، وماشعرت بوقع اقدام نيفرت حتى انتفض جسمها لانها كانت سابحة فى تيار الافكار . فلما رأت نيفرت ذلك تراجعت الى الوراء قائلة : لعلى كدرت صفوك واقلقت راحتك . اجابت بنت انات : كلا ياعزيزتي انى اشكر الآلهة أن ساقوك الى هذا المكان لا نس بك وأسرى عن نفسي الهموم والاحزان بمخالطتك . قالت نيفرت بصوت خافت : تبينت الآن بواعث اشجانك واحزانك ، انك مازلت تذكرين بنطاؤر . قالت : حقاً انى دائمة التفكير فيه ولذا أصبح فؤادى ملتقى هواجس وميول وعواطف لو انتزعت منه لكف عن الخفقان وكان نصيبي من هذه الحياة الحرمان . يروون عنى انني انتهكت حرمة العادات وخرقت سياج الآداب ويتهددوننى بعقوبة ربما صرفتك عن مصاحبتى ، إذ لا أشق منها على مثلى فتكون النتيجة حرمانى لطف معاشرتك والأنس بك . قالت نيفرت : اني قسيمتك فى الضراء كما انا شريكتك فى السراء . وما الذى يتهددونك به ويفرضونه عليك وانت كريمة مليك هذه البلاد والمتصرف فى رقاب العباد ؟ اجابت : برزت للانظار كأحدى بنات الشعب وكان هذا من فساد الرأى ولا بد من الرضاء بعاقبته .. دار بينى وكبير كهنة هيكل آمون حديث تأكدلى منه فضله وثبت عندى علمه ونبله ، واطلعت من خلاله على أنه من ذوى البر ، فعقدت النية على العمل بنصائحه ، لاسيما وان

والدى كان قبل رحيله الى مواطن القتال قد وصانى بالخضوع لامره والعمل باشارته . ومما شرحه لى وايقنت معه عظيم ذنبى اننى دخلت أحد هياكل طيبة الاموات ملوثة بالدنس ثم عدت فدخلت بيت بينم المحنط رغم تعزير الكاهن الاعظم إياي لدخولى فيه المرة الاولى . وقد اخبرنى أن جماعة الكهان قد انتهت اليهم تفاصيل ماوقع لنا من الحوادث يوم الاحتفال وما كان من تنكرنا واخفائنا على الناس حقيقة امرنا . . افبعد هذا كله استطيع الامتناع عن التطهر ؟ ألا ترين أنه لم يبق أمامي سوى أحدى سبيلين ، اما التماس الصفح من أمينى بعد الاقرار بالذنب امامه فى محفل حافل من الكهان والاعيان واما الحج الى هيكل هاتور الزمردية (١) الهة المعادن المطهرة ، فمددها هو الفاصل بين الحق والباطل وسرها وسيلة الطهر من الدنس . وهيكل هذه الألهة الذى يقوم كهانه بتطهير الاداس على مسيرة يوم من المناجم ، والى جانبه مسيل ينحدر الماء اليه من جبل سيناء المقدس كما يقول المانتو (٢) وهي شقة بعيدة يقاسى المسافر فيها العناء ويتكبد اهوال الصحارى والقفار . وقد شرح لى كاهن آمون ضرورة الرضاء باحتمال المشاق وأوصانى بالغنى عن استشارة أمينى فى امر ما حتى اتقى أذاه وهاءنذه أرانى مضطرة الآن الى العمل بنصيحته لاسيما بعد أن افتضح امرى وخيف أن يقتدى بى فيه

(١) كانت هاتور الهة المعادن والاحجار الكريمة وكانت تلقب بهاتور المفكات والمفكات نوع من حجر اخضر ولعله محرف من مسكات الذى معناه بالسان المصرى القديم الزمرد أو الزجاج الملون بالاخضر . ويوجد فى القصر اليابانى بمدينة درسدن فى المانيا صوره الاله بتاح مصنوعا من هذا الحجر

(٢) سكان جبال سينا

غيرى . . ان الكهان لسان حال الآلهة ، وقد قضى هؤلاء على المدنسين بالتماس الطهر من الذنوب ، لافرق فى ذلك بين كبير وصغير . ومع علمى الآن بصواب هذه الاحكام أرى من الصعب علي نفسى الخضوع لاوامر الكهان . . الست فى الحقيقة ابنة رمسيس ؟ قالت نيفرت : نعم أنت كريمته وهو من الآلهة . . فقاطعتها بنت أنات : علمنى والدى احترام القوانين ولذا ترينى حفيظة عليها محترمة لاحكامها عاملة بنصوصها . . وقد دار بيني وبين الكاهن الاعظم حديث ثان فى موضوع آخر هو الزواج بالوالى آني . فانه غير خاف عليك أنه طلب الاقتران بى فرفضت رفضاً الا ارتاب فى انه من أجله سيبغضنى ، غير اننى اصبحت فى حيرة شديدة لان والدي اختاره وصياً علي ومشيرا لى ، وليس في وسعى الآن الاستمداد بمعونته ولا الاسترشاد بمشورته . وكيف يليق بمثلى الركون اليه فى امر وأنا أميرة ابنة أمير ؟ اننى أفضل ان أجوب الصحراء الف مرة على ان اصم والدى الملك بوصمة العار . . على اننى سأنتظر الى غد لاعتزام أمر ، ولكن لمَ هذا التردد وهذا الارتياب . . لقد عقدت النية على الرحيل وان تكن الشقة طويلة والمصاعب جليلة . فلا تجزعى إذن يا صديقتى ، لا تجزعى فقد عرفتك من رقة الحاشية ونعومة الاعضاء بما لا تستطيعين معه اقتحام الاخطار وتجشم مشاق الاسفار . وقد رغبت . . فقاطعتها نيفرت : ابداً ! ابدا ! لامناص لى من مرافقتك ولو كان السفر الى اعمدة السماء الاربعة (١)

(١) توجد على تمثال تحوتمس الثالث الموجود بالمتحف المصرى هذه الكلمات « أنا آتون

أو أطراف البقاع المسكونة من العالم . وكيف لا أرافقك واليك يرجع فضل وقوفى على أمور كثيرة كان زهدى فى معاشرة الناس سبب جهلى بها وتطورى الآن بطور حياة لم يسبق لى عهد بها . ألست أخاف إن أنا عدت الى والدتى ان تذوى أغصان الافكار التى وضعت غراسها فى قلبى وتعهدت نبتها بمواد النماء من فضل رعايتك وغزير علمك . . ولا يذهبن عليك أن بيت مينا لاينبغى أن يقبض على دفته سوى واحدة منا نحن الاثنتين ، واذا كانت والدتى تريد أن تكون فيه صاحبة الكلمة النافذة والامر المطاع على كل حال فجدير بى الا أعود اليه الا مع أليف حياتى وشقيق روحى مينا .

قالت الاميرة : يبدو لى من قولك انك مصرة على الرحيل ، ولكننى آسفة لغياب والدى فانه لو كان مقيما بين ظهرانينا الآن لفزعت اليه لاستشارته وفضلت العمل بارادته . فتنهدت نيفرت وقالت : اننى لآسفة كذلك ، ولكن هى الحرب لا تعرف أسفاً ولا تفتح صيوان أذنها لشكوى ولا يخفق قلبها لرثاء . ولست أدرى لماذا لا يقنع الرجال بما قسم لهم من الخيرات ولماذا يطمحون دواما الى المزيد منها ويضحون السلام لذلك على مذبح الحرب . قالت بنت انات : لو كانوا على غير ما نلوم منهم لما اجبناهم الى مطالبهم بل لما ملنا اليهم . وهل رأيت منظراً أجمل فى النفس اثراً من بنطاؤر وقد حمل على قوم طاشت احلامهم

انشر امامك الخوف حتى يبلغ الى اعمدة السماء الاربعة » . وكانوا يريدون بهذه الاعمدة النقط الاصلية الاربع أوحدود العالم كما يؤخذ من بعض النصوص

وضاع صوابهم وخاطر بحياته لينقذ روح طفلة بريئة من الذنوب منزهة عن العيوب . قالت نيفرت : لم التفت الى ما وقع أمام بيت المحنط لما تولاني من شديد الجزع ، ولكن لا يزال صدى صوته حينما كان يحمل على أعدائه يرن فى أذنى . قالت بنت انات : هكذا يدوى صراخ الشجعان حينما يتقهقر أمامهم الاعداء ويولون الادبار . ودخل الامير راميرى اثناء الحديث فسمع بعضه فقال : صدقت فهكذا يدوى صراخ الابطال فى الآفاق . فارتعدت فرائص بنت انات لأنها لم تكن رأته اذ كان الليل ارخى سدوله ثم قالت : لقد أزعجتنى والقيت الهلع فى قلبى . قال الامير : كيف يعروك خوف ويملأ قلبك جزع ؟ قالت : كنت فيما سبق لا أخشى امراً ولا أهاب خطراً ولكنني منذ ليلة الاحتفال عرانى من الذهول ما صرت معه اخاف من لا شىء . ولعله أصابنى مس من شيطان أو عدانى بعدوى خلقه جبان . قال راميري : ما دمت صاحبة الامر والنهي فى كل مكان فليس من يطالبك بالطاعة له . هذا وما زلت أراك متأثرة بحوادث ليلة الاحتفال . وانا أيضاً كلما فكرت فيما كان من أمرى مع الكهان وطردهم إياى من المدرسة وتذكرت جرأة بعاكر حينما حرش بنا الكلب نالنى من الغيظ ما حرك فى نفسى حب الانتقام ، ولكن حمداً للآلهة فقد نصرونا عليه فى الختام . سألت بنت انات : وماذا كنت تفعل مذ منعك عمنا آنى من مبارحة القصر ؟ اجاب : لا حاجة بى الى وصي يتولى شؤونى ويهيمن علي فى تصرفاتى ، فنى الشهر المقبل اناهز الثامنة عشرة من عمرى . قالت : ولكن

أنسيت والدك وأنه . . أجاب مقاطعا : ان والدى يجهل دخيلة نفس الوالى فهو غير ملمّ بما يدبره له من الدسائس وينصبه من الشراك . . أما علمت ان أنصاره عاهدوه على الطاعة وحلفوا بالايمان التى لا فسحة فيها ان يكونوا له عونا على تحقيق مراده ، وما مراده فى الحقيقة الا ما يتهامس به بعض مقربيه من طموحه الى عرش الملك ، فهو إذاً عامل على ابرام التدابير المؤدية الى اسقاط والدنا الملك من عرشه . ولعلك تنكرين عليه هذا السعي وتستبعدين ان يفكر مثله فيه ما لم يكن طاف به طائف من الجنون ، ولكن لا تنسى معنى المثل السائر « لا دخان بلا نار »

ما سمعت نيفرت هذا الخبر حتى اصفر وجهها جزعا وسألت الاميرة أخاها أن يوافيها بما عنده من تفاصيله فسرد لها كل ما انتهى اليه من اقوال الناس وآرائهم وما تأكد له فى اثناء تنكره . ثم قال مبتسما : اذا حاول آني أن يسقط والدى مع علوة عرشه فيكون اشبه بنا فيما لو حاولنا أن نستنزل من كبد السماء كوكب إيزيس لنوقد به ما نحن الآن فى حاجة الى الاستضاءة به من المصابيح . قالت نيفرت : أرى فى الظلام الذى نشر جناحيه علينا ما استحسنه . قالت بنت انات : كلا بل لا بد لنا من الضوء اذ لا يستقيم الحديث معى الا اذا استجليت وجه من اخاطبه . ومع انى لست ممن يحفلون بما يدور من الاقاويل على ألسنة العامة فلا بد لى من مكاشفة والدى بها . قال راميري : واغرب هذه الاقاويل ما التقطته من أفواه الناس بمدينة الاموات . قالت الاميرة :

يؤخذ من كلامك أنك أعدت ثانياً اليها بعد مغادرتنا إياها . . ان كنت فعلت فقد أخطأت ولم تأخذ بالروية فى عملك . قال راميرى : نعم فعلت متنكراً وقد وقفت بتنكرى على أخبار يسرك سماعها ، فان وردة الزاهية قد تماثلت للشفاء وهي تقيم الآن فى بيت خاص بها بفضل رعايتك وما اغدقت عليها من نعمتك . وهذا البيت كان خربة مهجورة على مقربة من كوخ جدها الذى أحرقه المتظاهرون . فاستعان والدها ببعض الناس على اقامة جدرانها وتدعيم اركانها . وقد أخافنى منظر هذا الرجل لانه جندى جاف كثيف اللحية بدين الجسم هائل الخلقة ، ليس بين وردة وبينه قرينة شبه . فأذا كانت تشبه الأيكة البيضاء في رقتها ولطف شمائلها فأنه كالقنفذ فى خشونته وقبح سحنته . ولقد عرضت عليها ان تجيء الى قصرك الرفيع العماد لتزاول عملا مما تجزين عليه البنات الفقيرات خير العطايا واجزل الهبات فرفضت معتذرة بحاجتها الى مؤاساة جدتها والقيام على خدمتها ، ولكننى أعلل هذا الرفض بأنه مظهر من مظاهر الأباء وعزة النفس .

فحدقت الاميرة فيه وقالت : أحدس أنك لبثت طويلا بين المدنسين ولم تتعظ بما وقع لى . قال راميرى : لست أرى بعد الكمال الذى بلغت الى أوجه باستقلال فكرك وقوة ارادتك مجالا تنزع اليه همتى وتسمو نحوه نفسى . ان المحنط الذين يقولون انه سبب البلاء وأصل الشقاء قد انتقل من دار الفناء الى دار البقاء ، ولم يبق غير والد وردة ، وهو رجل طاهر من الدنس وعاره . فأى بأس من الاختلاف اليه

واستجلاء اسراره ؟ أما العجوز الشمطاء فقد بذلت في اجتنابها الجهد وبهذا التحرز لا أرى ما يمنع من القصد الى بيته فى الغد . ولقدعاهدت على ذلك ولا بد لى من الوفاء بالعهد . سألت الاميرة : ولمن أعطيت هذا العهد ؟ اجاب : أو تعطى العهود وتضرب الوعود لغير وردة ذات الجمال الرائع ! لقد عهدتها شغوفة بالازهار وفهمت أنها لم تشم لها عرفا منذ الوردة التى تكرمت فأهديتها اليها فى زيارتك الاولى لها . ومن ثم امرت مباشر الحديقة بتنسيق باقة أنيقة سأحملها اليها بنفسى . قالت : أحجم عن هذا الفعل أحجم وعليه لا تقدم، فأنت فتى لا تحسن النظر فى العواقب . وان كنت ممن يحبون لها الخير والنفع فلا تجعل لك بها صلة والا كان لعاقبتها سيء الوقع .

فتربد وجه راميرى وقال : انا الآن في معزل عن الوشاة والرقباء ولهذا أكاشفك بدخيلة نفسى دون ان اهاب أحداً . . ان كنت تريدين منى الطاعة لك فهاء نذا مقرّ لك بها ، بدليل انى اترك عندك باقة الازهار . بيد أن هذا لن يحول دون زيارتى لوردة وتفقدى حالتها . . ان وردة غادة فتانة للعقول بروعة جمالها ورشاقة قدها وورد خدها ، جذابة للقلوب بمحاسنها التى لا يحصيها العدّ . . ولم تقع قط عينى على امرأة تضارعها فى محاسنها ، الا ان يدي نيفرت اللتين تضرب بدقتهما وانفتال اصابعهما الامثال تشبهان قدميها . ولقد دار بينى وبينها الحديث على شؤون كثيرة وتناول حديثنا الشاعر بنطاؤر فخبرتنى أنها تعرف والده مباشر البستان وتلم من أموره بما لا يعلمه انسان . ومما انقله عنها

انها لا تعتقد أن هذا الشاعر ولد البستانى ، وانما هو ملك هبط من سماء الخير والاحسان ، وقد يكون إلها جاء بالبركة والفيض العميم . ولقد كانت فى بدء حديثها يقظة شديدة الحذر والاحتياط فى حياء واحتشام ، ثم انطلقت فى الحديث فما نطقت باسم بنطاؤر حتى انطلق لسانها بتقريظه بما استخلصت منه أنها تحترم هذا الشاعر أو تكاد تعبده . ولقد غاظنى منها ميلها اليه وعطفها عليه . قالت بنت أنات باسمة : إذن ترى نفسك أولى من بنطاؤر باحترامها واعجابها . قال : كلا وانما آنس في نفسى سروراً لا يوصف كلما جلست الى وردة ، ثم انى انظر اليها بوصف انى انقذتها من الهلاك كما أنقذها بنطاؤر . ولقداعتزمت ان انضد الازهار فى شعرها الذى يشبه شعرك غزارة واسترسالا وان اختلف عنه لونا ، فهو اشقر ذهبي اذا مسه الانسان بيده من أصوله الى فروعه احسّ حالا بالغبطة والهناء .

فتبادلت بنت انات ونيفرت عندئذ نظرات لم يفهم معناها سواهما ثم التفتت الاولى الى أخيها قائلة : بنيّ العزيز ! نصحتك ألا تذهب الى طيبة الاموات فلم فعلت ؟ . قال رامسيرى : سأنظر غداً فيما ينبغى أن يكون من اقدام على الزيارة أو احجام عنها . ثم اعقب هذا المزح بالجد فقال : اعلمي ياشقيقتى انى حدثت أنانا أحد رفقتى السابقين بمدرسة سيتى فيما يقع بها من الظلم والحيف ، فقلت له ان بنطاؤر ملقى في السجن وأنه حوكم بالامس فى حضرة عمنا الوالى الذى كان يريد به الاذى والشر ، لولا معارضة الكاهن الاعظم الذى جهر لا ميتى بأنه سيشمل بنطاؤر برعايته

ويسبغ عليه درع حمايته . ومع أن هذه الاخبار بلغت الى علم الطلاب فانهم ما زالوا يجهلون ما تم فى أمر الشاعر . وكل ما اتصل بهم انهم سمعوا أمينى يقول لحاجابو : انه يستحق شديد العقاب، ولكنى لا أسمح لاحد باعدامه . . فالمرجح عندى ان يكون بنطاؤر هو المقصود بهذا القول . واذا كنت عقدت النية على الذهاب غداً الى المقبرة فما هو فى الواقع الا لاستطلاع الحقيقه إذ هل يبعد أن يكون حكم الاعدام أبدل بعقوبة السجن عدة أعوام ؟ . .

ما سمعت بنت انات هذا الكلام حتى امتقع لونها وصاحت : انا سبب ما نزل بهذا المسكين من المحن والمصائب، فيا أيها الآلهة اسعفونى واظفرونى بحاجتى . ثم اعتمدت رأسها وخرجت مهرولة . فقال راميرى لنيفرت : ماذا حصل بشقيقتى ولمَ تغير لونها . . وأنت لم تبدل من حالك ؟ أجابت : تختلف أحوال الانسان باختلاف ظروف الزمان . قال : وما تعنين بهذا الكلام ؟ أجابت : لا تطلب مزيداً من البيان وكل ما اقوله أنك سترى مغبة تلك الظروف اذا بقيت مصراً على زيارة بيت المحنطين والعدول عن نصائح المخلصين .

الفصل السابع

تآمر العواطف على الحب وتأثيرها فى القلب

فى بكرة اليوم التالى جاز القزم نيمو مع رجل عليه رداء قاتم اللون بالخربة التى اتخذتها وردة مسكناً لها مع أهلها . وكانا يقصدان سيراً على الاقدام الى مغارة الساحرة ، فلما وصلا اليها قال القزم : ليتفضل مولاي بالانتظار هنا ريثما اخبر بوصوله والدتى العجوز . قال الرجل : اخبرها ألا تصوت باسمى فانى أحب ألا يخيلنى الناس الا قيما ككثيرين غيرى ، ومع هذا فانا فى غنى عن هذا التحرز اذ لا يستطيع أحد ان يقف من امرى على شيء مادمت متنكراً بهذا الزي . فهرول نيمو الى المغارة ، وقبل ان يلتقي بالعجوز وجهاً لوجه صاحت به قائلة : لا تترك سيدك الشريف وحده خارج المغارة فليس هذا من الادب اللائق فى شيء ، ولست بجاهلة اسمه وان أخفى علىّ رسمه . فرفع نيمو سبابته الى شفته اشارة الأمر بالسكوت وقال بصوت خافت : ان مولاى لا يحب التعريف بنفسه وهو يرغب فى تسميته بالقيم . قالت العجوز : هب أنه كذلك فما هو الا كالنعامة تخفي رأسها تحت جناحها واهمة ان احدا لا يراها . سألها القزم : وهل طالت زيارة الامير لوردة ؟ أجابت ضاحكة : وهل هناك بأس اذا اجتمعا وهما طفلان يمرحان . . ألا يشبه راميرى الحمل الصغير الذى لم ينبت قرناه بعد ، وانما يشعر بالمكان الذى

سيذرّان منه ويودّ ان لو يستطيع الانتفاع بهما ؟ فالاولى بك الالتفات الى من هم أشد بأساً وأصعب مراساً من راميرى كالشاعر بنطاؤر خصمك اللدود ، ولكن دعنا الآن من هذا الحديث فانه مما لا يليق ابقاء القيم على جمر الانتظار .

قالت هذا ودفعت القزم بقوة ساعدها فانطلق مهرولا نحو الباب حيث كان الوالى واقفاً بزي المتنكر ، ثم أخذت الطفل شراعو المسكين الذى كان مثبتاً فى آلة تقصير القامة فألقته بداخل المغارة وغطته بكيس قماش قاتم اللون اخفاء له عن النظر . وبعد هنيهة دخل الوالى فلما رأته العجوز حنت رأسها اجلالا ودعته الى الجلوس على الكرسي الوحيد الذى تملكه فلم يجبها الى هذا الرجاء فألحت عليه أن يجلس قائلة : اجلس من فضلك ولاتخف أن يراك من بطن الوادى أحد ، ثم اخبرنى ماسبب زيارتك اياي فى هذه الساعة ؟ أجاب : أمر جلل أنا منه فى حاجة الى استشارتك والتزود بنصيحتك . ولقد كان فى قدرة الاحراس ، وقد مدّ الليل رواقه ، ان يقبضوا علىّ لولا أنى بهذا الزي تنكرت فلم يعبأوا بى . على انى لبست تحت ثياب التنكر ثيابى العادية كي أتمكن بعد مغادرة هذا المكان من التوجه الى المقبرة لخلع ذلك الزي والتعجيل بالأوبة . وسأعتذر للامة بأنى خرجت لزيارة قبر والدى فى أحقر زي وسائراً على القدمين وفاء بنذر نذرته من قبل . قالت : صنيع حسن وفعل مستحسن . قال: كيف لا وتلميذك نيمو هو الذى دبر تلك الحيل فاصاب فيما فعل ؟

لما قصت العجوز على آنى روايتها التى كشفت له بها عن سر مولد بنطاؤر وسردت له ماسبق هذه الرواية وماتلاها من عجيب الحوادث لم ينظر اليها بوصف كونها تلك العجوز الفقيرة الحقيرة التى قوس الهرم ظهرها، بل باعتبار ما كانت عليه سالفاً من غض الشباب والجمال الفاتن الالباب، وشعرت هي بهذا العطف فبالغت فى احترامه، حتى ان رأسها حينما انحنت امامه كاد يلامس قدميها. وكان بجوارهما غراب استألفته ففزع من منظرها الرهيب ونعق نعيقاً لبث بعده فاغراً فاه، فألقت العجوز اليه بقطعة من الجبن فتوثب الى مكانها لالتقاطها، ساحباً على الارض جناحيه اللذين اثقلهما الضعف اذ لم تكن فيه قدرة على رفعهما والاستعانة بهما فى الحركة والطيران.

أما آنى فقد قال لها: أريد الحديث معك فى شأن بنطاؤر. قالت: ولمَ؟ أجاب: لأنى ارى فى وجوده خطراً يتهددنى بل حائلا دون اصابة الاغراض التى اليها أرمى. ثم انه ارتكب جريمة القتل بالاعتداء على الابرياء، بيد أن كهان هيكل سيتى يبغون اعفاءه من العقاب لمنزلته من نفوسهم. ولا يذهب عليك انهم ينتحلون لانفسهم حق محاكمة بعضهم البعض ويدعون بأنه ليس لمثلى أن اجرح حكمهم الذى اصدروه عليه بالنفي الى محاجر رحنو (١) غير مكترثين بأمرى. ثم نظر الى نيمو وقال: اذهب يانيمو لتنتظرنى عند قبر امينوفيس

---

(١) محاجر رحنو هى جبل السلسلة الآن وهى التى استخرج قدماء المصريين منها الاحجار التى بنى بها أغلب المعابد فى الصعيد

فانى اريد الحديث مع والدتك فى أمر خطير .

قال : سمعاً وطاعة يامولاي . ثم سار واثقاً بأنه لسوف يحيط علماً بكل ماسيفضى الوالى به الى الساحرة . وما اختفى عن الانظار حتى وجه الى العجوز فجأة السؤال الآتى : أما زلت مقيمة على عهد الولاء للاسرة الملكية السابقة التى شهرت عشيرتك بالاخلاص لها ؟ أشارت بالايجاب . قال : اذن فأنت لاتضنين بمساعدتى على المطالبة بسرير الملك وهذا ما اغتبط به . ثم انك تعلمين بلاريب أنه لاغنى لى عن الكهان وانهم أخذوا علىّ عهداً بان لاأوصل الى بنطاؤر أذى : ومع هذا فمازلت أشعر بقلق فى نفسى وانزعاج فى ضميرى من هذا الشاب ، لا سيما وقد أبلغتنى العيون التى بثثتها فى بيت سيتى أن الكهان اذ حكموا عليه بالنفى الى محاجر رحنو كانوا يقصدون الى جعل عقوبته مقتصرة على نحت الاحجار مدة قصيرة من الزمن ، فى حين ان هذه العقوبة ليست بالشىء المذكور لرجل مثله شديد القوى وثيق الاركان ، بل ربما كان النحت رياضة له وتمريناً فتزداد اساطينه قوة وفصوصه اندماجاً . ثم ان فى رحنو كما تعلمين مدرسة للكهان تابعة لبيت سيتى . ومن العادات المرعية أنه اذا فاض النيل وارتفعت مياهه الى الحافتين اقيمت لذلك اعياد (١) يجتمع فيها الكهان لانتخاب ثلاثة من المجرمين

(١) ينحسر النيل فى جهات رحنو للشار اليها وقد اقيمت بها فى عهد رعمسيس الثانى وخلفه منفتاح اثار اسطوانية الشكل نقشت على سطحها الاناشيد المقدسة التى كانوا ينشدونها وبينت القرابين التى كانوا يقدمونها لمناسبة تلك الاعياد . وقد استخرج الدكتور ايبرس وصديقه استرن معانى هذه النصوص وقابلوها على المعلوم من غيرها . وربما كان الاحتفال الآن بنزول النقطة أو وفاء النيل أثر تلك الاحتفالات التى يرجع فضل اقامتها الى رعمسيس الاكبر .

المحكوم عليهم بالنفي مع الاشغال الشاقة فى المحاجر لاتخاذهم خدمة لهم فى الهيكل . ومما لامراء فيه انهم فى الاعياد المقبلة سينتخبون بنطاؤر ويطلقون سراحه فتنطلى بذلك حيلهم ويتم مكرهم . قالت العجوز : يبدو لى أنهم يبغون الاستخفاف بك والافتئات على حقوقك ، قال الوالى : لقد راجعت نفسى وضربت اخماساً لاسداس واستشرت راتوتى ونيمو فرأيت أن العمل بمشورتهما وبما تنصرف اليه نفسى ربما جرّ الى مشكلة تدعو الحكمة الى اتقائها ، فما رأيك أنت ؟ قالت وقد بدت على وجهها علائم الاكتئاب : لامفرّ لك من ابادة ذرية آسا عن آخرها . ثم اطرقت رأسها هنيهة وقالت : ورأيي الحكيم ان تجعل ثقباً فى السفينة التى سيرسل المجرمون عليها الى رحنو ، فاذا ما توسطت النيل هوت الى قاعه فيلقى بنطاؤر حتفه مع من يغرقون ، قال : قد خطرت هذه الحيلة ببالى واشاربها القزم ولكنها حيلة عتيقة عملت بها اكثر من مائة المرة فشاع امرها وافتضح سرها ، دعي أن أميني لابد أن يتهمنى وقتئذ بنقض العهد والحنث فى اليمين التى اقسمت بها ألا اوصل الى بنطاؤر أي أذى . قالت : قلت حقاً وليس بمستغرب ان ارى الرجال يوفون بالعهد بينهم ثم لايحافظون عليه مع غيرهم . واذا لم ترق لك تلك الحيلة فاليك حيلة اخرى احق بالاتباع منها وأحرى ، وهى أن تأمر ربان السفينة التى سيركبها المحكوم عليهم باجتياز محاجر رحنو فى ظلام الليل ، والاستمرار على الصعود فى النهر الى مدينة أسوان ، فيبعث بالمجرمين الى معادن الذهب فيما يلى الصحراء

وربما انقضت اربعة اسابيع او ثمانية قبل أن يطرق الاسماع فى طيبة هذا الخبر وتتداوله الالسنة . فاذا رأيت من امينى التذمر والغضب فتظاهر بالحنق على الربان وبالغ فى تعنيفه لما تعمد ارتكابه من الغلط بأيعازك ، فأن أمينى لايستطيع وقتئذ أن يحتج عليك بأنك أردت بنطاؤر شراً . وفى غضون ذلك يسهل عليك بما توافر فيك من لباقة وحذق ، وبما عرف بعاكر به من عسف وتجبر أن تحقق أملك فى الاستواء على عرش الملك . أما الايمان والعهود فأنها تصبح أوهي من بيت العنكبوت ، ووقتئذ يمكنك أن تترك بنطاؤر بمعادن الذهب لان الذاهب اليها لا يعود منها . . ألم يمت والدى وشقيقي فيها وبيضت الشمس عظامهما .

قال آنى : ان أمينى لا يسلم بوقوع الغلط . قالت العجوز : اذا لم يصدقك فاكشف له عن وجه الحقيقة وزد عليها أنك لما تبينت الحيلة التى دبرت لانقاذ بنطاؤر من العقوبة فى رحنو ، أبت نفسك أن يبقى هذا المذنب جامحا فى غوايته وأن تهان حرمة القانون بمثل تلك التدابير . ومتى علم منك بوجود الشاعر فى معادن الذهب استفسر عن أحواله ، فاذا أيقن انه على قيد الحياة صوّب الكهان رأيك واستحسنوا فعلك . . هذه نصيحتى اليك فاعمل بها ولا تحد عنها اذ لايسع القيم الذكى القصي مرامى النظر فى العواقب مثلك الا أن يجعلها نصب عينيه ما دام طامحاً الى الاستئثار بالدار التى وكلت شؤونها اليه . قال آنى : عندى اعتراض على هذا الاقتراح وهو انى لست فى غنى عن مساعدة أمينى ، ولست

احب ان أصبح ألعوبة فى يديه فيغلبنى على أمرى ويشاركنى فى سلطانى

فهزت العجوز كتفيها استنكافا ثم دخلت المغارة حيث غابت هنيهة ثم خرجت وبيدها قنينة وقالت : خذ هذه القنينة فان أربع نقط منها تكفى اذا وضعت فى قليل من النبيذ لاضاعة الصواب . وما عليك الا ان تجربه فى أحد العبيد لتعلم صدق قولى وتتأكد سرعة تأثيره . قال آنى : وماذا أستفيد منه ؟ قالت ضاحكة : تستفيد منه اقناع أمينى بأنك لم تهتك للقانون حرمة ولم تجر عن قصد السبيل ، وكيفية ذلك ان تبادر بلقاء الربان عند عودته من اسوان وتقدم له قدح نبيذ فيه أربع قطرات من هذا السائل ثم تبعث به الى أمينى فاذا تأكد له أمره وعلم أن به خبلا فانه لا تبقى عنده ريبه فى تجاوزه موردة رحنو وابتعاده عنها الى الجنوب . قال آنى : عجباً لك يا بيكى ما أعظم قدرتك على جعل المستحيل ممكناً . ولكن لا محل للعجب ، وقد فتنت الناس بمحاسنك الباهرة وصرت أمهر امرأة وأحذق ساحره . قالت العجوز :لست أسمى بيكى فان بيكى قد انقضت أيامها ودالت دولتها . وانما اسمى نيخت فادعنى بهذا الاسم . قال آنى : لا بأس ، الا اننى أفضل صوت بيكى الرخيم على نعيب نيخت العجوز .. على أنه لا يجمل بى ان أفارقك ، وأنت أرصن نساء طيبة عقلا وأحذق تدبيراً وأوسع حيلة ، قبل أن أوجه اليك سؤالا وهو . هل لك فى اخبارى بحوادث المستقبل وأسراره ؟ واذا استطعت ذلك فهل ترين أن سعيي سيكلل بالنجاح ؟ لا أخالك الا عارفة بما أرمي اليه من المقاصد .

أطرقت نيخت رأسها برهة ثم قالت : لا أستطيع أن اخبرك الآن بنجاح سعيك أو فشله . . صوّب نظرك الى هذين البازيين المقيدين بمخلبيهما ، ان الذى سقط ريشه وهبطت جفون عينيه هو رعمسيس. أما الثانى المتحلى بريشه الزاهى اللون وعينيه البراقتين فهو أنت ، إلا اننى لا أدرى أيهما يموت قبل صاحبه . فالقى آنى على الاول نظرة احتقار واشمئزاز بينما كانت العجوز تقول : اننى اعامل البازيين بالسواء ، لا افرق بينهما ولا انحيز لاحدهما ، وللقضاء المبرم حق الاختيار . فجزع آنى ولم يتمالك أن أخرج كيس نقوده والقى به الى العجوز قائلا : ارجو منك العناية بأمرهما ليتيسر لك اخبارى بعاقبة أمرهما . ثم تحفز للانصراف قائلا : اذا طرأ حادث على أحد البازيين فابعثي نيمو ليخبرنى به : وبينما كان آنى يتوارى عن العيان ملتمساً الطريق الموصل الى قبر والده تمتمت العجوز بهذه الكلمات : انك لأحمق معتوه ، تجعلني فى عهدك وتحت رعايتك لاجل بازيين لا تأثير لهما فى الحظوظ ، ثم تطمح بعد ذلك الى الجلوس على أريكة الديار المصرية . . لقد كان رعمسيس فاقد الرشد حائر الصواب حين أنابك عنه فى الحكم على هذه البلاد . ولعله تعمد اختيارك من بين الاغبياء ليتقي شرك . فاذا كان هذا هو ما ارتاه فقد سقط آنى فى مهواة الغرور ، وعادة الحمقى والاغبياء اذا عجزوا عن العمل بالحكمة والروية ان يقتحموا المصاعب دون ان يتدبروا فى العواقب .

الفصل الثامن

ما حدث اثناء الوداع من مظاهر الوجد والالتياع

خرج آنى من مقبرة والده بعد ساعة . متشحاً بأفخر الثياب واستوى في مركبته فمر بمغارة الساحرة وكوخ والد وردة . وكان نيمو جالساً يحدد اليها النظر ويتوثب فى مكانه غيظا وحنقا ، لانه كان يرى من خلال الحاجز شبح إنسان جالساً الى جانب وردة .

وما كان هذا الدخيل سوى الامير راميرى متنكراً بزي كاتب من كتاب الخزينة ، جاء ليسأل عن بنطاؤر ويستقصي أحواله . وقد رصع شعر وردة الجميلة بوردة زاهية ، وجعل همه عند وصوله المبادرة بترصيع شعرها بهذه الوردة مسوغا هذه المسارعة بأن الوردة كانت مخفية فى طيات ثيابه وأنها اذا بقيت فيها طويلا غشيها الذبول . وقال أيضاً في تسويغ فعله أنه لو بدأ بزيارة بنطاؤر لطال مقامه عنده واضطر الى الأوبة الى طيبة قبل أن يتمكن من استجلاء محيا تلك الغادة الفاتنة ولأزعج غيابه اخته بنت انات فترسل بعض أعوانها فى طلبه . أما الآن وقد تحققت أمنيته وتأكدت بغيته ، فهو يحسب نفسه من أهل السعادة والتوفيق .

وكان قلب راميرى فى جلوسه الى جانب وردة يخفق سروراً وابتهاجاً برؤيتها . ولولا أن الهموم أخذت تساوره لمخالفته القوانين

بالدخول في بيوت المدنسين واخفائه حقيقة أمره عن العالمين ، لشيب سروره بالكدر . ثم أنه لم يكتف بذلك بل تعمد البهتان والكذب ، إذ قال لوردة انه من حاشية بنت أنات . ولما كان الكذب يجرّ الى الكذب فقد اضطرّ ، في جوابه على أسئلتها الى حشو كلامه بالاخبار الملفقة ليتوافر الطباق بين مقدمات الكذب ونتائجه . وبالجملة فقد كان الشر في هذه المعاهد المدنسة متفاقماً اكثر منه في بيت سيتي أو قصر فرعون . ثم حلق راميرى بفكره في جوّ هذه الخيالات ، غير أنه كان يرغم نفسه على انكار صحتها . لأن سيت الذى يسلط المواصف على الارض ويحرك القلوب الساكنة ، كان قد نفخ فيه من روحه فغدا لا يرى في مرامي نظره سوى غرض واحد يبغي اصابته ، وهو أن تكون وردة في عيشة راضية ومرتبة سامية . وعلل هذا الانعطاف بأنه لا يليق بها ، وهي في ذلك الجمال الباهر والحسن الزاهر أن يكون مهبطها بين اقوام ضربت عليهم الذلة والمسكنة ووصموا بالعار والدنس وباءوا بغضب من الآلهة .

وكان وقت وصوله الى فناء الكوخ لم يقع نظره عليها وانما سمع صوتها وقيما هبت من مكانها لتزجر الكلب الذى هرّ عند رؤيته هريراً شديداً ، فلما ابصرت به تراجعت الى الخلف فزعة وقالت : لم عدت الى مأوانا المدنس وقد أنذرتك بأن جدتي ارملة أحد المحنطين المدنسين ؟ قال راميرى . لست بمجيئى هنا أقصد جدتك وانما أقصدك أنت لاستجلاء محياك السني والتلذذ بحديثك الشهي . . وأرى أنه لا مانع

قاطع يمنعنى عنك اذ لا علاقة بينك والقوم المدنسين . وهل من عجب اذا تفتحت أكمام الورود فى وسط الرمال أو بين الجلمود ؟ قالت وردة في ثبات واطمئنان : اننى ابنة والدي الجندي وحفيدة جدى المحنط الذى ذهب فريسة الغدر والحقد والظلم . ولست أعرف معنى العقوق حتى أجحدهما أو اتبرأ منهما . . انى لهما مادمت على قيد الحياة، وكل الصلات تربطنى بهما ولا صلة بينى ومن يترفع عنهما ، لان من يقدم على هذا الفعل ثم يود أن أفارقهما يكون كمن يبغي ان ينزع قلبي من بين جنبي

قالت هذه الكلمات ثم نظرت نحو الباب ، فجذبها راميرى اليه وقال : لو قيس الصخر بقلبك لكان ألين منه وأعطف . . أنت تعلمين أننى بذلت فوق المستطاع من الجهد لانقاذك وجئت اليك دون أن يحدثنى وسواسي بأنك . . آه . . من الحقائق الثابتة عندى أن ليس بينك ومن تدعين أنهم أقاربك جامعة شبه . . ولا يسؤك منى هذا الكلام وإنما ينبغى لك تدبر معانيه وادراك مراميه لتوقنى أن كل مشتهاي أن لا تبهظ عواهنك أعباء الدنس . ومن ذا الذى ان إراك لا يشعر فى نفسه بالحنين اليك والعطف عليك ومحبة الخير لك ؟ . . ان سيدتى بنت انات نفسها قد . . كلا ! من المستحيل أن تكونى . . قاطعته وردة : أن أكون من زمرة المدنسين ! ثم أطرقت رأسها قليلا وقالت بصوت جهورى : ان وصمة الدنس التى ألصقت بنا ليست الا ظلماً فادحا والا لما كان جدى على ما عرف به من الفضائل والكمالات .

قالت هذا واغرورقت عيناها بالدموع فابتدرها راميرى بقوله :

انى مشايع لرأيك ، ولكن يتعذر على المرء أن يبقي محافظاً على الفضائل والكمالات اذا ظلت الفضائح محدقة به و نظر الناس اليه بعين الاحتقار والمقت. وقد أيدت التجارب ما أقوله ، فانه ان لامنى احد على أمر فانه يثير فى صدرى عواصف الغيظ منه والحقد عليه بخلافه لو مدحنى، فانى أشعر فى نفسى بدافع على إيتاء المعروف . ومع هذا فان خلطائى وأودائى ملزمون باحترامى واجلال عشيرتى فى معاملاتهم معى ومعهم . فقاطعته وردة : أما نحن فلا نصيب منهم غير الازدراء والتحقير . هذا ما يستخلص من قولك ، وإنما يجدر بك علم أنه لا ينبغى لامرىء ان يأبه للناس أأصابوا فى حكمهم عليه أم أخطأوا ما دام واثقاً بأنه لم ينحرف عن جادة الفضيلة . وإذا كنا فى حالة تستدعى الاهتضام والاستذلال كما تقول ، فلدينا من الاسباب ما يدعونا الى الرضى بها وإيثارها على سواها . لانكم معشر العظماء الطاهرين من الارجاس المبرئين من العيوب يخالجكم الشك أحياناً فى حقيقة مراكزكم فتتوهمون انكم أقل خطرا مما أنتم فى الحقيقة ، بخلافنا نحن فانا لواثقون الوثوق كله بأننا اشرف قدرا وانبه ذكرا مما تظنون وأننا نحن العالون فوق ما شاء ظلمكم واضطهادكم أن نكون فى حضيضه متنكسين .

قال راميرى : ان ما ذكرته هو مجمل رأيى فيك وإنما لا يغب عنك أن فى هذا الوجود انساناً يقدرك تقديرا خاصا ويضعك فى أسمى المراتب وأسناها ويقر لك بالرفعة التى لا تطاول والمجد الذى تطمح اليه العيون وهى يا وردة أنك غير خليقة بالاحترام والاعجاب، فمثلى من لا يسعه أبدا

إغفال أمرك . قالت وردة : ان ما مرّ بخاطرك من هذا قد مر مثله بخاطري ، اذ بينا كنت نهبا للهواجس وأنا على مقربة من مرقد جدتي خيل لي أنه لو كان لي أخ مثلك لعشت في الهناء والنعيم المقيم . ثم أتعلم ماذا كنت اصنع لو انك كنت لي شقيقاً ؟ قال : ماذا كنت تصنعين ؟ اجابت : كنت أشترى لك جوادين كريمين ومركبة فتذهب الى ميدان القتال لتحارب الاعداء وتذيقهم مع فرعون النكال . سأل : أوعندك مال يكفي لاشترائها ؟ أجابت : نعم عندي ، وهو ما تسلمته منذ ساعة فقط . . أوتعرف القراءة ؟ أجاب : نعم أعرفها . قالت : لما أصابني الجرح في صدري عادني طبيب من بيت سيتي ، وهو رجل حاذق في فنه عارف بمهنته الا أنه غريب الاطوار شاذّ العادات ، فانه مثلا كان يكفّ عن تصويب النظر اليّ والتحديق بعينيه في وجهي كما يحدق السكران في الناس مستثبتاً . وكان يتعاجم متلعثما بلسانه ، سأل : أليس اسمه نبسشت ؟ أجابت : نعم هو بعينه ، وكان يحدث جدي في أمور غريبة . ولقد عمل لنا خيرا كثيرا بعد حادثة الاعتداء التي دافعت أنت وينطاؤر فيها عنا ثم توارى عن أنظارنا فلم نعد نراه الا اليوم منذ ساعة ، فقد عوى الكلب عواء طويلا فخرجت من الكوخ فوقع بصري على شيخ قال لي انه اخو نبسشت وأن هذا الطبيب أودعه مالا طائلا برسمي وعهد اليه أن يسلمني خاتما ذكر عند تقديمه اليّ أنه يكفي أن أبرزه له ليسلمني الوديعة على الفور ، ثم تلا هذا على سمعي ، فتناوله راميري من يدها وقرأه بصوت عال فاذا فيه ما يأتي :

« من نبسشت الى وردة الجميلة — ان نبسشت يهدى سلامه الى وردة ويخبرها بأنه كان مدينا لجدها بينم الذى توفى وأخذ المحنطون يحنطون جثته الآن بمثل العناية التى تحنط بها جثث العظماء ، بمبلغ الف حلقة ذهبا فعهد الى اخيه تيتا حفظ هذا المبلغ عنده ليكون تحت طلبها فى أى وقت تريده . ولهـا أن تثق بتيتا وأن تأخذ المبلغ منه ، وانما الافضل والامثل ان تشمره أو تشترى به بيتا للسكنى أو ارضاً للزرع . فاذا فعلت ذلك فانها ستعيش مع جدتها فى أمن ورغد وهناء . وكل ما يسأله نبسشت منها ان لا تتزوج أحداً قبل مضي عام واحد من تاريخ هذا اليوم لانه يحبها حباً جماً . فاذا انقضى الثلاثة عشر شهرا ولم يعقد عليها كان الخيار لها فى الاقتران بغيره ، وانما عليها فى هذه الحالة تكليف مترجم الملك بالبحث فى الخاتم الذى تركته والدتها وحل رموزه »

ما كاد راميرى يأتى على ختام هذا الكتاب حتى صار كالمنزول به ، فقال : ان هذا الامر لمن الغرابة بمكان . ومن ذا الذى يصدق أن ذلك الطبيب الشاذ الخلق الرث الثياب يبلغ به الكرم الى حد البذل بكل ماله ، ثم ماهو الخاتم الذى أشار فى رسالته اليه ؟ وقد نشرت وردة ثوبها فأبرزت منه الخاتم الذى كان لألاء احجاره الكريمة يخطف البصر . قال راميرى : ان فصوصه من حجر الماس الثمين فلا بد أن يكون رفيع القيمة نادر المثال وهاءنذا أرى وسط هذه الظفرة[1] البيضية الشكل حروفاً منقوشة لا استطيع حل رموزها . . سأطلع مترجم الملك على هذا الخاتم . أكانت

(١) الظفرة حجر العقيق اليمانى

والدتك تتختم به ؟ أجابت : لقد عثر والدى عليه فى ثيابها عقب مماتها ، وكانت خرساء من سبايا الحرب فلم يهتد أحد الى معرفة موطنها ولا الى حقيقة أمرها . قال : لاريب عندى فى أنها من أسرة شريفة لان الابناء سر الوالدين . . فأنت أميرة صغيرة اذاً يا وردة . . ما أسعد طالعى بك وما أكبر حبى لك ! قالت باسمة : لعل الخوف الذى امتلأ به فؤادك فجعلك تعلو علي علوا كبيراً قد زال الآن . قال : لست أرضى منك اساءة الظن بى الى حد تتوهمين معه انى أرفع من قدر نفسى بمقدار ما اضع من منزلتك ، فلقد قضيت يوم أمس وليلته ممتلا محياك الزاهر لخاطرى . والا فماذا سبب سهادى وقادنى الى هنا اليوم ؟ قالت : تكلم لا أدرى السبب .

فاستخرج راميرى من طيات ثوبه الوردة البيضاء وقدمها الى وردة فأخذتها منه بيد مرتجفة ، وقد علت وجهها حمرة الخجل واعتراها الدهش ، ثم قال : أنا أعلم أن هديتى هذه من عبث الصبيان ، ولكن لا يسعنى قبل تقديمها اليك الاستئذان منك فى ترصيع شعرك الناعم بها . أفتغدقين علي نعمة هذه الحظوة وتحقيق أمنية طالما علقت النفس بقضائها ؟ أجابت : ما أجمل هذه الوردة وألطف شذاها العبق ! . . ما رأيت فى حياتى وردة تشبهها فى لونها اليقق وشذاها العطر . قال : إنما هذا الجمال مستمد منك واليك يسند ، فدعينى أزين بالوردة شعرك بل أزينها بهذا الشعر الذى يفوق حرير (صور) نعومة ملمس وأشعة الكواكب الدرية امتداداً واسترسالا . . ها قد رشقتها والحمد للآلهة ان ثبتت فى

مكانها . . لا تضعى يدك عليها . . لو رأتك الهواتير (١) السبع لاصفرت وجوههن حسداً وكمداً . . ألست فى الحقيقة أبرع منهن جمالا ؟ فتنفست وردة الصعداء وتوارت خجلا ثم عادت فقالت : ما أبرعك فى المداهنة والملق ، ثم حددت فى الامير النظر وكانت عيناه تقدحان كالشرر لتأثر وجدانه بحب وردة التى لم يتمالك أن أخذ بيدها فوضعها على قلبه لتحس قوة ضرباته وسرعة خفقانه ويتأكد لها هيامه بها ، وسألها بعد هنيهة ، أشعرت بخفقان قلبى وعلمت مقدار حبي ؟ أنا لا أهنأ براحة يا وردة إلا إذا أجبتنى الى أمنية أخرى هي فى نظرى أهم من تلك ، وأرجو أن يكون اغتباطى بها أعظم منه بها . . أفتسمحين لى بقبلة يا وردة . . بقبلة واحدة ليس إلا ؟ فتراجعت الفتاة الى الخلف فزعة وقالت : كلا . . لقد فهمت الآن سر أمنيتك . . ولم يبق عندى ريب فى أن العجوز نيخت قد وقفت على أسرار الرجال وان نصيحتها لى كانت فى محلها من الصواب . . سأل : ومن هي هذه العجوز ومن أين لها الوقوف على أمرى والاطلاع على سرى ؟ أجابت : أنبأتنى بأنه قد حان الوقت الذى سيدنو منى فيه رجل يجاذبنى أطراف الحديث فى الغرام ويمعن النظر فى وجهى ، فاذا نظرت اليه كما ينظرنى هم بلثم شفتى وأوصتنى بأن أدعه وشأنه لا أنظر اليه ولا أحدثه قائلة إننى ان مكنته من تقبيلى فقد خولته القدرة على انتزاع روحي من بين جنبي . ومتى أصبحت بلا روح تسلطت علي أرواح الشياطين فلا يهدأ لى بال ولا

(١) جمع هاتور

يستقر حال بل أكون كالريشة فى مهب الرياح تدفعها الهاوى وتلفظها البحار وتطردها السموات ، فأليك عني أيها الصديق واعلم انه يشق علىّ أن أضن عليك بقبلة، ولكن أيروق لك أن أصبح بلا روح فأهيم فى الأودية والبيداء وأقضى حياتى فى التعس والشقاء ؟

سأل راميرى : وهل العجوز تحب الخير وتصطنع المعروف ؟ فأومأت وردة بأيماءة تفيد السلب ، فقال الامير : ليست هى بلا ريب من ربات الخير والمعروف لكذبها عليك . وجدير بي أيتها العزيزة أن أمزج روحى بروحك لا أن انزعها من بين جنبيك كما تدعى تلك المرأة منبع الضلالة والكذب فتندمج الروحان وتصيران روحاً واحدة . وهل من سبيل الى ما دون ذلك لمن هو على شاكلتنا رقة قلب ولين عطف ؟ قالت : أحب الي أن يتحقق قولك ، فقد سبق لى ان شعرت بأثر من مدلوله فى نفسى . ألم أكن ، قبل أن الزم الفراش ، كلما قصدت الى ضفة النيل لجلب الماء أطيل المقام على مقربة من الساقية لما كان يستوقفنى من منظر مياهها دافقة وقطراتها متناثرة ، وما كان يأخذ بلبي من انطباع ضوء القمر بسنائه الباهر على كل قطرة منها فتبدو كمرآة صغيرة للناظر ينبعث منها نور يخطف سناؤه الابصار ، فيرى الرائي من الاقمار قدر عدد القطرات وما هي فى الحقيقة الا قمراً واحداً يسبح فى كبد السموات . . شهدت هذا المنظر الانيق فجال بخاطرى تعدد القمر وهو واحد فقلت أن ما وقع عليه منه لما يجوز أن يقع مثله على القلب . . حقاً . . ليس للمرء الا قلب واحد ، ولكن يظهر أن من

المحبة والعطف تنبعث قلوب كثيرة لا تسلب القلب الاصلي قوته ولا تخفض من حرارته ولا تهدئ من خفقانه . واذ كان القلب قابلا للتجزؤ والتعدد فلسوف اخصك بنصيب منه بعد ان اوزع الانصبة الاخرى على من أوليتهم حبي واخلاصي وهم جدى وجدتى ووالدى وشراعو الصغير والآلهة . . وبنطاؤر . قال راميرى: أويكفيني نصيب واحد من انصبة عديدة ؟ قالت : أرأيت هذا النصيب الذى تستخف به اضاآلته ؟ فانه لسوف ينطبع فى نفسك قلباً كاملا كما ينطبع القمر فى كل قطرة من رشاش ماء الساقية ؟ فيبدو كأنه اقمار بقدر عددها . قال : صدقت فى تشبيهك . ثم مد ذراعيه لعناقها وكانت تضطرب استحياء . فلما اطرقت رأسها قبلها قبلة سجلت بين روحيهما عهداً وثيقاً وربطتهما برباط متين ، فلم تمالك وردة بعد ذلك أن قالت : اليك عنى ! عجل بالانصراف من هذا المكان . قال : ان تأذنى لى بالبقاء هنيهة بين يديك فانك توليننى نعمة وسعادة لن انساهما أبد الدهر . . هلمى بنا نجلس على ذلك الكرسي ولنا من هذا الحاجز ستار يصدّ عنا أعين الرقباء . . ثم لم نخشى الرقيب وما أمامنا الا الصحراء مترامية الاطراف الى أبعد مدى ، وما حولنا ديار ولا نافخ نار ؟ قالت وردة وقد علتها علامات القلق : لم نتوارى عن الانظار اذا لم يكن فى دنوك منى ما يستدعى وخز الضمائر ولا مؤاخذة السرائر . قال راميرى : أتظنين ان ما يعمله الكاهن الاعظم فى قدس الاقداس شر وباطل ؟ كلا ! انا نرأ به عن فعل الشر ، ولكنه رغم ذلك يتوارى فيه عن الانظار . قالت وردة مبتسمة : ما أقوى حجتك

وأوثق قدرتك ولكن لا عجب ان يكون عارف القراءة والكتابة مقنعا ومتلقى العلوم عن أمينى هماما قديرا . قال راميرى : لست تلميذ الكاهن الاعظم وانما أنا تلميذ بنطاؤر وهو استاذى المحبوب ومع حبى له واجلالى لمقامه فان قلبي يكاد يتمزق غيظاً منه وكراهة له، كلما ورد اسمه على لسانك ، انت تفضلينه عليّ وعلى كثيرين غيرى . . نعم ان ذلك الشاعر قطرة يتلألأ بالانعكاس فيها سناقر محبتك ولكنى لا أحب منك ان توزعى قلبك على الكثيرين من الناس لهذا الحد !

قالت وردة : لمَ تحدثنى بهذا الكلام ؟ ألا تحترم نفسك ووالدك والآلهة معا ، وهم مع ذلك أنفاس متعددة ؟ على أن نصيبك من حبي أعظم من نصيب الآخرين ، لاننى لم أحب احدا منهم بقدر ما احببتك . ألم تر أن التأثير العجيب الذي أشعر به الآن ، وقد وضعت ثغرك على ثغرى يشبه الشعاع منبعثاً من القمر ؟ وهذا الشعاع ألم يكن شبيهاً بالاشعة الشمسية فى حرارتها وشدة نفوذها ؟ وهذه القبلة التى طبعتها بطابع شفتيك ألم تكن كجذوة نار سرت حرارتها الشديدة فى جسمى . . انني كلما أفكر فيك وأمثلك لخاطرى لأناجيك أفقد أسباب الراحة ولا يهنأ لى بال . ولطالما مددت نظرى الى الباب أسائل نفسى أيتنازل منقذى ومخلصى من مخالب الموت ، ذلك الفتى ذو الشعر المرسل الى الكتفين . . أيتنازل بالحضور الى هنا ليرمق بعينيه أسيرة فضله وصنيعة مروءته أم يأنف من زيارة فتاة فقيرة حقيرة مثلى ؟ فلما جئت محققا بمجيئك ماهو مظنون بمثلك ومقدر فيك قلت فى نفسى لقد سالمتني الايام وهادنتنى

صروف الزمان ووافتني بما كنت أطمح اليه من العز والسعادة . فعليك اذاً بالصدق في حبك والاستقامة في سيرك والا جذبتك من شعرك المرسل هذا . .

قال راميرى : اجذبيني منه ماشئت فانه لا يلحقني ضرر من جذبك مهما يبلغ من قوة ، ولكني سمعت من كلامك ماينفذ الى الفؤاد ويمزق الاكباد . . انك تؤثرين بنطاؤر علي ، ولا عجب ، فبنطاؤر أوسع علماً وأكثر فضلا وأرفع مقاما وأسرع نجدة . قالت وردة مجد : كل ما استطيع ان اقوله في هذا الموضوع انه رجل لا نظير له بين الرجال ، ولو أنه حاول تقبيلي مثلك لذهبت أمامه هباء كالرماد ، تعطيه حرارة الشمس في رأي العين صلابة وقسوة فاذا لمس بطرف البنان استحال ترابا تسفيه الريح . ولو انه أقدم على ذلك الفعل لتراجعت خوفا من ان يلامس ثغره ثغري ولملئت رعبا وفررت امامه فرارك من الاسد . ولك أن تسخر مني وتضحك على ما تجدني عليه من سذاجة الطبع وما ربما تعده حمقا وبلاهة ، ولكن هذا كله لا يمنعني من الاعتقاد بأنه اله هبط من السموات . ولقد خبرني والده يوما أن معجزة ظهرت في اليوم التالي لميلاده ، وكانت كثيراً ما تكلفني العجوز بالذهاب للسؤال عنه . وهو مع أنه من العامة حسن السيرة طيب السريرة . وكان كثيرا ما يطنب في مدح ولده ، ومن كلامه لي فيه انه كان يقول الشعر صغيرا وانه تعلم القراءة والكتابة بلا معلم وأن أميني رآه يوما فأدخله بيت سيتي بعد اذ تأكدت له براعته وعبقريته . وكنت يوما مع ابيه فاشار الى شجيرة

عريضة الاوراق كثيرة الازهار وقال لى : ان ولدى يضارع هذه الشجيرة التى نمت أمامى وامتدت أفنانها دون أن أعرف سر نموها ولا كيفيته ، وكل ما فى الامر اننى كنت اشتريت بذوراً من طيبة وجدت بينها بذرة واحدة أجنبية الأصل فأنبتت هذه الشجرة التى لا يعرفها الزارعون فى بلادنا ، ولم يستطع أحد ان يوقفني على أصلها ، وهي مع ذلك ملكى وغرس يدى . وهكذا شأن بنطاؤر ، فانه لا يشبه والدته ولا اخوته ولا أحدا منا ، فجسومنا صغيرة ناتئة العظام فى حين أن جسمه واف وقوامه لدن ولون بشرتنا أسمر ولون بشرته كالورد ولهجتنا خشنة وعبارته مهذبة عذبة . وهذه الفروق تحملنى على الحكم بأنه أحد ابناء السماء وضعته الآلهة فى مسكنى الحقير . ولقد أبصرت بنطاؤر فى الاعياد فتساءلت أبين الكهان من يدانيه جمالا وكمالا وعلما وفضلا .. أما أنا فتبينت فيه بعض أمارات الالوهية ، كيف لا وقد شهدته يصارع جموع الناس فيصرعهم لوقايتى من شر عدوانهم . أفلا أحترمه بعد هذا ، وأنا كلما وقع عليه بصرى تجمد الدم فى عروقى لتأثر وجدانى ولا أحير قولا لحصر لسانى ! كل ما أستطيع ان أوضحه لك ياصديقى من الفرق بينكما ان فؤادى يخفق لخفقان فؤادك متى التقى شعاع بصرى بشعاع بصرك . أما بنطاؤر فانى اذا رمت استجلاء طلعته عزّ علىّ هذا المرام ما لم أحلق فى جوّ الخيال واصعد الى السماء بأجنحة الوجدان . ولا تنس انك لى كأكليل غضّ ناضر نمق بالورود الزاهية الطيبة ورصع بالأزهار التى تقر العين بمرآها ، كما أنه لى كالشجرة المقدسة الثابتة الأصل الملتفة

الافنان التى تعنو لها الجباه اجلالا واحتراماً .

كان راميرى يسمع هذه المقارنات اللطيفة ساكناً ساكتاً . فلما انتهت وردة منها قال : انا ما زلت فى غضاضة الشباب ومقتبل العمر ولم آت من جلائل الاعمال ما استحق من أجله وصفك إياي بتلك النعوت الجليلة الجميلة : غير اني اطلب اليك ان تصبرى صبراً قليلا جميلا فانك لا تلبثين ان ترفعي بصرك الي بعده لا كما ترفعينه لرؤية شجرة مقدسة بل الى شجرة جميز يحبب ظلها الوارف ابن السبيل التماس الراحة تحتها بالتفيؤ بها واعلمي ياوردة ان سروري قد انمحت آيته كما تنمحى آية النهار وانى اعتزمت مزايلة هذا المكان ومفارقتك لكي اقتدى بينطاؤر فى فضله وحكمته وسموّ أدبه وكرم خلقه حتى اذا تم لى بهذه القدوة ما أطمح اليه من تثقيف عقلى وتهذيب نفسى صرت اكليلا جميلا من الورد اسرح الطرف فى حسنه الشائق وامتع النفس بشميم عطره الطيب الأرج . ولقد سمعتك الآن تشبهينى بذلك الاكليل وهو تشبيه لا ينطبق على الرجال اذ هو بالفتيات الفاتنات مثلك أليق وعليهن أطبق . وليس فى الرجال من هو أبغض الى نفسى ممن يشبه الورد الناضر والزهر الزاهر !

ثم قام من فوره وصافح وردة فقالت له : أرى فى يدك قوة وصلابة فلعلك تستعين بها على عمل الخير واصطناع المعروف . وقد كان من شدة فعلها فى يدى أن تركت بها هذا الاثر الاحمر كما ترى . . ولكن لا تظنن أن هذه اليد الصغيرة لا تفيد أحداً ، فان من أقل مزاياها تخفيف الآلام عمن توكل اليها العناية بامرهم من البائسين والمنكوبين . ولقد كان

جدى يقول على الدوام ان يدي تجلب السعادة وتبشر بالشفاء . أترى فى ذاك المكان أشجار الزنبق والرمان وقد تفتحت ازهارها ؟ جاءنى جدى يوما بشىء من طمي النيل وأعطانى والدبنطاؤر بذوراً غرستهافيه فلم استطع استنباتها الا بتعهدها بالري فى الوقت المناسب . فخذ زهرة الرمان هذه فانها أول زهرة تفتحت اكمامها من هذه الشجرة . وقد قالت لى جدتى يوما لما رأتها آخذة بالتكون والتطور والاكتساء بالاكمام وأنها تحمر بتأثير قبلات الشمس لها فى كل يوم « ان قلبك سينفتح قريباً ياورده كما انفتحت هذه الزهرة الجميلة وبرزت من ثوبها السندسي » . وقد ادركت الآن مغزى كلامها فخذ هاتين الزهرتين فهمالك :

تناولهما راميرى منها فوضع الحمراء وهي زهرة الرمان على ثغره كأنه يلثمها ، ثم مد يمناه لمصافحة وردة فتراجعت الى الخلف بغتة ، لانها رأت من خلال الحاجز شبح إنسان ماراً . ولكن لم يلبث خاطرها ان اطمأن حينما علمت أنه شراعو الصغير الذى كانت العجوز الساحرة تعمل على تقصير قامته لتجعله من الاقزام ، وقد اكتسى بالاحمرار وجهه الجميل لاسراعه فى المشي . ولم تستطع وردة أن تقف منه على خبر ، لما اعتراه من التعب الذى أعجزه عن الكلام . وكل ما بدا منه أنه كان يرمق راميرى بعين الحذر والريبة ، فأدركت وردة أن وراء الاكمة ما وراءها واستدرجته بعد الملاطفة والمواساة والاخذ باللين الى التحدث ، فهمس فى أذنها انه يبغى الحديث معها فى خلوه ، فقالت :

ان هـذا الواقف بجوارنا صديق لى حميم فلا تخش بأساً . قال : ان ما عندى من القول لا يتعلق به بل ببنطاؤر المقدس الطيب الذى أظهر من دلائل الرحمة بى والحنان علىّ ما يقصر عن وصفه اللسان ، وأقام الدليل على نجدته وشهامته بانقاذه إياك من المعاطب . قال راميرى : اعلم يا هذا اننى أريد الخير كله لبنطاؤر . ثم التفت الى وردة وقال : ألا ترين ياوردة ان بامكان هذا الغلام التحدث اليك أمامى بما فى نفسه دون أن يخشى فضحا لاسراره . قال شراعو : سأحدث دون خوف ولا وجل .. انتهزت غفلة العجوز نيخت فعمدت الى الفرار من وكرها قاصداً الى هذا المكان . ومؤكد أنها لو وقفت على الحقيقة لبادرت بالحضور الى هنا وعاقبتنى بحرمانى الغذاء الذى أقيم به أودى . فلما سمع الامير كلامه عبس وجهه غضباً وقال : ومن تكن تلك العجوز الغادرة ؟ قال شراعو : عنـد وردة خبرها . . واسمع الآن قبيح فعلها معى . . طرحتنى أرضاً بداخل وكرها فى اللوح الذى اخترعته لتقصير القامة ثم ألقت علىّ قطعة قماش لتسترنى بها . ولم ألبث على هذه الحال هنيهة حتى أقبل نيمو ومعه رجل كانت تدعوه « حضرة القيم » فأنشأت تحدثه فى شؤون لم أفهم المراد منها ، ولكنى سمعت مع ذلك اسم بنطاؤر فابرزت رأسي من تحت الغطاء فسمعت كل ما دار من الحديث بعد ذلك . وخلاصة ما فهمته ان حضرة القيم كان يقول عن بنطاؤر أنه شقى عنيد يعوقه عن بلوغ مراده وتحقيق أمنيته ، وان الكاهن الاعظم كان عازماً على نفيه الى محاجر رحنو فاعترض عليه بخفة هذه العقوبة وانها لا

تناسب الجرم الذى ارتكبه . فلما سمعت العجوز ذلك أشارت عليه بأن يأمر ربان السفينة التى تقله الى المنفى باجتياز موردة رحنو والذهاب به الى معادن الذهب التى كانت كثيرا ما تروعني بها قائلة ان والدها واخوتها ماتوا جميعاً فيها . قال الامير : والواقع ان من ذهب اليها لا يعود منها . قال شراعو : ولم أفهم ما قيل بعد ذلك سوى أنها ذكرت شرابا اذا تعاطاه أحد جعله مجنوناً . وليس هذا كل ما سمعته ورأيته فى وكر العجوز التى تعذبنى كل يوم بوضعى فى لوح لتقصير القامة ، فان ما يقع تحت حواسى من حوادثها المزعجة يجعلنى أوثر الموت على الحياة .

ثم أخذ شراعو يبكى ويئن فلاطفته وردة حتى هدأته ، فقال راميرى : تلك حوادث غريبة ومزعجة معاً . ثم التفت الى شراعو وسأله : ومن هو القيم الذى كان عندها . . ألم تسمع باسمه . . طب نفساً وقرعيناً ياصديقى الصغير وكف عن البكاء ، واعلم أن حياة بنطاؤر قد أحدقت بها الاخطار ويجب علينا ان ندفعها عنه . ولكن لابد لذلك من معرفة اسم القيم الشرير . أفلا تذكره ؟ فعض شراعو على شفتيه ليسكن ثائرة نفسه ثم أخذ يفتش فى ثيابه البالية فلم يلبث ان صاح قائلا : اصبر قليلا فربما تعرفه من الصورة التى صنعتها على مثاله . قال الامير ، وقد دهشه هذا القول : كيف ! . . ومن ذا الذى صورته ؟ قال شراعو : هو . . القيم . . ثم اخرج من طيات ثوبه البالى تمثالا ملفوفا فى خرقة واستأنف حديثه فقال : بينا كان القيم يتكلم ظهر لى احد شقي وجهه فصنعت له مثالا من الطين الذى كان عندى ، واظنه جاء طبق الاصل . قال هذا

وازال اللفائف عن التمثال بيد مرتجفة ثم قدمه الى وردة . فلما وقع نظر راميرى عليه لم يتمالك ان صاح : هذا آني بعينه . . من كان يدور بخلده انه يريد ببنطاؤر سوءا وبم أساء هذا اليه حتى يستحق منه الخيانة والغدر . ثم أطرق رأسه مفكراً وقال بعد هنيهة : لقد أدركت السر الآن ، إن آني طامح الى الاقتران ببنت انات ، وحيث إني يا وردة اصبحت عاشقاً لك ومتفانياً فى حبك وعالما بما للعشق من الصولة على القلب ، فقد تبينت من أحوال الاميرة اموراً تشير الى ما يتلجلج فى نفسها نحوه من النفور أو الميل . . لست أستطيع ياوردة البقاء على انكار الحقيقة التي يؤلم اخفاؤها قلبي ويخز ضميرى . لم أك غلاما من حاشية بنت انات بل انا شقيقها وابن الملك رعمسيس . . ولقد رأيت الخاتم الذى تركته لك والدتك واستوضحت حقيقة أصلك . ألا تدرين أنى لو كنت فى مرتبة اسمى من مرتبه الامارة بل لو كنت هوروس ابن الآلهة ايزيس لما حدت عنك فتيلا ولا اتخذت منك بديلا . وانى لهذا اعاهدك على الوفاء والصدق مع الرعاية المتواصلة لك ما دمت حيا . . لقد حان الرحيل وجاء وقت ينبغى فيه لمثلى ان يعمل بعقله الراجح ورأيه الرصين لانقاذ بنطاؤر من مخالب الموت ، فسلاما عليك ووداعا لك ياورده عند من لا تضيع الودائع عنده .

هم الامير بالرحيل فجذبه شراعو من أطراف ثيابه سائلا إياه : أنت ابن رعمسيس ؟ قالت العجوز فى كلامها عن أبيك الملك انه كالنسر الذى تعرى من ريشه لهرمه وعجزه . قال الامير : اذا كان هذا كلامها

فى حق ابى فلسوف يحس آنى نفوذ مخالب النسر الملكي فى جسمه . ثم التفت الى وردة قائلا : استودعك الله ثانيا ، ثم مد اليها يده فلثمتها بشفتين كانتا كجذوتى النار حرارة ولونا ، فجذب رامبرى يده بلطف وجذب معها وردة فلما دنت منه قبلها بين عينيها ثم انصرف .

وبينا كان ينطلق مهرولا كانت وردة تشيعه بنظرات تشف عما عراها من التأثر . وقد مر برجل عرفت هى بزيه وسحنته انه ابوها ، وكان مقبلا عليها لوداعها قبل سفره ؛ اذ صدر اليه الامر بمرافقة الاسرى والسير معهم فى الصحراء . سألته وردة : والى أين ترافقهم . أإلى رحنو ؟ أجاب : كلا بل الى الشمال . فروت وردة عليه ما اتصل بها من خبر بنطاؤر ورجت منه أن يساعده على النجاة . قال : لو ان معي شيئا من المال ! . . فابتدرته وردة قائلة . عندنا ما يكفى وزيادة . ثم قصت عليه هبة نبسشت وقالت : عليك يا أبت أن تساعدنى على عبور النيل ، فما هي إلا ساعة حتى يكون فى قبضة يدك ما يكفي لجعل الفقير غنيا والمعدم مثريا (١) ، ولكن كلا ، فجدتى طريحة الفراش وليس لديها من يعنى بأمرها ويتوجع لمصابها فخذ انت هذا الخاتم واعلم أن بنطاؤر قد جرّ العقوبة على نفسه بسببنا ، لانه دافع عنا دفاع الابطال وعاملنا بشهامة الرجال . قال : ما برح خيال هذا الشهم مرسوما فى ذاكرتى وانى لأبذل حياتى بل ابيعها رخيصة فى التحيل لنجاته . غير أنى اتمنى التوفيق

(١) كان للنساء فى مصر حق التصرف فى أموالهن . وفي الورقة السابعة من أوراق البردى المحفوظة ببازيس صورة مخالصة بين ارسيزيس بن احد محنطى طيبة واسكيباس زوجة أحد دافنى الموتى أو خادمه وكان ابوها مدينا لزوجها أو مخدومها

لانجاح ما خطر بخاطري الآن من التدبير الذي ارمي به الى الحيلولة دون ذهابه الى معادن الذهب . وقد عاهدت نفسي على ان لا أتعاطى نبيذاً وان استعيض عنه الماء ليخلص دماغي من شوائب الخبل والاضطراب ، فلا يطيش سهمي أو يذهب سعيي أدراج الرياح . قالت وردة : هاك يا أبت قليلا من النبيذ الممزوج بالماء . . اجرعه بالصحة والعافية ثم اذهب في قضاء مهمتك وعد عاجلا لتبشرني بخير ما فعلت . قال : تتعذر عليّ اجابة سؤلك لاني راحل في انتصاف الليل ، ولكن اذا جاءك رسول بالخاتم من عندي كان ذلك آية توفيقي للنجاح فيما اردت . فلما سمعت وردة هذا القول دخلت العش فدخله ابوها على أثرها ليستأذن من أمه في الرحيل ليودعها ، ثم قال لفتاته : ان ما اتحفتك الاميرة به من الهدايا السنية كاف لقضاء مطالبك حتى اعود . اما أنا فيكفيني نصف المبلغ الذي تبرع لك به الطبيب . . ولكن لمَ لا أرى زهرة الرمان التي اقتطفتها الآن ؟ اجابت وردة : وضعتها في مكان حريز لصيانتها . قال : عجباً للنساء في طباعهن وميولهن . ثم قبل جبين ابنته وسار سيراً حثيثاً في الطريق الموصل الى ضفة النيل .

وكان راميري في هذه الاثناء يجدّ في السير جاعلا وجهته موردة المقابر التي تبرحها السفن المخصصة لنقل الاسرى ليلا ، ليستجمع البيانات الدقيقة عن السفينة التي تقرر سفرها الى محاجر رحنو . فلما وصل اليها عبر النهر ودخل القصر الملكي حيث اجتمع بأخته ونيفرت فألفاهما في وجد وقلق اذ ابلغهما رئيس التشريفات نقلا عن بعض حاشية آني

المخلصين لفرعون أنه أمر بوقف تصدير المراسلات الى الجيش المصرى فى الشام ، ولو كانت من ابناء رعمسيس اليه . وأيد الخبر عند بنت انات أن أحد الحجاب المقيمين على الولاء لرعمسيس وافاها بنبأ اعتزام آنى تنفيذ تدبير يقصد به اغتصاب الملك وطلب منها أن لا تأمن جانب نيفرت بالنظر لما بين والدتها وآنى من الصداقة الوثيقة العرى .

ولما بدا لبنت انات انه لم يبق ريب فى طموح آنى الى الاستيلاء على صولجان الملك بدلا من والدها نبأته بعزمها على الرحيل الى هاتور الزمردية لتلتمس الطهر فى معبدها المقدس . ولكنها كانت تريد فى الحقيقة موافاة والدها منه ، وهو قريب من الشام ، بما يدسه له الوالى من الدسيسات ويدبره من المكائد ولاستئذانه فى التوجه الى المعسكر الملكي . ولقد فاتحت صديقتها نيفرت فى هذه النية فكادت تطير فرحا وابتهاجا لانها كانت ترجو ان يمهد لها الرحيل مع بنت انات طريق اللقاء بزوجها المحبوب فلم يسعها الا أن تحضها على إنفاذ عزمها وإعداد المعدات اللازمة له .

ولما سألهما راميرى عن أحوالهما أخبرتاه بما جد من الحوادث . فقص الامير عليهما ما اتصل به من الاخبار وألمع الى شقيقته أنه وقف على حقيقة ما اعتزمته ، وكان يتوخى فى لهجته الظهور على خلاف عادته بمظهر الجد والرزانة . ولهذا أيقنت بنت انات ان هناك أخطارا تتهدد العرش من جراء الدسائس التى يدسها الوالى لاغتصابه .

وقد استحسنت الاميرة ما اتخذه راميرى من الحيطة للذهاب

بعد غروب الشمس الى جهة (قطبوس) مصحوباً بثقة خبير بجوب الصحراء والوصول معه راكبين متون الجياد الى سواحل البحر الاحمر، وان يستأجرا من هناك سفينة فينيقية تنقلهما الى آيلا (العقبة) ويجتازا بعدئذ الجبال الصخرية الممتدة فى شبه جزيرة سيناء ويلحقا بالجيش المصرى لايقاف رعمسيس على ما يدبره آنى له من الدسائس ويحيكه من الحيل لنزع زمام الملك من يده . وأخذت بنت انات على عهدتها انقاذ بنطاؤر، مستعينة في أداء هذه المهمة برئيس التشريفات . وكانت ترجو تحقيق الآمال لا سيما والخزينة عامرة بالأموال ، ينفق منها الخازن ذات اليمين وذات الشمال ، وهو من المخلصين للأسرة المالكة . وانما الصعوبة الوحيدة كانت فى التغلب على ربان السفينة بحمله على توجيهها صوب رحنو لاصوب الجنوب كما أوعز اليه به . لان نكبة الشاعر بالمقام فى رحنو أهون منها به فى معادن الذهب . وقد اتفقت آراء الجميع على انفاذ رسول ثقة الى حاكم رحنو ليسلمه كتابا فيه أمر ملكي بضبط كل سفينة تمر ليلا بالقرب من أسوار المدينة وحجز الاسرى المحكوم عليهم بالنفي الى الحبشة لاستخراج الاحجار . وقام راميرى بعدهذا الاتفاق فاستأذن من شقيقته ونيفرت فى الرحيل من طيبة فغادرها دون أن ينتبه أحد .

أما بنت انات فقد سجدت امام التماثيل الاوزيريسية لوالدتها وأمام تمثال هاتور وصور الآلهة حفظة الأسرة المالكة ، وظلت تدعو وتبتهل الى ان عاد رئيس التشريفات فاخبرها بنجاح مهمته لدى ربان

السفينة اذ استكتبه عهداً بالوقوف تجاه محاجر رحنو وبأن لا يبلغ الى آنى مخالفته الامر الصادر اليه ، فطابت نفس الاميرة لهذا الخبر . وكانت قد اعتزمت ، فيمالو امتنع الربان عن الامتثال لارادتها ، التوجه الى موردة المقبرة لمنع السفينة من مزايلة مكانها .

وفى اليوم التالى اقبلت راتوتى على القصر تبغى اللقاء بنيفرت ومحادثتها فى أمر ما ، فأبت بنت انات مقابلتها وبادرت نيفرت باستقبالها فما هي الا هنيهة حتى طرق الاسماع صوتها رافضة ما اقترحته والدتها عليها من العودة الى بيتها والعدول عن السفر مع الاميرة لتأمن عليها من اخطار الطريق . ولما يئست راتوتى من اقناعها بالامتثال لها قصدت الى آنى من فورها والتمست منه العون على منع نيفرت من مغادرة الديار وأغرته بها اذ طلبت منه القبض عليها فى خروجها من أبواب طيبة ومعاملتها بالقهر والشدة حتى تعدل عن مرافقة الاميرة فى رحلتها الخطيرة . وكان آنى يود من صميم فؤاده أن تبرح بنت انات مدينة طيبة كيلا يعوقه وجودها عن تحقيق مقاصده الاستقلالية ، فأجاب : ليهدأ روعك فقد عولت على ان ارسل فى أثرهما من يتولى منعهما ، اذا ما دخلتا هيكل هاتور ، من مغادرته فتبقى الاثنتان به حتى يتم لنا الامر ويتيسر لك تزويج نيفرت من بعا كر الفظ اذا كنت مصرة على عزمك .

وفى اليوم التالى ودع الوالى بنت أنات وصديقتها نيفرت وشيعهما بما يليق بهما من مظاهر الاجلال ، ثم انصرف . وأخذ ركب الاميرة سمته الى مرسى السفن فشيعها اليه كهان هيكل آمون ، وفى طليعتهم

الكاهن بك ان شونسو . وكان المرسي غاصاً بوفود الناس على اختلافهم تقاطروا من كل ناحية لتوديع بنت أنات . فلما أن بلغت اليه صاح هؤلاء الوفود صيحات الهتاف وانطلقت السنتهم بالدعوات يستمطرون عليها بهـا وافر البركات . وقد اندس بين الحاضرين رهط من خصوم رعمسيس فاستطالوا فى حق ابنته الراحلة بالسب الفاضح ، إلا أن اصواتهم به لم تبلغ مسمعاً بل تلاشت فى اصوات الجموع الزاخرة وأدعيتهم تتقتواترة . وكانت سفينة حجاج هيكل هاتور تتبعها سفينتان كبيرتان الملان عدداً وافراً من الجند . وكانت ريح الجنوب شديدة ، فكورت أشرعة السفن الثلاث ودفعتها الى الامام صوب مصب النهر ، فصوبت بنت أنات بصرها الى القصر الملكى وما حوله من الحدائق الغناء ، ثم الى ناحية المقابر والهيا كل الباذخة ، وظلت شاخصة فيهـا تارة وفى القصر طوراً حتى اختفت تلك المشاهد والمعاهد عنهـا خلف حجاب الافق ، ولم يبق أمامها وخلفها الا النيل تحف به ضفتاه يمنة ويسرة . عندئذ فاضت عينا الاميرة بالدموع ثم تنفست الصعداء لمـا رأت من حولها الصحراء مترامية الاطراف الى أبعد مدى وأحست بشعور جعلها تظن بنفسها أنها برحت قصر أبيها ملتمسة الفرار أو مغلوبة على أمرها ، وان قد لحق بها الهوان والصغار . ولكنها لم تلبث أن عاودها الأمل فوطنت النفس على الصبر ولقاء كوارث الزمان بالثبات والجلد . ثم دنت من المخدع الخاص بها في السفينة فاذا ببابها فتاة ملثمة ، ما كاد يقع نظرها على الاميرة حتى اماطت اللثام عن وجهها وقالت : أيتهـا

الاميرة تجاوزى عن زلتى واصفحى عنى الصفح الجميل ، أنا وردة التى دهمتها مركبتك ثم نلت من احسانك وعطفك ما كان سبب شفائى . . وانبئك الآن بأن قد توفيت جدتى ، فلما رأيتنى وحيدة تنكرت واختلطت بنساء حاشيتك لأكون دواماً فى خدمتك ، أفترضين بى خادمة أمينة؟ . . قالت الاميرة : انه ليسرنى وجودك معى ياوردة . ثم مرت بكفها على شعرها المرسل فتذكرت وردة ما كان يفعله من ذلك معها الامير راميرى اعجاباً بشعرها ومن وضعه فى غدائرها وردة وازهاراً تحكى خدها نضرة واحمراراً .

الفصل التاسع

قفار موحشة خطيرة وقلوب حزينة كسيرة

لما مضى شهران على اعتقال بنطاؤر وسفر بنت أناث ، كان جم غفير من الرجال وعدد عظيم من الدواب المحملة بالاثقال يسيران فى واد ضيق يدعى وادى (انت بابا) بالجهة الغربية من شبه جزيرة سيناء (١) . وكان ذلك فى منتصف الصيف ، وكانت الشمس محتدمة الحرارة تنعكس أشعتها على الصخور الصلدة فينبعث منها بريق يرتد عنه الطرف حسيراً . وكان فى طليعة السائرين ثلة من الجنود الليبيين وفى المؤخره ثلة أخرى منهم مسلحين بالخناجر والدروع والرماح ، على أهبة الدفاع فى كل آونة عن نفوسهم . وكان الاسرى الذين نيطت بهؤلاء الجنود حراستهم كثيرا مايزعون للعصيان بالاغراء والتحريض من الزعماء الناقمين . وكانوا مرسلين الى سواحل البحر الاحمر لتسخيرهم فى نقل الذخائر والمؤن الوارده من مصر برسم الجيوش بعد طرح ما حملوا به من المعادن برسم الديار المصرية .

وكانوا يمشون الهوينا بادية على وجوههم علامات الكلل والاعياء من ثقل تلك الاعباء . وكانوا يرسفون فيما كبلوا به من

---

(١) بحث الدكتور ايبرس بالتفصيل فى شؤون شبه جزيرة سينا وتاريخ اما كنها المقدسة فى كتاب طبعه باللغة الالمانية عام ١٨٧٢ وقد وصف فيه تلك الارجاء وصفا دقيقاً

القيود ، ولم يكن عليهم من الاطمار سوى مايستر عوراتهم . وكانوا على الدوام ينظرون الى الارض مطرقين ، فان توانى أحدهم ابتدره أحد الفرسان المحافظين عليهم بضربة سوط يستحثه بها على مواصلة السير بلا وناء فكان لامناص لهم من أحد أمرين ، اما إدآب السير بلا توان واما الضرب بالسياط . وكان لا يسمع من الاسرى ولا من الأحراس همس بكلمة ، حتى ولو ضرب الاولون ضرباً مسرفاً مبرحاً ، ذلك لأن عضو الصوت فيهم قد تلاشت قوته كما تلاشت فى قلوب الآخرين عواطف الرحمة والحنان أو كما تتلاشى الحشائش الخضراء على الصخور المحرقة الجرداء .

كان الاسرى يمشون بعضهم على رسل بعض فلا يجرأ أحدهم ان يخاطب زميله بكلمة ، بل كانوا كالطيف يمرون متعاقبين من جهة واحدة ، وانما كان يطرق الآذان فى بعض الاحيان قرقعة انحدار الاحجار تحت أقدام السائرين أو نفثات المصدورين من أولئك المظلومين . وكان مما يزيد فى كآبة هذا المنظر ، ولا سيما اذا علا النهار ، تعطل الارض مما ترتاح له الانظار من زينة الاشجار والازهار والحيوانات والاطيار .

وكان أولئك التعساء قد برحوا الجون فى ظهيرة اليوم الماضى فظلوا ساعتين فى سير مغذ متتابعين سواحل البحر الاحمر (١) فاجتازوا

---

(١) سمي البحر الاحمر احمر اما بسبب الصخور الحديدية التى على سواحله واما لان الاحباش كانوا يسكنون بعض هذه السواحل . وكانوا معروفين عند الاقدمين بالرجال الحمر وسمى البحر الاحمر فى احد النصوص القديمة باسم « مياه البلاد الحمراء »

هضبة بلغوا منها الى مدخل مسيل مفضٍ الى المناجم ، فوقفوا عنده التماس الراحة فى الليل والتجأ الاحراس الى الصخور لينام عندها وأشعلوا النار ورتبوا الحراسة اذ جعلوها مناوبة بينهم . أما الاسرى فلبثوا فى بطن الوادى ، لا نار عندهم يصطلونها ولا أغطية يقون بها جسومهم التى أنهكها التعب وأضناها العذاب ، فارتعدت فرائصهم واقشعرت جلودهم لشدة القرّ وتمنوا ان لو تبزغ الشمس لتنقذهم بحرارتها من شر ما هم فيه ، مع أنهم كانوا فى النهار يترقبون اقبال الليل للتخلص من حرارة الشمس وعذاب النقلة وإدآب السير . وهكذا يتمنى المرء فى الصيف الشتا فاذا جاء الشتا أنكره .

وقبل التأهب للمسير وزعت عليهم الأغذية من مطبوخ العدس ويابس الخبز وقليل الماء ، فلما تماطوا ذلك وأوغلوا فى المسيل الضيق تحف بهم الجبال الشاهقة عن ايمانهم وشمائلهم لم يلبثوا ان شعروا بالشمس ولكأنها نار الله الموقدة وبأشعتها ولكأنها سهام محرقة . ولقد أفضى بهم ذلك الطريق الى مكان ضيق لم يستطيعوا المرور به الا فرادى . وكان يخيل لهم فى بعض الاحيان بسبب اعتراض الصخور أنهم بلغوا من الطريق الى نهايتها ، ولكنهم كانوا إذا دنوا منها انفتحت المسالك عن يمينهم أو عن شمالهم فيستقر فى اخلادهم أن عذاب السفر لم ينته بعد ، وان آمالهم فى الاستقرار قد ذهبت أدراج الرياح . وكان للصخور فى بعض الجهات اشكال تخيلها للرائى قلاعا حصينة شيدت بحجارة منحوتة ، ولم يكن فى الاسرى جميعاً سوى رجل واحد كان يجيل

الفكر فى ميدان التأملات ويمعن النظر فى العبر ، وكان ممتازاً على صحبه بقوة الاساطين ومتانة البنية وعدم التأثر بعبء ما يحمل على عاتقه من الاثقال التى ينوء بها ذوو العصبة من الرجال ، إذ كان يناجي نفسه بقوله «فى هذه الفلوات التى تنبو عنها العين ولا يطمئن القلب أغفل (الشنيمو) الذين عهد اليهم تكوين الارضين تمهيد تلك الذرى الشبيهة بنصال الرماح المصوبة وسد هـذه الاخاديد التى يهوى الى قاعها الغافل ، فصارت للسائرين فيها عذاباً ولا عذاب الجحيم . ولست أدرى كيف عزوا الى الالهة هاتور ربة الحنان والرأفة تلك الفيافى القاحلة التى لا يسع الانسان فيها مهما جبـل على الشفقة والرحمة الا أن يغلق أبواب قلبه دونهما » وكان هذا الرجل المناجى نفسه قد انحرف عن الطريق فانفتل اليه أحد الملاحظين وقال : لا تبعد عن طريقك يا « هونى » .

ما طرق هذا النداء سمعه حتى استقام فى طريقه ، إذ دنا من رفيقه فى البؤس والشقاء ، وهو عين رفيقه فى السعادة والهناء الطبيب نبسشت . وما كان ذلك الاسير الطويل القامة المتين البناء غير الشاعر بنطاؤر ، وقد أدرج اسمه فى كشف المحـكوم عليهم بالعمل فى المناجم باسم « هونى » . أما الاسرى الباقون فقد أخذ منهـم الجهد وأعياهم النصب وأملهم طول الشقة فتثاقلوا فى المشي وزادهم تثاقلا انهـم كانوا يصعدون في منحدر من الارض مفروش بحصي أحمر واسود ، يبدو من شكله أنه كان أحجاراً كبيرة ثم كسرتها يد الانسان . وما وصلوا الى نهاية السبيل حتى انفتح أمامهم سبيل آخر كالشعب بين الجبلين وخيل

لهم أن نهايته سداً لامنفذ منه الى ما بعده . فصاح رئيس الاحراس فى أعوانه أن انزلوا الاحمال عن متون الحمير وضعوها فوق ما يحمل الاسرى من أمثالها . فتدرع هؤلاء بالصبر واستمدوا من همهم قوة جديدة وقدرة على اجتياز الدرب . وكان الاسير الذى يتقدم بنطاؤر شيخاً ضعيفاً نحيفاً فما كاد يتوسط الشعب حتى هوى الى الارض وانصب الملاحظ عليه ليصب على رأسه سوط عذاب ، جزاء على ما أبداه من وهن . الا أن ضيق الطريق حال دون وصوله اليه ، فما كان منه الا أن رماه بحجر ليستفزه به على النهوض ، وحاول المسكين ذلك بما استجمع من قواه الخائرة وجهوده الفانيه ولكنه لم يلبث أن هوى الى الارض ثانياً متوجعاً من هول ما أصابه . وما سمع بنطاؤر توجعه وأنينه حتى تذكر المحنط بينهم وقتما كانت طغمة المتظاهرين يرشقونه بالاحجار ومر بباله ما كان من حسن بلائه فى الدفاع عنه وما حدث بعقب ذلك من حضور بنت أنات . وما مضت فترة من الزمن قصيرة بعد هذه الذكرى حتى اتجه بنطاؤر ، بدافع الرفق ولطف الشعور ، نحو الشيخ الرازح تحت حمله الفادح فأخذ ما كان يحمله من الاثقال ووضعه على كتفه فى الحال ، ثم ساعده على النهوض وأدرك معه القافلة التى واصلت السير حتى بلغت الى نهاية ذلك الطريق المتعرج الكثير الملتويات والمنعطفات .

وهناك أخذت بنطاؤر قشعريرة الخوف والفزع ، إذ أرسل النظر فرأى عند قدميه هاوية لا يصيب البصر آخرها ثم أرسله كرة أخرى

الى فوق فرأى جبالا تناطح ذراها السماء مختلف ألوانها فمن أزرق الى أصفر كالكبريت الى اسود الى احمر يبدو للرائى كأنه خضب بدماء سفكت فى قمتها فانحدرت الى سفوحها . وقد تذكر عندئذ بحيرة (موث) التى يحيط بها فى طيبة مائة تمثال برؤوس الآساد للألهة هاتور، فخيل له أن تلك الجبال السامقة ليست الا تلك التماثيل تضخمت حتى بلغت الى ذلك القدر . واندفع فى تيار الخيال فصوّر له أن هذه الجبال أو التماثيل الاسدية الرؤوس قد فغرت أفواهها وان الدم يصعد الى رأسه من شدة الذعر ، وسمع طنيناً ظنه زئير تلك الآساد الوهمية وتمادى فى الوهم والتظنى حتى وقع فى نفسه أن الاثقال التى أنقضت ظهره ماهي الا مخالب هذه الاساد أنشبت فى صدره .

وما وصل الاسرى الى نهاية الطريق حتى طرحوا الاثقال عن متونهم وتراموا على الصخور يلتمسون الراحة فاقتدى بنطاؤر بهم . ولما نال قسطه منها واطمأنت نفسه زال عنه الاضطراب وتلاشت من أمامه الخيالات وأتيح له فهم ما يسمعه من القول وادراك مايراه من المرئيات، وعاودته قوة الفكر . وكان كل من الشيخ ونبسشت الى جانبه ، فأخذ الشيخ يمر بيده على أوداج بنطاؤر وقد انتفخت ، واستدر عليه بدعائه البركات السماوية . وشهدهما رئيس الاحراس فتقدم اليهما وقال لبنطاؤر : ماذا أصابك ياهونى وفيك من القوة مايعدل قوى ثلاثة رجال ويستفزنى على اضافة حمل الى ما تحمله من الاثقال . فنظر نبسشت اليه متغيظاً وقال : ان الآلهة يقابلون دعوات المظلومين بالقبول والاجابة

وهم يثيبون المحسن على احسانه ويعاقبون المسيء على اساءته . فالتفت بنطاؤر برفق الى الشيخ وقال : ان مكافأتك إياي بهذه الادعية كفايتي. ثم نظر الى نبسشت وقال : وأنت أيها الساخر بحوادث الزمان ، مالى أراك باهت اللون وكيف حالك ؟ أجاب الطبيب : حالى كتلك الحمير التى تراها واقفة هناك ترتعد فرائصها من الاعياء والألم . ولست أشتهى أكثر مما تشتهيه هي من العودة الى مقرها الذى اعتادت فيه الراحة والعلف . فتبسم بنطاؤر وقال : أهنئك بما أوتيت من قدرة التفكر ونحن فيما نقاسيه من الاهوال ، لأن هذا دليل استقامة أحوالك وجودة صحتك . قال نبسشت : بينما كنت أنظر اليك الآن وأنفك فى الهواء وعيناك شاخصتان فى السماء مرت بخاطري فكرة ساطعة . يقول الكهان أن الذكاء هو القوة المحركة للعالم وأن الروح خميرة القطعة الطينية المسماة بالانسان . ولقد بحثت عن مقر العقل أفى القلب هو أم فى المخ ، فذهبت تجاربي وابحاثى ادراج الرياح . أما الآن فقد أيقنت أن مقر العقل فى قوة الساعدين وصلابة الساقين ، ومع انى الآن فى حالة لا تؤذن لى بالتوسع فى هذا الموضوع فقد عولت على أن احترم فى المستقبل ساقيّ وساعدي كما كنت احترم فى الماضى عقلى وفكرى . وبلغ صدى هذه الكلمات الى سمع رئيس الاحراس فصاح بهم قائلا : الى متى هذه المناقشات أيها الرجال ؟ هلموا الى المسير واستعدوا لعذاب السعير .

نهض الاسرى فوضعوا الاثقال على الحمير ثم على أكتافهم

واستأنفوا المسير يبتغون الوصول الى المناجم قبل غروب الشمس . وكانت بوسط واد فسيح تحيط به أوعار جبال صخرية عالية كان المصريون يسمونها (تمسكا) والعبرانيون (دوفكا) . وكانت صخور الجبل الجنوبي منها من الحجر الأعبل الاسود اللون وصخور الشمالي منها الذى يلي معادن الفيروز من الجص الاحمر . وعلى مقربة منها معادن النحاس فى مضيق عمودي الاتجاه[1] على ذلك الجبل . وكان بوسط هذا الوادى أكمة تحيط بها أسوار عالية وبيوت صغيرة مبنية بالاحجار لسكنى الاحراس والضباط والمفتشين والمراقبين[2] . ولم تكن سقوف تلك المساكن ثابتة فى أماكنها ، اذ كانت العادة المرعية وقتئذ بسبب ما ينشأ عن البرد الشديد من الامراض ، أن تغطى المبانى بعد الغروب بغطاء متخذ من سعف النخل المجلوب من واحة العمالقة القريبة من هذا الوادى .

انقضى على بنطاؤر ونبسشت شهر مع عمال المعادن فى وادى (مفكات) دون أن يقف الشاعر على سبب ارساله اليه وبقائه فيه ، بل ولا على سبب مقاسمة الطبيب له هذا العقاب الجائر ، لا سيما والمعروف أنه كان سيرسل الى محاجر رحنو . وقد حار فى تعليل هذا الاختلاف ولكنه تذكر أبا وردة ، وهو احد الاحراس ، فلم يستبعد أن له ضلعاً فى تغيير وجهة السفر ، مع أن هذا الجندي الهمام لم يخاطبه

---

(١) استكتشف هذا المضيق حديثا السائحان بلمر وولسن ووصفاه في كتابهما الموسوم « صحراء الخروج »

(٢) يسمى الوادى الان وادى المغارة وما زالت ترى فيه آثار المعادن

بكلمة واحدة منذ رافق الاسرى من طيبة . غير أنه ما وصلت القافلة الى الوادى حتى دنا منه الجندي وسارّه بقوله : لا تخش ضيراً فأني محافظ على حياتك وستجد هنا الطبيب نبسشت فتظاهر بخصومته وليفعل هو كذلك ، والا فرق بينكما .

بادر الشاعر فأطلع صديقه على نصيحة الجندي فاقسم الطبيب ليعملن بها بقدر ما يتفق مع مزاجه وينطبق على علاقته الذاتية ببنطاؤر ، فقد كان يذكره بأفكاره الحكيمة التى خالفتها الحقائق المشاهدة ويقول له : أينت القدرة الالهية التى ترسل من أوج السماء بين الناس أشعة رحمتها لتسكين الخواطر الثائرة وتوطيد دعامة العدل . . أين الانصاف المانع لوقوع الشقاق والخلاف بين الناس ؟ . وكان الطبيب يسترسل فى هذا المزح كلما زادت آلامه وتراكمت أشجانه ، ولم يكن ميله اليه بقصد التهكم على صديقه ، بل لقضاء الوقت فيما يدعو الى ارتياح النفس ويمحو من القلب أثر الحزن . وكان كلما لمح حارساً من الاحراس أفاض فى المزح بعبارات لا يدرك معناها السامعون ، ويزيد فى تعقيدها تعاجمه ولعثمة لسانه حتى يخيل لأولئك الاحراس ان نزاعاً ثار ثائره بين لاثنين فينأوا عنهما بجانبهم وينفلون مراقبتهما . ومن مبهم العبارات التى كان الطبيب يكررها على سمع بنطاؤر قوله : يا غلاف المعارف الربانية . . يا أيها المشعوذ الذى يحاول اقناع الناس بأن الدنيا دار ملاذ ومقر هناء وسعادة . . يا أيها المعجب بآثار جراحه الزرقاء ، الى غير هذا من العبارات التى كان يدرك الشاعر والطبيب معناها ويرد عليها

بنطاؤر بألفاظ عذبة ومعانى دقيقة لا يفهم الاحراس شيئاً منها .

وكثيرا ما كان ينقلب المزاح بينهما على هذا النمط الى مناقشة ليست فى شىء من المزح ، وانما هي جد يقتطفان منه ثمر تبادل الافكار فى العلوم والمعارف التى كانا لا يكفان عن الاشتغال بها قبل وقوعهما فى أحبولة الاسر . وكان بنطاؤر ونبسشت يشتغلان النهار كله ، أولهما فى معادن النحاس والثانى فى مناجم الفيروز ، فاذا أرخى الليل سدوله تلاقيا فى مكان واحد فتبادلا عبارات الوداد والسلوان وعزى كلاهما الآخر وآساه على مصابه . وكانوا قد قرروا لكل منهم عملا يناسب قوته الجسمية ، فكان الطبيب لهزاله وضعفه يشتغل بازالة الطبقة الترابية المغلفة لأحجار الفيروز . أما بنطاؤر فكان لمتانة قواه وجودة فصوصه يقطع أحجار المعدن بالمعاول الكبيرة الثقيلة ويدأب على العمل بما يوجب رضاء رؤسائه وارتياحهم منه . وكان فى اثناء قيامه بالعمل المفروض عليه يتمثل بنت اناث ماثلة أمامه ، يحيط بها الشبان يعالجون الفوز بالقرب منها فيبالغ فى ضرب الاحجار بالمعول ظنا منه انه يضرب أولئك المزاحمين له على حب تلك الغادة الفاتنة ، ويقضى على حياتهم الواحد بعد الآخر . وكان يمسك احيانا عن العمل ويمد ذراعيه كمن يريد أن يضم الى صدره محبوبا شاقه الوجد اليه ثم يلقيهما الى جنبيه متنهدا كاسف البال ، كمن يهب من نومه والاحلام تداعبه فيرفعها الى جبهته ليمسح ما يقطر منها من العرق الغزير . هذا الشاب الذى جمع الى كرم الخلق وسلامة الطبع همة الابطال وقسوة الرجال أصبح فى نظر

حراسه ونظر نفسه سرا لا تستبطنه الأفهام ، اذ كان يسائل نفسه عما طرأ عليها من التغيير وكيف أنه بعد أن ولد من أب وأم لم يكن لهما همّ ولا وكد سوى التماس الهناءة ونعيم البال فى شظف العيش، وبعد أن ربى فى بيت سيتى مهد العلوم ومعهد السلام ، اصبح وكأن فى نفسه قوة خفية تسوقه الى الجلاد فى ميادين القتال . وكان كلما حلق فى اجواء هذه التأملات ثارت فيه نخوة الشجعان وهمّ بالنزول فى حومة الوغى ، ولكن أين الميدان ؟ وكان أول شعوره بهذه الميول الحربية ليلة اتخذ من الطنب المنصوبة أمام كوخ المحنط بينم سلاحاً دافع به عن هذا الشيخ المسكين الذى اغتاله الطغام وعن حفيدته وردة .

وكان العمال قد وهنت قواهم بمواصلة العمل والحراس وسئموا استمرار المراقبة فعمدوا الى مضاجعهم وناموا جميعاً بينما كان ملاحظ المناجم وجماعة الضباط فى منزله يصطلون النار جالسين على شكل حلقة واسعة ، فقال كبير الضباط لزملائه : اشربوا ما بقي فى أقداحكم من المدام ثم ليدن بعضكم من بعض للمشاورة ، فأن عندى أنباء خطيرة تحتاج الى إعمال الروية وقدح زناد الفكر ، فقد قيل ماخاب من استشار . وخلاصة الخبر ان الوالى بعث الىّ مرسوما يأمرنى فيه بتوجيه نصف رجالنا الى (بيلزيوم) تعزيزاً للجنود المرابطة بها ، ولكن اخشى ان نحن نقص عددنا ان ينتهز الاسرى هذه الفرصة لاثارة غبار الفتنة ونشر لواء العصيان . وهم ان اقتصروا على قذفنا بالاحجار من قمم الجبال أبادونا عن آخرنا وسدوا فى وجوهنا ابواب الرجاء فى الفوز عليهم ، فكيف بهم

وهم يحملون آلات العمل (١) فى النهار وهي سلاح يقوون به علينا . دع ان العبرانيين العاملين في معادن النحاس اشد خطراً منهم . ومع هذا فانى لا أخشى أذاهم وان أكن أحس فى قلبي خفقانا شديدا وفى ضميرى قلقا وانزعاجا، وهو ما يحملنى على الحكم بحرج مركزنا هنا . ولايخفى أن الغابة المجاورة لنا هي التى تؤخذ الاخشاب منها للوقود ، وقد أشرفت على النفاد بحيث سنضطر منذ الغد الى التماس الخشب اللازم لافران المعامل بغيرها أو نرسل شرذمة من الجند الى رفيديم (٢) لجلب الاخشاب التى حق على جماعة العمالقة ان يقدموها الينا . فعلينا لدفع تلك الاخطار أن نحمل الاسرى ما لا يطيقون من النحاس لنوهن قواهم ونتقي شرهم ، ولكن اذا تم لنا هذا التدبير فما الوسيلة للمحافظة عليهم ؟

أطرق الحاضرون رؤوسهم مفكرين ثم بسط كل منهم رأيه فتقرر إرسال شرذمة من الاسرى يومياً بقيادة بعض الجند للاحتطاب وأن يكبل العصاة والمشاكسون بالقيود ، فاعترض الملاحظ على هذا القرار بأنه اذا قرن اثنان فى قيد واحد ازدادا قوة بضرورة اتفاقهما على العمل . قال رئيس كتبة حساب المناجم : الرأى الراجح أن يقرن كل رجل متين القوة وثيق الاعضاء بآخر ضعيف ، ويحسن ان يكون الاثنان خصمين كلاهما للآخر ، اذ يستحيل الاتفاق بينهما . قال أحد الضباط : كأن يوضع

---

(١) كان شكل آلة عمال المعادن المصريين كديل الخطاف اذا اتخذه حامله سلاحا فاز به على عدوه . وقد وصف المؤرخ ديودورس الصقلى فى الجزء الثالث من تاريخه احوال الاسرى المحكوم عليهم بالعمل فى مناجم الذهب الواقعة بين البحر الاحمر والنيل واهتدى الي تلك المناجم فى عامى ١٨٣٢ و ١٨٣٣ لينان بك دى بلفون وبونومي

(٢) رفيديم واحة في سفح جبل عريب

هونى القوي مثلا مع نبسشت الضعيف الذى لا يكف عن مجادلته .
قال رئيس كتبة المناجم : انى بما أدليت من الرأي الآن انما كنت أقصدهما . وعلى أثر ذلك جعلوا الاسرى فريقين يخالف أحدهما الآخر قوة وضعفا وينافره مزاجا وطبعا، ثم قرنوا كل واحد من فريق بنقيضه من الفريق الثانى وناطوا بالجندى والد وردة حراستهم . فلما كان فجر اليوم التالى سلكت أرجل الاسرى فى القيود ، وكان من بينهم بنطاؤر ونبسشت فقرن الاثنان فى قيد واحد . وما كادت الشمس تتكبد السماء حتى همّ الجميع بالمسير بعد أن رفعوا الى إكتافهم سبائك النحاس قاصدين الى واحة العمالقة يحرسهم ستة من الجند بقيادة ابن المحنط بينم . ولما أن قطعوا من الطريق شطراً كبيرا ثابوا الى الراحة فى نقطة (آوس) فاذا ما أخذوا قسطهم منها استأنفوا السير فى شعب ضيق بين صخرين من حجر السماق . وكانت الشمس فى وقت بلوغ الجند والاسرى الى هيكل هاتور الزمردية جانحة الى الغروب فرأى بنطاؤر طيوراً تحلق فى الفضاء فانشرح صدره لرؤيتها . وكان قد مر زمن طويل دون أن يقع نظره على ما سوى الصخور والجبال الجرداء والصحارى المتنائية الانحاء والفلوات العاطلة من حلية الحياة . لذا قال لاصحابه : أن مشاهدة الطيور فى مكان دلالة على وجود المياه به . وفى الواقع فانه ما كاد يتم كلامه حتى طالعت السائرين شجرة نخل وارفة الظلال وطرق آذانهم خرير الماء ساقطاً على الاحجار الصلدة فارتاحت صدورهم واطمأنت قلوبهم وانبثت الآمال فى نفوسهم .

وكان الى غرب الغدير ثلاثة سرادقات كبيرة من قماش معلم بخطوط زرقاء وحمراء يتخلل نسيجها المتين أسلاك الذهب ويحف بها شرذمة من الجنود المصريين . ولم يكن أحد يعلم من هم المتفيئون بظلال تلك السرادقات ، فلما مر جند الحرس بقيادة والد وردة أمام أولئك الذياذبة وأدوا التحية العسكرية برزت من السرادق الاكبر غادة تجر مطرفها الخز واتجهت نحو الاسرى وتصحفتهم جميعا وجها وجها ، فما أن وقف عليها نظر بنطاؤر حتى مرت بجسمه قشعريرة الدهش والفجأة بما لم يكن يتوقعه وخيل له أنه انما رأى خيالا لا حقيقة . أما نبسشت فقد صاح صيحة عالية دلت على تأثره بهذا الحادث الذى لم يكن يخطر بباله . ولقد رآهما أحد الاحراس وهما فى هذه الحالة فظن أنهما مختلفان على أمره فألهب كتفيهما بالسوط وقال : المشاتمة جائزة ولكن الملاكمة ممنوعة ؟ ثم التفت الى حارس وسأله : أرأيت الفتاة الفاتنة التى برزت من الخدر . أجاب : لا ريب أنها احدى وصيفات الاميرة التى نزلت بهذا المكان منذ ثلاثة اسابيع ، لاداء فريضة الحج فى هيكل هاتور . قال الاول : يؤخذ من كلامك ان الاميرة تلوثت بلوث الخطيئة فجاءت تلتمس الطهر . . لو كانت من عامة الامة لما أقامت بهذه السرادقات فى أسعد حال وأنعم بال ، بل لاشتغلت بتنظيف رمال المعادن أو بسحق الالوان . ولكن أين صاحب اللحية الشقراء ؟

وكان المقصود بهذا الوصف والد وردة وكان يتثاقل فى مشيته ويتمهل ، لان وردة وهي تلك الغادة الفاتنة أشارت اليه بالدنو منها فدنا

فتبادلت معه حديثاً قصيراً وهرول نحو الاسرى والجنود القائمين بالحراسة فلما أدركهم سار معهم فقال له أحدهم ممازحاً : أنت من أعرف الناس بمحاسن النساء . أجاب وقد بدت عليه أمارات الاستحياء : إنما هذه المرأة من وصيفات الاميرة ، وقد عهدت اليّ توصيل كتاب الى رئيس كتبة حساب المعادن ، ولست أشك فى أننا إذا نزلنا هنا على مقربة من هذه السرادقات الملكية نحظى بنعمة الالتفات الخاص ونطفىء أوارنا بجرعة من النبيذ العتيق . وقال آخر : ألا ترى هذا السكير يتحرى بأنفه أجود الشراب كما يتحرى الثعلب مكان الدجاج ؟ فلنقف هنا قليلا وليطرح كل منكم ما يحمله من الاثقال وليشرب هذا الماء الزلال وليأكل ما يساقط عليه من الرطب الجني . دع أنه لا بد من نزول المنّ علينا (١) فنغتذى به . ثم التفت الى هونى ونبسشت وقال : كفى عناداً ونزاعاً أيهما الشقيان والى متى الشحناء والضوضاء ؟

قضت بنت أنات بضعة أسابيع فى السفر بطريق النيل حتى وصلت الى بلدة (ريت) ، ثم اجتازت الصحراء على جملة مراحل ، مسيرة كل يوم مرحلة . فلما بلغت الى سواحل البحر الأحمر ظلت تنتظر

---

(١) المن مادة سكرية تفرزها شجيرة معروفة في علم النبات باسم تماركس مانيفرا وتنمو بكثرة في الاودية الخصيبة بالصحراء ويكون الافراز عادة فى مايو حيث يشبه المن عند ئذ الصمغ ويقول العلماء ان المن هو الذى ورد ذكره بهذا الاسم فى الكتب المنزلة . وأصلها أن العبرانيين لما عثروا على المن فى البرية قال بعضهم لبعض « من هو » اى « ما هو » فسمى بالمن . وهو الان يطلق على المواد السكرية التى تفرزها أشجار الطرفاء والبلوط والخطمى . ومنه الاسترالى الخارج من الاوكالبتس والفارسي ويسمى الحاجى ويعرف عند العرب « الترنجبين » . قال في وصفه ابن البيطار : « طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب واكثر مايقع على شجر الحاج وهو العاقول ينبت بالشام وخراسان » والسيناوى ويخرج من الاثل والطرفاء والكردستانى وهو عجينى القوام

أسبوعا وصول سفينة فينيقية لتقلها الى بلدة (فران) . فلما حضرت الى هـذه البلدة صعدت فى الجبال الشاهقة التى تلى سفوحها من الناحية الأخرى الواحات الفسيحة المشيد فيهـا هيكل هاتور الزمردية . وقد استقبلها كهنة هذا الهيكل بما يليق بمقامها الملكي من الاكرام والتعظيم ، الا أنهم تكلفوا الاكثار من الرسوم الدينية حينما كاشفتهم برغبتهـا فى التطهر من الدنس ، اذ عينوا يوماً لغمس جسمها فى المـاء المقدس وآخر لتطهيره بماء الغدير الذى يسقى منه النخل وثالثا لتلاوة النصوص المقدسة واطلاق البخور من المجامر ، الى غير ذلك من الطقوس الكثيرة التى جهرت الالهه هاتور من بعدها برضائهـا عن بنت أنات وصفحها عمـا ارتكبته من الغلطات . وكانت الاميرة قدمت اليها ما جلبته برسمها من التحف النادرة والهدايا النفيسة .

لما انتهت مراسم التطهير من الدنس صدرت أوامر الاميرة بالعودة فأتى الامتثال رئيس الاحراس وهو ضابط حبشي الاصل أنعم الوالى آنى على ابنائه بالرتب العالية ليتخذه آلة فى تنفيذ أغراضه ، وقال لرئيس التشريفات ان التعليمات التى تلقاها من الوالى قبل مغادرة طيبة تقضى عليه بحجزها فى الواحة حتى يرد اليه أمر جديد بشأنها . فلمـا أطلعها الرئيس على قول الضابط الحبشى احتدمت غيظا ، ولكنهـا كظمته وفاءت الى سكونها ، رجاء أن يصل اليهـا المدد من أبيها فيما لو وفق راميرى لأداء المهمة التى أخذ على نفسه القيام بها .

وكان لا ينقضى على بنت أنات ونيفرت يوم وهما فى هذا المكان

الا وينضاف الى همومها همّ جديد ، لأنهما أصبحتا ملتقى أنظار العيون التى بثت عليهما بل أسيرتين ذليلتين اتضع قدرهما وسقط جاههما فى نظر الجند الذين أصبحوا ولا همّ لهم الا العربدة وارتكاب المنكرات والعدوان على سكان الواحة بالأذى وسفك الدم على مسمع منها ومرأى وهي لا تستطيع شيئاً .

ولقد أحست ، بتوالى هذه الحادثات ، أن اليأس أخذ يستولي على قلبها وانها بعد أن كانت تسمو على العامة بجناحين قويين ، هما عزة المكانة وسعة الادراك ، هوت الى مهبط الذل وحضيض الصغار ، فأخذت من ثمّ تناجى نفسها بأن الحب الذى استقر فى فؤادها لبنطاؤر لا ينتهى الا بانتهاء الاجل . ثم خيل لها أنها ترى طيفه ماراً فبدت عليها أمارات التأثر الشديد لفراقه وأكسبها هذا التأثر هيبة وعزة وزاد وجهها جمالا ونضرة . وكان يتردد بخاطرها أنه قد تكون المنية أدركته او أنه وقع فى فخاخ الغادرين فتظهر عليها علامات الالتياع والجزع . أما نيفرت فقد جاءها من أمها كتاب تؤيد لها فيه خيانة مينا عهود الأمانة الزوجية وشغفه بالفتاة الاسيوية ، وان بنطاؤر لم يصل بعد الى جهة المناجم التى نفي اليها فأجمعت الآراء على أنه مات فى الطريق بحادث ما . قرأت نيفرت هذه الرسالة فلم يضطرب لها جأش ولم ينبض نبض ولم يخفق قلب بل لم يظهر بالمرة على وجهها ما يدل على تحرك عوامل الغيرة فى نفسها ، وذلك لأن ثقتها فى اخلاص زوجها مينا وقيامه على عهد الوفاء لها كانت ثقة لا حدّ لها . ولم تغير تلك الاقاويل شيئاً ما من

أحوالها، بل زادتها ايماناً بحب زوجها وبدلت فى نفسها من اليأس الرجاء حتى لقد كانت تقول لبنت أنات مساء كل يوم أن الامدادات ستصل اليهما في الغداة لتخلصهما من عناء ما هما فيه من ذل الاسر . وكانت تنساق أحياناً فى تيار المزح تلتمس به تسلية الاميرة وتسرية الهموم عن نفسها فتقول لها : لا يبعد أن نرى فى هذا المكان بيننا قرينى مينا بخيله ورجله ، ولكن من يرافقك فى هذه الحالة بصيوانك ويساعدك على قضاء الوقت فى الاحاديث الظريفة والنوادر المستملحة . وكيف نقسم الصواوين شطرين بيننا ؟ ثم أتفضلين يا ترى البقاء ههنا أو نرحل الى جنوب الواحة لتمتيع النظر بالمناظر الجديدة والمشاهد الجميلة ؟

كانت وردة فى خلال ذلك تقوم بما عهد اليها من العمل حائزة على رضاء الاميرة فى كل حال ، وكانت اذا جلست فى حضرتها لزمت الادب وحرصت على السمت والوقار ، فلا تتكلم الا بأذن ولا تظل جالسة الا بمسوغ ، وكانت إذا حدثت خلبت المسامع بعذوبة حديثها وطلاوة لفظها ورقة لهجتها ، واذا ضحكت خيل للسامع أن ضحكها رنين قطع البلور إذا تلاطم بعضها ببعض ، وإذا غنت بصوتها الرخيم أطربت الاميرة ونيفرت . ولا عجب إذا برعت وردة فى الغناء ، فقد كانت فى كل ليلة تنصت الى العجوز نيخت تتغنى بالاناشيد التى برعت فيها أيام صباها وتجتهد فى تقليدها حتى اتقنت الغناء ولم يضارعها في اجادته أحد بجميع الانحاء .

وقد سر الاميرة ما لمحته فى وردة من مخائل الذكاء والفطنية فآلت

على نفسها ان تربيها على أحسن المبادىء وتعلمها القراءة والكتابة. ولقد صادفت فى هذه السبيل عقبات حائلة وصعوبات مانعة، بيد انها بذلت فى تحقيق أمانيها جهد المستطاع واتخذت من الاجتهاد فى العمل سلاحاً تقطع به حبال الوقت الطويلة، حتى بلغت مايتجاوز المأمول من أمنيتها. وكانت من وقت الى آخر ترمق قمة الجبل الذى ضربت السرادقات على سفوحه بعينين تقرأ فيهما أيات التدله فى الغرام، فتنظر اليها وردة من طرف خفي وتدرك مكنون سرها. غير أنها كانت لا تستطيع أن تفاتحها فى شأن ما من شؤونها اجلالا لها واحتراما. وكانت تترقب الفرصة المناسبة للكلام فتقص عليها من ظريف النوادر ما له علاقة ببنطاؤر وأسرته فينصرف عنها الهم وتخف اعباء الكدر والحزن. وكان يتفق أن يمرّ الاسري أمام خيام الاميرة وهي جالسة تحت ظلالها مع نيفرت عند غروب الشمس تتطارحان الاحاديث في أحوال الملك ومينا وبنطاؤر، فلما مروا بعقب وصول كتاب راتوتى الى بنتها صاحت هذه قائلة: لا شك أن بنطاؤر لا يزال على قيد الحياة، وقد أصابت والدتى فيما كتبته لى، لانها لم تقل أنه مات بل قالت أن أخباره انقطعت وهو اذا استطاع الفرار فلا بد أنه جعل معسكر الملك وجهته لتحظى بلقائه فى القريب العاجل.

لم تجاوب الاميرة على هذا القول بل أطرقت رأسها حزنا، فشخصت فيها نيفرت بعين الرفق والاشفاق وقالت: لعلك تفكرين فيما بينكما من تفاوت المرتبة وتباين الشرف. قالت بنت أنات: انى

باختيارى إياه قريناً لى أجعله أميراً عالي الكعب رفيع المقام واجب الاحترام ، وإذا استطعت أن أجعل زمام الارض كلها بيديه وملكته الحكم على العباد كافة أفلا يكون أرفع منى مقاماً وأسمى قدراً وأشرف مرتبة ؟ قالت نيفرت مستحيية : وماذا والدك فاعل إذا رأى منك هذا الميل ؟ قالت الاميرة : يحبنى والدى ويكرمنى ويفهم مقاصدى . وقد انتويت ، إذا ظفرت بمقابلته ، مفاوضته فى جميع شؤونى ومطالعته بأسرارى كافة . وبعد أن سكتت هنيهة استأنفت الحديث فقالت : ليحضر الخدم السراج والنول لاقضى بعض الوقت فى النسج .

هرولت نيفرت الى باب الصيوان فالتقت عنده بوردة فأمسكت بيدها وجذبتها الى خارجه وسألتها : مالى أراك مضطربة ووجلة ؟ أجابت وردة : وصل أبى الى هنا مرافقا بعض الاسرى المقبلين من معادن مفكات ، وقد رأيتهم فاذا باثنين منهم قرنا فى قيد واحد ، ولا شك عندى فى أن أحدهما بنطاؤر . وقد حدثت أبى فى أمره فوعدنى أن يطلق سراحه . ولست أود أن تطلعى بنت أنات على هذا الخبر إذ الاحسن أن نتركها على غير علم به ليكون سرورها عند مفاجأتها بلقاء بنطاؤر أعظم منه فى حالة علمها بوصوله ، ثم اننى من جهة أخرى أخشى أن تتدخل فى أمره بما يمكن أن يؤدى الى فشل تدابيرنا . سألت نيفرت : أترين اننى أصلح لمساعدتك على إنفاذ مشروعك ؟ أجابت وردة : ولِمَ لا . . والذى أسألك إياه الآن أن تأمرى القيم بأرسال قربة نبيذ جيد الى الاسرى وتأتى لى بالقنينة التى فى متاع

الاميرة وتحتوى الشراب المخدر الذى يلقي شاربه فى سبات النوم، وما زالت تأبى الانتفاع به رغم نصائحك المتكررة .

فانصرفت نيفرت من فورها الى القيم وأمرته أن يذهب بقربة نبيذ مع وردة الى حيث ترشده وأن يعطيها من تعينه له من الناس، ثم دخلت مخدع الاميرة وفتحت صندوق عقاقيرها(١) وأخذت تفتش فيه . فسألت بنت أنات : عمّ تبحثين؟ أجابت : عن دواء ضد الخفقان . ولما عثرت على القنينة أخفتها فى كمها وهمت بالخروج من الصيوان لتعطيها وردة، وكانت وردة تنتظرها مع القيم خارجه، فلما أخذت القنينة من نيفرت تظاهرت بأنها تريد أن تشرب من قربة النبيذ فى حين أنها كانت تسكب فيه السائل المخدر دون أن تنبه القيم الى حقيقة الواقع . ثم قدمت النبيذ الى الاحراس الذين أنهكهم التعب . وقد وقع عليها نظر شاب من شبان المعالقة فقال : السلام عليك أيتها الغادة الهيفاء . . أقدم اليك أربع حجال(٢) ذبحتها بيدى وحجراً من الفيروز عثر عليه أخى بين الصخور(٣) وهو فأل السعادة وبشرى الخير لحامله وجالب النصر له على الاعداء وطارد الاحلام المزعجة(٤) فتناولت

---

(١) فى متحف برلين صندوق مصرى للعقاقير ثبت انه صنع قبل عصر رعمسيس الثانى « سيزوستريس » بزمن طويل

(٢) يوجد بقمة الجبل الذى يسميه رهبان طور سيناء جبل القديسة كاترينه مجرى ماء يدعى بغدير الحجال ويروون بشأنه حكايات غريبة ، منها ان مياهه تتفجر باذن الله من عيون كثيرة تشرب منها الحجال التى رافقت الملائكة الذين حملوا جثة القديسة كاترينه من الاسكندرية الى جبل طور سيناء

(٣) احجار الفيروز التى تستخرج من صخور جربال هى أجل احجار هذا النوع واحفظ للونها من الاحجار التى تستخرج من وادى المغارة

(٤) ما زال العرب يسندون هذه الفضائل الى احجار الفيروز

وردة الحجر ، وكان سنجابي اللون ، جميل الشكل ، وقالت : انى أشكر لك هديتك . ثم أخذت بيد الشاب وذهبت به الى مكان لا تهتدى اليه أعين الرقباء ، وقالت له بصوت منخفض : انصت يا ساليش لكلامى وع قولى . . قد ثبت لى الآن شرف نفسك وطهارة قلبك ولطف شعورك وعلمت من تأبدات الاميرة أنك قلت عنى اننى كوكب سماء هبطت الارض فى صورة إنسان . ولا ريب أن أحداً لا يقول هذا القول إلا إذا كان عاشقاً والهاً ، ولهذا لا إخالك الا كذلك لا سيما وانك ترسل الي فى كل يوم باقات الازهار النضيرة والطيور التى يصطادها ابوك برسم الاميرة . فان تكن هذه حقيقة حالك معى أفتقدر أن تقوم للاميرة ولى خدمة جليلة نعدها من أجل المنن علينا ونحفظ ذكراها لك مقرونة بالشكر مدى الدهر ؟ . . لعلك مجاوبى بنعم . . فاذا حققت رجائي فيك فانى مخبرتك بأن لمولاتى الاميرة صديقاً يهمها من أمره أن يكون فى معزل عن الرقباء بضعة أيام ، فهل لك فى إخفائه مع رفيق آخر له فى بيت أبيك القائم هناك على قمة الجبل المقدس ؟ أجاب الفتى : فلينزلا عندنا على الرحب والسعة فأن عادتنا إكرام المثوى وقضاء الحاجات . . وأين هما هذان الاجنبيان ؟ أجابت وردة : سيحضران هنا بعد ساعة . . أفتريد أن تبقى في انتظارهما حتى يطلع القمر ؟ قال الشاب : بل انتظر حتى يختفى القمر خلف حجاب تلك الجبال السامقة . قالت وردة : اجعل مكانك فيما يلى هذا الغدير فاذا حضرا واقتربا منك وذكرا لك اسمى ثلاثا فارشدهم الى بيتك ، ولست إخالك جاهلا باسمى .

قال الشاب : لقد أسميتك الكوكب الدريّ وأسميت كل امرأة سواك بوردة . قالت وردة : إذا بلغت الاجنبيين الى دارك ورضي ابوك أن يكرم فيها مثواهما فعجل بالعودة اليّ لتخبرني بهذه النتيجة ، وهاءنذه باقية في انتظار عودتك بباب الصيوان . وانني لآسفة من أنني لا أملك شيئاً معي الآن لاتحفك به جزاء صنيعتك وصدق ولائك ، ولكن لا تيأس فلا بد للاميرة من أن تجزل لابيك العطاء وتفيض في أسرته الخير فكن حذراً يا ساليس ولا تغفل .

قالت هذا ثم انصرفت قاصدة الى مكان أحراس الاسرى وهناك وجهت اليهم عبارات التمني أن يقضوا ليلتهم في هناء وسرور . ولما عادت الى بنت أنات سألتها عن سبب ما تراه من امتقاع لونها وكسوف بالها وقالت : هلمي الى سريرك فأنني أرى الحمى قد اعترت جسمك اللطيف . ثم التفتت الى نيفرت وقالت : أترين الدم يانيفرت وهو يجري في عروق جبينها ؟

وكان الاحراس في خلال ذلك يجرعون النبيذ الملكي ويهنيء بعضهم البعض لفوزهم بهذه السعادة التي لم تكن تخطر لهم ببال . وكان والد وردة يرقب حركاتهم وأقوالهم فاقترح عليهم أن ينعموا بشيء مما يشربونه على الاسرى فاستجاد أحد الاحراس هذا الرأي وقال : لقد أصبت إذ الواجب أن يكون لهؤلاء المنكوبين ، ولو مرة واحدة في حياتهم ، نصيب من نعيم الحياة ولذة السعادة . فلم يكد والد ورده يسمع هذا الاستحسان حتى ملأ الكوب بالنبيذ ثم دنا من بنطاؤر

وتركه له بعد أن همس فى أذنه ألا يشرب قطرة منه وألا ينام ليله .
ولما دنا من نبسشت وأراد أن يقدم اليه الكوب جاء جندي آخر
ومنعه من تقديمه ثم عرض عليه قدحاً كان بيمينه فأخذه نبسشت
وأخذيكرع منه . وكان الحارس ينظر اليه ويعجب من قدرته على تجرع
بنت انات الدنان وعجزه عن الكلام بحسن البيان وفصيح اللسان .

الفصل العاشر

أين يلتقى المرء بربه ويتوجه اليه بكل قلبه

لم تمرّ بالشاربين ساعة او بضع ساعة فى اللهو والمرح والمطايبة حتى أحسوا بثقل رؤوسهم فلم يتمالكوا أن ألقوا بجنوبهم على الثرى ، وما هي الا فترة قصيرة من الزمن حتى دهمهم النوم . وكان القمر آنئذ يلامس الافق، فقام والد وردة ودنا متمهلا من الاحراس ليستوثق من نومهم، ثم دنا من بنطاؤر فحل قيوده وفعل مثل هـذا بنبسشت ، غير أنه لم يستطع إيقاظه من نومه فحمله على كتفيه وقال لبنطاؤر : اقتف أثرى . ثم سار مسرعاً نحو المكان الذى عينته له وردة على مقربة من الغدير ، فلما وصل اليه نطق باسمها ثلاثاً فبرز الشاب العملاقى ، فرجا الجندي من بنطاؤر أن يصاحبه الى حيث يسير به ، فتردد كأنه خشي عاقبة هذا الفرار فقال له : لا خوف عليك كما لا خوف على نبسشت، وسأعنى كل العناية بأمره . قال بنطاؤر : لا قدرة لى على مفارقة صديقي وأرى أن بالامكان إفاقته بالماء البارد . فجرداه من بعض ثيابه ووضعاه فى ماء الغدير ، فلما أحس قوة تياره أفاق قليلا وسار مع بنطاؤر متمايلا كالثمل وأمامهما الشاب العملاقى وظلوا سائرين جميعاً حتى بلغوا الى البيت الذى على قمة الجبل .

وكان والد الشاب نائما فأيقظه من نومه وأخبره بما سارّته به وردة

وما عاهدته عليه من العهود ، فهب الرجل من مكانه واستقبل نبسشت وبنطاؤر بالاكرام وطرح للأول على الارض حصيراً نام عليه وهيأ للثانى مضجعاً من الفرو ، وقدم اليه ثيابا جديدة ليلبسها بدلا من أطماره البالية ونادى بابنته أن تغسل قدميه ، فاضطجع بنطاؤر على الفراش الذى أعده له والد الشاب العملاقي فاذا به فراش لين لا تفضل عليه أرائك الملوك نعومة ونظافة ، بيد أنه لم يستطع النوم لما أنهك جسمه من التعب وتولاه من الدهش وانزعاج الضمير . ولبث على هذه الحال زمناً نهض بعده من مكانه فوضع نبسشت على فراشه وخرج من الدار للاينال قليلا فى الخلوات تسرية للهمّ عن قلبه ، فتأدى به السير الى غدير منحدر من مكان عال تتكسر مياهه على الصخور فيسمع لها خرير لطيف ، فغمس فيه رأسه ثم أدلى بجسمه ليتنعم بطراوة مائه النقي ، وقد تخلص بذلك من الادران التى تراكمت عليه كما نجت نفسه من أوضار الحقد والعار والحزازات الناشئة من مخالطته قوما لا نصيب لهم فى الحياة الدنيا الا التلطخ بأدران العار والهوان وفساد الاخلاق . ولقد أحسّ كأنه فى صبيحة عيد من أعياد بيت سيتى التى كان ينتبه من نومه فيها مبكراً فيستحم ويتطهر ويلبس الثياب الكهنوتية الناصعة البياض . لهذا عجل بالعودة الى دار العملاقي تبدو عليه مظاهر النشاط والخفة والاغتباط ، فبعد أن جفف جسمه لبس الثياب التى قدمها الرجل اليه فأصبح فى يومه الجديد عكس ما كان عليه امس الدابر .

وكان يرى امامه صخورا قاتمة اللون فيخالها سحباً متراكمة

تنذر بوابل غزير ، الا ان السماء كانت بأديمها الصافي تلوح من خلال قمامها الشاهقة وقد رصعت بالوف الكواكب المتلالئة . وقد أثر هذا المنظر العجيب فى نفسه تأثيراً سما بها الى أوج الحرية . وكان النسيم فى ذلك الوقت عليلا فسار ، وقد لاحت عليه علامات السرور والاغتباط ، فى درب يوصل الى قمة الجبل التى اتخذها والد الشاب العملاقى مقراً له . وكان فى صعوده اليها يشعر كأنه يطير بأجنحة او تجذبه نحوها أيد خفية ، ورأى وهو صاعد تيساً اركن حينما رآه مقبلا الى الفرار وتسلق مع أنثاه الصخور الصلدة فصاح الشاعر بهما : لا تخافا منى أذى فلست من جبل على الأذى . وقد جاء قوله هذا دليلا على ماتحن اليه جوارحه من العشق وعلى ما يحسه من ضرورة الاعراب عنه للحبيب .

ثم وقف على هضبة ضيقة عند مأخذ القمة الصخرية ، فاذا به يرى مسرباً تجرى فيه المياه من أعالى الصخور فترتوى به الحشائش الطبيعية وتنعكس فيه صور الكواكب التي أخذ بريقها الساطع يبهت قليلا قليلا تلاشياً وتفانياً امام ضوء الفجر المنبلج ، فنظر اليها نظرة تدل على تتبعه لها بفكره فى سيرها السرمدي بأكناف الفضاء اللانهائى . ثم التفت الى الجبال التي أضاء النور سفوحها وأبان للناظرين ما يليها وما يتخلل آكامها من المهاوى التى لاقرار لها . وما زال الليل يولى الادبار حتى سطع النهار وتمثلت للانظار قمات تلك الجبال تتسحب فوقها السحب كدخان يتصاعد من بؤرة النار . وكان ضباب كثيف يصعد وقتئذ من الواحة ، فلم تمض هنيهة حتى انجلت دقائقه وانتشر بعد التماسك

حينما فعلت فيها أشعة الضوء فعل السهام النافذة فى الاجسام .

هذه كانت حالة تلك الاصقاع من الوحشة ساعة طلوع الفجر . ولم يكن بها من دلائل الحياة سوى نسر كان يحلق بجناحيه العريضين حول بنطاؤر ، وهو مأخوذ بالتأمل فى عجائب الخليقة وأسرار الكائنات من تلك القمة العالية . وكان السكون قد مدّ أرواقه على الطبيعة فلما رأى بنطاؤر ذلك النسر منحدراً الى قاع الوادى وشاهد الضباب تتلاشى جزيئاته هباء وتهبط فى تلاشيها الى أسفل المنحدرات ، خطر بباله ان يواصل الصعود الى نقطة أسمى يكون فيها بمعزل عن مصائب الجنس البشري بعيداً عن التأثر بالجذبات الدنيئة التى تجذب الى ناحيتها افئدة العاجزين فتحول دون تأملهم فى عجائب الكائنات ، بيد أنه كان فى حالته هذه أشبه به يوم أن اطلعه الكهان على اسرار الكهنوت المقدسة إذ كان يجمع الى الخشوع الذى امتلأ به قلبه يومئذ عزة النفس التى تسمو به على الكافة . وغاية ما أحسه من الفرق بين الحالين انه كان فى ذلك اليوم يستنشق أرج الزهور ورائحة البخور وغيرهما مما يثقل على النفس ولا ينتعش به الفؤاد وهو واقف على ذروة الجبل الشاهق يستنشق النسيم النقي العليل ويرى من السكون السائد على الخليقة ما يوطىء سبيل الفوز بالقربى من الالوهية أكثر ما تمهد منه أناشيد الكهان .

ثم أوغل فى التأمل والادكار فراى أن الانفاس الخافتة المنبعثة من صميم الفؤاد تتقبلها الآلهة أكثر مما تتقبل الاناشيد والاغانى التى يلحنها الكهان ويصدحون بها فى كل آن ، وأن الانسان مدين

للمنعم عليه بشكر ما أنعم وبالاقرار بالطاعة له ، ولكنه لم يكن مديناً بتصوير ذلك الشكر وهذه الطاعة فى صور محسوسة مغالاة فى إفهام المراد منهما. وكادلسانه ، مع هذا التصور، ينطلق بترديد بعض الاناشيد لولا انه أحسّ بحصر فجثا فى الحال على ركبتيه للصلاة والدعاء وأداء مفروض الشكر والثناء .

ونهض واقفاً بعد الصلاة فأمعن النظر فيما حوله من عجائب الكائنات ، وكان مستشرقا الشرق وميامناً الجنوب حيث تمتد أراضى النيل المقدسة التي تقام فيها الشعائر الدينية لآلهة لا يحصى لها عدد ، فاعتاص عليه الامر إذ حار فى اختيار من يعبده من هذه الآلهة أ(أوزيريس) أم(هوروس)أم(زيفا) أم(رينوت) صاحبةالبركات العميمة ومفيضه النعم ؟ وبينا هو فى هذا التردد إذ هب نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذى كان منسدلا كحجاب يحول دون رؤية الوادى ، وانبعثت أشعة الشمس من وراء الافق ، فكللت هام جبل سيناء بتاج من الذهب وطرحت على الماء طبقة ناصعة البياض من اللجين .

ومرّ بباله آنئذ أن يتهل الى الاله (فيرو) ، ولكنه عدل عن نيته اذ تذكر تفاهة عبارة الصلوات الدينية الخاصة بمعبودات السهول والفلوات وخلوّها من المعانى اللائقة بالزمان والمكان ، ثم سكت برهة قال بعقبها : « انى الآن فى حضرة الواحد الاحد الذى تقدس عن الحاجة الى المكان وليس فى مكان ولا على مكان ، لان كل ما فى العالم تحت قدرته وتسخيره تراه عيناي بلطفه وقدرته وعجيب صنعه ، لأنه

تعالى منزه عن الكيف والكم وكل ما يخطر بالخيال والوهم من التكيف والتمثيل فاليه ضراعتى واليه إنابتى» . ثم بسط كفيه وقال : أنت الواحد الاحد ! أنت الواحد الاحد ! أنت الواحد الاحد !

وكان شيخ بدين الجسم قوي الاساطين واقفا وراء بنطاؤر وهو يكرر تلك الكلمات ، فلما التفت بنطاؤر اليه قال له الشيخ : بورك فيك وعليك، ان كنت تبحث عن الاله الحقيقى . فحدق الشاعر فى وجه الشيخ وكان طويل اللحية مهيب المنظر وقال له : لقد عرفتك . . لأنت ميسو[1] بعينه . واذا عرفتك فما هو إلا لأنى كنت ببيت سيتى اتلقى فيه المبادىء العلمية وقتما تخرجت أنت منه نابغاً فى المعارف والعلوم اللدنية . وقد أطلعنى أمينى، كما أطلعك ، على سر الاعتقاد بوجود إله واحد لا إله الا هو . قال ميسو ، وقد حدق بنظره فى الافق الذى كانت تسطع الانوار من ناحيته الشرقية وقال : أما أمينى فلا يعرف من الوحدانية شيئاً .

فى خلال هذا الحديث برزت الشمس من وراء حجاب الافق وأصابت سهام أشعتها الذهبية كبد الفضاء ، فكان أول ما بدر من بنطاؤر أن استقبلها بوجهه وبدأ يصلى . فلما انتهى من الصلاة شهد ميسو وهو يصلى أيضاً ، الا أنه كان مستقبلا الغرب ، فلما أتى على آخر صلاته سأله : لم استدبرت الاله «الشمس» وقد تعلمنا بالمدرسة وجوب استقباله عند شروقه . قال ميسو : انى أعبد إلهاً غير ما تعبد . . الشمس

---

(١) أى موسى عليه السلام

والكواكب مسخرات لأمره . قال بنطاؤر : أرشدنى الى طريق هذا الاله القادر . قال ميسو : ابحث عنه تجده لأنك كابدت الآلام وقاسيت مشاق المتربة . واعلم أنه تجلى لى فى مكان مثل هذا وفى صبيحة يوم كهذه .

قال هذا ومضى فى سبيله ، فوقف بنطاؤر وحده سابحا فى بحار التأملات ، ثم نزل متمهلا نحو دار العملاقى ، وبينا هو فى طريقه طرق سمعه همس أناس على مقربة منه . وكانت تحجبهم الصخور عن نظره ، فوقف هنيهة حتى ظهروا من خلفها ودنوا منه ، فاذا هم ابن العملاقى ورجل بثياب مصرية وامرأة ميادة القوام ترافقها فتاة رشيقة الحركات وعبيد يحملون محفة . فخفق قلبه شديداً حين وقع بصره عليهم ، لأن تلك المرأة كانت بنت أنات كريمة رعمسيس . ثم وقف مستنداً الى صخرة لا يقدر على الحركة لما غلبه من الدهش ، وغابت عنه الحواس فصار لا يسمع وقع الاقدام على الصخور الصلدة ، ولا يرى انعكاس الاشعة الشمسية على حجر السماق ، كلا ولا المرأة الحسناء التي هرولت نحوه لاستجلاء محياه . وما نادته باسمه وطرق صوتها أذنيه حتى صار كالاعمى الذى يرجع اليه البصر أو الاصم الذى يعاوده السمع ، فقد عرته رعشة فتنبه فسمع بنت أنات تكرر نداءها له : يا بنطاؤر ! فأوسع لها الشاعر صدره الرحيب فترامت بين ذراعيه فضمها اليه وعانقها عناق المشتاق الذى أضناه الفراق .

أما رفيقات الاميرة فكن جالسات فى بيت العملاقى . فقالت

وردة لنيفرت : لقد رأيتها تلقى بنفسها بين ذراعيه . . لست أنسى ، ما بقيت حياً ، هذا المنظر البديع الذى كانا يحكيان فيه البحر المتلألىء عند الافق هناك ، وقد تحركت مياهه لعناق الجبل المقدس . قالت نيفرت : كيف بتدعت هذا التشبيه الجميل ومن أين لك مثله أيتها الفتاة ؟ قالت وردة : عثرت عليه فى صميم فؤادى وليس عندى ما أكاشفك به سوى أننى اشعر الآن فى نفسى بسعادة وهناء ، لم أشعر بهما من قبل . قالت نيفرت : لعل سعادتك وهناءتك ناشئتان من اعتقادك أنك وفيت لبنطاؤر ما عليك له من الدين إذ كنت سبب إنقاذه من الهلاك كما أنقذك منه . قالت وردة : ليس هذا سبب سعادتى بل أن هناك سبباً آخر كان داعية هناءتى وجالبة سرورى . وغاية ما أخبرك به أننى كنت يئست من كل شىء فلم ألبث أن تحول اليأس فى نفسى رجاء بفضل الآلهة وعدلهم .

فاستحسنت نيفرت هذا القول باشارة ثم قالت وهى تتنفس الصعداء : ما أسعدهما حالا وأهنأهما بالا وقد تلاقيا بعد الفراق . قالت وردة : انهما جديران بهذه السعادة لان بنت أنات إلهة الحقيقة ، وليس فى الديار المصرية من يجارى بنطاؤر فى علمه وشرف نفسه وعلو همته . فصمتت نيفرت زمناً ثم قالت بصوت اليائس الحزين : أما رأيت مينا ؟ قالت وردة : من أين لى أن أراه . . عليك بالصبر يا نيفرت ودعى عنك الجزع ، فلسوف تجتمعين بمحبوبك . وثقى بقولى هذا ، فأنى أعرف من حوادث المستقبل ما يعرفه الانبياء . . ولكن دعينا من

هـذا الآن ولنقصد نبسشت لنرى ان كان لا يزال نائما . . أنا عارفة بما للشراب المخدر الذى مزجته بالنبيذ من التأثير فى اضاعة الرشـد . قالت نيفرت : أصبت فهيا بنا . ثم سارت مع وردة مقتفية أثرها .

وكان الطبيب ملقى على ظهره فاغراً فاه ، فتقدمت وردة نحوه وحدقت فيه النظر فقالت : لقد اجهد هذا الرجل نفسه فى درس العلوم والاطلاع على خفيات الحقائق ، ولـكن ما زلت أجده أقرب فى هيئته الى الحيوانات العجم منه الى الانسان . ثم تناولت عوداً يابساً وعبثت به فى أنفه فتحرك أولا ثم عطس وتقلب على احدى جنبيه واستغرق فى النوم ، فقهقهت وردة ضحكا كان يرن رنين الفضة النقية أو الذهب المصفى ولم تلبث أن احمر وجهها خجلا اذ وبخها ضميرها على استخفافها بالرجل الذى أحسن اليها فاعترفت بخطأها وندمت على ما فعلت وتذكرت ما كان عليها له من مآثر تدل على كرم محتد وطيب عنصر .

وفى الحال تناولت يد النائم فقبلتها وعمدت الى جبينه فمسحت العرق الذى كان يتصبب منه . وكان فى هذه الاثناء بين يقظان ونائم فقال : وردة عزيزتى وردة ! فتراجعت الفتاة الى الخلف هاربة . فاقتفت نيفرت أثرها . فلما تنبه نبسشت من نومه نهض واقفاً ونظر فيما حوله فوجد أنه فى مكان لم يره من قبل ولم يعلم سبب وجوده فيه ولذا خرج مهرولا فالتقى ببنت أنات تحذر أصحابها مما يكتنفهم من الاخطار والنكبات .

الفصل الحادى عشر

— الرحلة من سيناء الى لبنان وما وقع فيها من غرائب الحدثان —

مرّت قرون عديدة وأحقاب مديدة على سكان الواحة وهم يؤدون الجزية للفراعنة ، مقابلة تعهدهم لهم ان لا يطأ عسكري مصري ثرى بلادهم . وكان هذا هو سر نزول الاجناد الحبشان خارج حدود الواحة واقامتهم صواوين بنت أنات بعيداً عنها ، غير أنه حدثت بالرغم من هذه التدابير معارك كثيرة سالت فيها الدماء بين أولئك الجند الذين أركنوا الى البطالة والكسل وبين العمالقة سكان الواحة الذين عرفوا بعزة النفس وسمو الهمة وسرعة النجدة وحب الاستقلال . وكانت تلك الحوادث تنذر بالخطر فى مساء يوم افرط فيه أولئك العساكر من الشراب حتى ترنحت أعطافهم وضلت عقولهم وضاع صوابهم فهاجموا النساء وهن ذاهبات للاستقاء .

وفى فجر ذلك اليوم استيقظ أحد أحراس الاسرى من نومه ، فتنبه الى غيبة بنطاؤر ونبسشت فذهب مع أصحابه من فوره وفيهم والد وردة ، وكان قد عاد الى مكانه مستتراً بالظلام بعد قيامه بما عهد اليه ، ليرفعوا الامر الى ضابط الجنود الحبشان الذى أيقن أن الشاعر والطبيب اختفيا بالواحة عند أحد العمالقة . فخابرهم فى تسليمهما له ، ولكنهم لم يبالوا به لاعتقادهم فساد التهمة الموجهة اليهم وسخروا منه فاستشاط

غيظا وأمر بتفتيش الواحة . ولم يكن هـذا الأمر متفقا مع نصوص المعاهدات المبرمة بين حكومة مصر وبينهم . ولما لم يعثره البحث عندهم عليهما اقتفى النساء والاطفال أثره يشيعونه بألفاظ التهكم والتبكيت وتمادوا فى ذلك حتى ضاقت عليه المذاهب فذهب الى الواحة بنصف قوته العسكرية واحتلها .

لما رأى العمالقة هذا التعدى هبوا الى أسلحتهم فتقلدوها وتظاهروا بالانسحاب الى الوراء ليستدرجوا تلك القوة الى متابعتهم ، وما زالوا بها حتى بلغت الى بقعة ممهدة من الوادى حول جبل صخرى صغير (١) فاعتصم به سوادهم الاعظم . فلما مرّ الاحباش بجوارهم انقضوا على الطليعة والمؤخرة انقضاض النسورة وفتكوا بهما شرّ فتك . ثم انجلت الواقعة عن قتـل عدد عظيم من الجند وإصابة الضابط نفسه بجراح اضطرته الى الارتداد على الاعقاب . وما ترك شرذمة من جنده لحراسة الاميرة الا لـكي تستنجد بها عند الحاجة لانه سارع بعد الانسحاب بالانضمام اليها واستأنف كرة الهجوم على الواحة بها وبالقوة التى عهدت اليها المحافظة على الاسرى .

لم يكد يتوارى شبح آخر جندي وراء غابة النخل عن نظر بنت أنات حتى أصدرت أمرها باعداد العدة للرحيل . وكان رجال حاشيتها متفانين فى الاخلاص لها ، فما هي الا ساعة حتى قوضوا الخيام ووضعوا على متون الجياد ما خف حمله وغلا ثمنه من المتاع والزاد ، وانطلقوا فى

(١) يسمي هذا الجبل الآن أكمة مهاوت وتوجد بها الى الآن اطلال كنيسة قران

دروب سيناء يفرونها فريا وفى طليعتهم ساليش متجهاً معهم صوب دار أبيه ، بينما كان الضابط وجنوده فى قتال عنيف مع سكان الواحة الابرياء .

وكانت وردة فى أثناء المسير تدبر بذكائها وصدق رويتها التدابير لالتقاء بنت أنات وبنطاؤر . وقد شرحنا كيف تم هذا الالتقاء وسردنا ما وقع فيه من حوادث الهيام ووقائع العشق والغرام . فلنضرب صفحا عنه الآن لنقول إنهما لما استأنفا السير لم يفترقا حتى وصلا الى آخر المرحلة ، فى محلة كسيت أرضها بديباج الحشائش الخضراء ، فجلسا على هذا البساط السندسي وشرعا يتطارحان ذكرى ما اعترضهما من الشدائد والصعاب . ولما كان قبيل الظهر أقبلت ابنة العملاقى واخت ساليش تحمل قدراً مملوءة لبناً فتناولتها بنت أنات منها وسكبت بعضاً مما فيها فى طاس متخذ من قشر القرع المجفف وقدمته الى بنطاؤر الذى كان يشعر ساعتئذ كأن روح العزة والكرامة مقرونة بالتواضع تنبت فى كيانه الذاتى حتى تناولته جميعاً . ولقد حدق فى بنت أنات النظر فعاهد نفسه على أن يبقى ما عاش مخلص الولاء لها مضحياً روحه فى سبيلها ومتفانيا فى حبها . وكانت حوادث الماضي الذاهب والحاضر المشاهد لحسن طالعه قد محت من قلبه الخوف من المستقبل ، فأصبح وكأن جناحي السعادة يرفرفان على رأسه . وما انتهى الاثنان من تناول ما هيء لهما من الطعام حتى أحس بنطاؤر بسلطان الغرام الذى نحاه عن مواطن التفكر فى شؤون الدنيا قد تغلب عليه ، فأخذ يجهد الفكر فى

تدبير تخلصه من المأزق الذى زج بنفسه فيه حيال بنت أنات وحاشيتها .

وكان الناظر اليهما وهما فى حديثهما يأخذه العجب من أمرهما ، فأنه بينما كان يسمع منهما عبارات الخوف والفزع كان يقرأ فى عينيهما آيات السرور ، وبينما كان يسمع مفاوضتهما فى تدبير مخرج لهما من هذا المأزق كان يراهما متراجعين نحو دار العملاقي . وماهي الا فترة قصيرة من الزمن قصيرة حتى شهدا هذا الرجل وابنته مقبلين عليهما ومعهما شيخ جليل من العمالقة ، فلما دنا الثلاثة من بنت أنات خروا سجداً وقبلوا الارض بين يديها .

كان اسم ذلك الشيخ (ابو شرابوس) وهو عميد الواحة وكبيرها . وكان قد اتصل به نبأ محاصرة الحراس لبنت انات ووقوعها فى شرك أسرهم فحضر ليجعل نفسه في خدمتها ولينفذ ما تأمره به . وقد قال لها انه موال لابيها الذى صان حرمة المعاهدات المبرمة بين مصر وعرب العمالقة . وكان الرجل طويل القامة قوي الاساطين أسمر اللون اقنى الانف ، وفى وجهه ندبة جرح أصيب به فى منازلة عدوّ له . ثم أخذ يقص على بنت انات وبنطاؤر ، وكان يظن أنه شقيقها ، ما لحق جند الاحباش من الخذلان وأنهم وقعوا جميعاً بين قتيل وجريح واسير ، ثم قال : ان هؤلاء الجند اشداء على اهالى (روزح) الذين يشبهون الكلاب جبناً وسفالا . أما نحن فرجال اذا طمع فينا أجنبي وحاول الاغارة على بلادنا اذقناه من دفاعنا الذى يشبه دفاع الليوث عن عرائنها كأس المنون . فليأت منهم الالوف تلو الالوف ونحن ننكل بهم ونوردهم موارد الحتوف

وما ايقنت بنت انات اخلاص الرجل وصدق استعداده لدفع المكاره عنها حتى وعدته بان تذكره بخير عند ابيها الملك وتوصيه برعايته هو وقومه ، ثم اخبرته برغبتها فى الذهاب مع بنطاؤر الى المعسكر المصرى فى الشام وذكرت أن هذا الشاب سيكون فى المستقبل قرينها . وكان الشيخ يمدّ بصره الى بنت انات وهي تفوه بهذه الكلمات حتى اذا التفت الى بنطاؤر اطرق رأسه احتراما واجلالا له ثم قال : أنت يا ابنة الملك لأزهى من القمر سناء وتألقاً انه لانظير لرفيقك فى العالمين ، وانما هو أشبه الناس بـ (دوزاره) اله الشمس . ثم ضرب صدره بكفيه وقال : لم أر فى حياتى زوجين يشبهانكما غير (انى شرابوس) وزوجته ولهذا عولت على مرافقتكما بنفسى الى (هبرون) ومعي رجالى الشجعان . ولكن عجلوا بالرحيل قبل وصول الجند الذى لابد ان يبعث به ذلك الخائن الاثيم الحاكم الآن على مصر ائم [1] لينتقم من العمالقة . هلموا الى خيامكم لاعداد معداتكم وغداً لاتبزغ الشمس حتى نكون فى الطريق .

ثم وقفوا تجاه بيت العملاقي فتقدم رجال حاشية الاميرة صوب بنطاؤر وأدوا له واجب السلام فلما دنا منه رئيس الحجاب كانت تبدو على وجهه علامات القلق والتردد ، لان الملك رعمسيس وان يكن قد أمره بالطاعة المطلقة لكريمته المحبوبة لم يرق فى نظره أن تهوى من أوج كرامتها العالية الى حضيض الرضاء بأن يكون أحد رجال العامة قرينا لها . أما نيفرت فكان مما يشرح فؤادها أن تحدق فى بنطاؤر

(١) اسم مصر عند العبرانيين

النظر وتعجب بما رزق من جمال صورة واعتدال . قوام وكانت تناجى نفسها بان هذه الصفات العالية تمثل لخاطرها صورة آسا زوج خالتها . وكان هذا شأن وردة مع بنطاؤ وبنت انات ، فانها كانت لا تمل النظر اليهما والدعاء بتحقيق أمانيهما ، وأن تكون هذه السعادة مقدمة خير لتحقيق أمنية نيفرت بلقاء قرينها مينا وتحقيق أمنيتها أيضا . . وكان نبسشت فى أثناء هذا بمعزل عن الجميع تواضعا منه أو حياء ، وقد ذهب صفاء الجو وطراوة النسيم بصداع رأسه . فلما انتهت مراسم السلام على بنت انات و بنطاؤر على الوجه المتقدم دنا الشاعر فأخذ بيده ثم قال : انى أكف منذ الآن عن تعزيرك لأن مبدع هذا الكون الذى تستمد به فى صلواتك قد محا من نفسك العيوب التى لأجلها عزرتك . قال بنطاؤر : لا مدعاة لأسف أيها الصديق ، ولسوف يجىء دورك فنكون على وفاق تام ونعيش فى صفاء وسلام . قال نبسشت معترضا : أرى بلوغ هذا المرام وعراً ، لان بنى الانسان آلات ركبت فى مصنع واحد لا تدركه الابصار . وكل الفرق بين آلة وغيرها ان تكون احداهما من الخشب الجيد والاخرى من الردىء وان تكون الاولى صحيحة الصنعة محكمة تعاشق الاجزاء والثانية عكس ذلك . أما أنت فمن الطراز الاول لانك تشبه الآلة الموسيقية التى يسمع اهتزاز أوتارها كلما هبت عليها رياح القدر وأما أنا فكالآلة التى تبين اتجاه هذه الرياح وتعين مهابها ، ولكنى كلما تحركت يمنة أو يسرة سمع منى صرير يمل السامع . واذا اتخذنى ربان السفينة دليلا للسلوك بفلكه الى الوجهة المرومة فليس هذا

ما يهمنى شأنه ، ولذلك تراني أدور كلما حركتنى الرياح وسواء عندى التفت الربان الي أم لم يلتفت .

غادر بنطاؤر وبنت انات بيت العملاقى بعد ان افاضت عليه النعم . وكانت الشمس فى التطفيل وقمة جبل سيناء تتوهج كعلم على رأسه نار أو كاحجار ياقوت تسطع فى اكليل ذهب . وكان قرص الشمس كجذوة نار شديدة الاحمرار، الا انها كانت مغشاة بسحاب خفيف كالقبس تغشاه طبقة رقيقة من الرماد . ولما اقتر ثغر الفجر وبدا عمود الصبح تحرك ركب الاميرة جاعلا وجهته معسكر رعمسيس ، وكان (ابو شرابوس) إماما لها يهديها سواء السبيل فى المنعرجات ، وكان ابن المحنط بينم سائرا خلف ابنته وردة . فلما قطع الركب المرحلة الاولى والتمس الراحة بالوقوف عندها دعته الاميرة اليها وسألته أن يقص عليها ما استنبطه من التدابير لتخليص بنطاؤر ، وكيف استطاع الذهاب به الى شبه جزيرة سيناء ، فى حين كانت النية معقودة على نفيه الى محاجر رحنو فقال :

« انبأتنى وردة بالمكان الذى تقرر ان ينفى اليه هذا البطل الذى تطوع للذود عنا وبسطت لى ضرورة العمل لانقاذه حتى لا يرسل الى ذلك المنفى ، ولكنا لم نوفق لحيلة نقضى بها هذا الوطر . ولم يكن لمثلى أن يستنبط حيلة أو يخترع وسيلة ، فرب أمر استحسنه فيكون بذاته قبيحا فانساق به الى فعل الشر وأنا لا أريد الا الخير . وحدث قبل ان تفاوضنى وردة فى هذا الشأن انى كنت اقوم على حراسة بعض المحكوم

عليهم بالعمل فى معادن مفكات وجرت العادة بانزالهم فى السفن من مرسى مدينة الاموات فرأيتهم قبل نزولهم ، وقد علت وجوههم غبرة الحزن والأسى . وكان منهم من يلزمون السكوت والسكون الا أن امتقاع الوانهم واصطكاك أسنانهم رعبا وفرقا وانصراف انظارهم الى الفضاء أوحت الى ضميرى الاعتقاد بأن اولئك الساكتين الساكنين أولى بالشفقة وأحق بالرعاية من الذين ارتفع صياحهم الى عنان السماء ورددت جلبتهم اركان الفضاء . وكنت كلما تأملت الفارق بين الفريقين انتابت جسمى قشعريرة التأسى لهؤلاء والحقد على أولئك .

«وكان فى الفريق المتمسك بأهداب الصبر والسكينة رجل تبينت حقيقته لأنى كثيرا ما رأيته حين كان أسرى الاجانب الذين نيطت بى حراستهم يشتغلون ببناء القاعة الكبرى ذات الاعمدة . تأكد لى منه انه مفتش حراس حمل آمون المقدس ، وكنت أعهد فيه الحرص على أداء الواجب ، وكان لجأ ليلة الى الراحة فدخلت الذئاب الهيكل واغتالت الحمل الذي وجد قلبه بعد فى صدر النبي رونى . واذ كان لا غنى عن ارضاء الامة وتسكين ثائرتها بمعاقبة ذلك الحارس المسمي هونى فقد صدر عليه الحكم بالنفي الى معادن الذهب وعين بدلا منه رجل اشد يقظة واكثر حرصا على الحمل المقدس .

« شهدت هونى فى معزل عن بقية المحكوم عليهم فدهشت لعزلته لاعتقادى انله زوجة وأولاداً كان يجب عليهم الحضور لوداعه وتشييعه بعبارات العطف التى تخفف عن القلوب أعباء الحزن فسألته

عن سبب اهمال اهله أمره وعدم عنايتهم به ، فاجاب بأنه ودعهم عند الباب حتى لا يروه مع باقى المحكوم عليهم من المزوّرين والقاتلين . وكان قد حدث منذ أيام حريق هائل فى بيته فالتهم ما به من أثاث ومتاع حتى لم يبق عنده ما يسدون به الرمق، فزاده ذلك كدراً على كدر . وكان فى روايته لى حوادث هذه الفاجعة لا يستطيع متابعة الكلام ، بل كانت تخنقه العبرات فيصمت . وحينما أنس منى العطف عليه والرفق به قال بصوت جهورى : اننى ارضى بالنفي الى معادن الذهب بل ارضى ان يقطع جسمى اربا ، ولكن لا أرضى ان تحتمل زوجتى ذل الفقر ويقع أولادى فى مخالب الجوع .

« وعلى أثر ذلك خرجت لتوديع ابنتى وردة ممثلا لخاطرى حالة ذلك الرجل وما استولى من اليأس على فؤاده فقلت فى نفسي لو كنت غنياً لما توانيت عن اسعافه بما يجعل زوجته وأولاده بعيدين عن الحاجة وذل السؤال ، ولكنى سأبذل قصارى الجهد لتعزيته بما يسرى الهمّ عن قلبه . ولما التقيت بوردة ابلغتنى تبرع الطبيب نبسشت لها بماله وحادثتنى فى امر بنطاؤر ووجوب انقاذه ، فاصبحت تجاه أمور ثلاثة تتنازعنى : اسعاف المنكوبين والشكر لنبسشت وانقاذ بنطاؤر . غير ان هذه الثلاثة الامور اندمجت فصارت امراً واحداً تخذته رائدي ودليلى فيما استخرت الله على اتباعه ، فعجلت الاوبة الى الميناء حيث سلمت هونى مبلغاً كبيرا من المال ليحل محل شخص محكوم عليه بالنفي الى محاجر رحنو . واطلعته على انه سيرسل فى الحقيقة الى معادن الذهب

لا الى هذه المحاجر ، لانه اذا جازت الحيلة على من حنكتهم التجارب ودلكتهم المحن فانه لا يجوز على الاطفال والمرضى ، أعنى المنكوبين فى عقولهم وابدانهم ، غير الحقيقة الواضحة . عرضت عليه المبلغ وأصدقته القول فتلقى طلبى منه بالرضاء والقبول قائلا إنه يفضل عذاب السعير على أن يرى أولاده فى ذل الحاجة والسؤال . وبناء على هذه الحيلة التى لم اعالج عناء فى استنباطها ، اذ جاءتنى عفوا ، حضر بنطاؤر الى السفينة منتحلا اسم هونى ، بينما كان هونى الحقيقى يواصل السير صوب الجنوب منتحلا اسم بنطاؤر ، ولم يظهر قط سر هـذه المعاوضة الاسمية حتى الآن . أما ما وقع بعد من الحوادث فعندكم علمه ، وها أنتم اولاء تقصدون الى الشام التى خبرت أحوالها مذ كنت أذهب بالاسرى منها الى مصر وأقمت بها خمس سنوات فى حراسة الموهار الاكبر أبى بعاكر رئيس الطلائع »

شكرت له بنت انات هذه الصنيعة واثنت عليه بأجمل الثناء ، فقال نبسشت : لقد كنت فى اثناء السفر شديد القلق على بنطاؤر اذ كانت تبدو عليه علامات الالم ، ولكن قلبى عاد فاطمأن عليه لما وصلنا الى الصحراء اذ أخذت تلك العلامات تتبدد شيئاً فشيئاً . وكان كلما نزلنا بمكان او وقفنا عند مرحلة يشنف سمعى بما ينظمه من شعر وافر الحظ من بديع المعنى وشريف اللفظ ، فقالت بنت انات : يا لها من مصادفة حسناء فانى ما بلغت من رحلتى الى الصحراء حتى فارقتنى الهموم ونشط جسمى من عقـال المتاعب . قال نبسشت لبنطاؤر : أى رحمك الله .

شنف مسامعنا بالقصيدة الغراء التى نظمتها فى وصف نبات البعيثران ، سأل بنطاؤر الاميره : أو تعرفين هذا النبات ؟ . . انه ينمو في الصحارى والفلوات وها نحن اولاء نراه حولنا وبعيدا عنا . . ان عركه الانسان بين اصابعه سطع منه شذا عطري يملأ الخياشيم . وقد نظمت فيه ابياتاً كما نظمت فى غيره على ما تعلم . فتبسم نبسشت قائلا . نعم ! هي الابيات التى تمجد فيها الهة واحدة ملكت عنان الجمال وقبضت على صولجان الحسن والدلال . قالت بنت انات : هات ما عندك هات واتحفنا بما نظمته من الابيات . قال الشاعر : « عثرت بالصحراء ، على النبات ذى الاوراق الخضراء ، التى اذا عركت بالاصابع ، انتشر شذاها الساطع ، مع أنها نبتت من الصخر ، فى بلد قفر ، ان قلبي قد ادمته الكلوم ، وساورته الهموم ، فلما سرحت النظر فى الصحراء ، انجلى عن قلبي البؤس والعناء ، وأدركت كيف يكون نظم الاشعار ، حينما انسدل عليها من السكون ستار »

سألت نيفرت : ماذا تقول ؟ الصحراء علمتك قرض الشعر ! وهل نسيت ما للعشق فى تعليمك إياه من الاثر الظاهر ؟ أجاب بنطاؤر : حمداً وشكراً للاثنين معاً . ولكن لا يسعنى ان انكر ما للصحارى ومد النظر فى الآفاق من حسن التأثير فى نفوس العشاق . ألا يضطرنا السأم من تجانس ظروف الحياة وتماثل احوالها فى كل وقت الى مراجعة النفس فى استطلاع أسرارها وكشف مضمرها ؟ ألا نحس آنئذ بمشاعرنا وقد امتد عليها رواق السكون وخفقت عليها أعلام الهدوء لا يساورها

شيء من العوامل المحيطة بها ؟ ألم يكن هذا الاطمئنان مستفزاً للذهن على الايجاد والابتكار حاثاً للروح المنطوية في ذاتها على الانفعال بأقل المؤثرات ؟ ان الانسان فى مدائننا الكبرى كالهبأة الصغيرة بل كالجزء الذى لا يتجزأ اذا قيس بالمجموع، وهو متصل به اتصال اندماج وتلاحم وخاضع لما هو له خاضع ، ولكنه متى انفصل عنه ملتجئاً الى الصحراء أصبحت علاقته به منحلة العرى مفكوكة الروابط ، اذ يكون وقتئذ خالياً من قيود التضامن بينه وذاته ، فيها يتحسس أسباب الفرح وكل ما تصبو اليه نفسه من خير . . ان العقل ليرى فى البعد عن المجموعات البشرية مجالا للفكر لا تحده عقبة ولا يقوم دونه مانع قاطع ، لانه لا ينصرف الا الى المستقبل، أما الماضى فيتلاشى تجاه ما تترامى اليه الآمال فى آفاق الاستقبال .

قال نبسشت . أصبت ! فان الصحراء خير مجال لتوارد الخواطر والافكار وأحسن مستغل لثمرات الابتكار ، بدليل انى وأنا بمصر كنت انظر الى الكثير من الاشياء فيخيل لى ان بينى وبينها حجابا مسدولا أو ضبابا كثيفاً ، فلما ان جئت الى الصحراء انحسر الحجاب وانقشع الضباب . سأل بنطاؤر : أجبنى ما هى تلك الاشياء ؟ اجاب نبسشت : ثلاثة أولها اننا لا نعلم بالحقائق علماً أكيدا وثانيهما انه اذا كانت النفس تميل الى الورد مثلا ، فليس معنى هذا أن الورد يميل الى النفس وأما الثالث فسر غامض أحب استبطانه . واذا ارتبط هذا السر باحوال الكون فمن ذا الذى يكلف نفسه مؤنة الاهتمام به ؟ ثم التفت الى الحاجب وقال :

فلنتبين هذا السر معا أيها الحاجب . . أنت أعلم الناس بضروب التحية وما تقتضيه من الطقوس والمراسيم . . علمت ذلك ممن يتشرفون بلقاء الاميرة ، ولكن أخطر ببالك يوما البحث فى تركيب العمود الفقرى للانسان ؟ اجاب الحاجب سائلا : كيف تطالبنى بالوقوف على سر تركيب الفقرات وانما انا منوط بتحديد وتنسيق ما ينبغى أن يبديه المتشرفون بلقاء الاميرة من ظاهر الاشارات والحركات ؟ ان مثلك من يجدر به الوقوف على سر تركيب العمود الفقرى لانك تواصل ليلك بنهارك فى استطلاع أسرار الجسم البشرى ، ولو أنك هوّنت على نفسك ولم تعكف عكوفك هذا على الدرس والمذاكرة والبحث والمناظرة لاستطعت أن تنسق شعرك وترتب ثوبك .

وصل ركب الاميرة الى هبرون ، عاصمة أمة الخيتاس ، دون أن يلقى بالطريق عائقا ولا حادثا مكدراً . فلما استقرت بها الاميرة وأمنت على نفسها استأذن منها ابو شرابوس ورجاله فى الانصراف فأذنت لهم بعد أن غمرتهم بجزيل انعامها ، ثم تحرك الركب الى الشمال تحف به كوكبة من الفرسان المصريين . وكان بنطاؤر قد تخلف عنه فى ذلك المكان مع أبى وردة العارف بأسرار طرق الشام ومنافذها ، ولكنه ما غاب عن الانظار وانقضى الليل وطلع النهار حتى تهاطلت الامطار وأصبح متعذراً اجتياز جبل السامرية . ومع هذا فقد جدّ الركب فى المسير فوصل الى مدينة ماجدو[1] فاستقبلته الحامية المصرية

(١) تسمى باللغة المصرية مارطه وهى احدى مدائن فلسطين وما زال اسمها منقوشا فى

بمظاهر الاجلال اكبارا لمقام الاميرة التى أقامت بها أياما نالت نيفرت فيها الشفاء من مرض ألمّ بها . أما وردة فكانت تزداد كل يوم نحولا وضعفا لما غشيها من الهموم ، وشهدت ذلك منها بنت أنات فسألتها عن السبب فلم تجاوب بما يشفى الغليل موارية عنها مضمون سرها ، لانها لم تكن فاهت قط باسم راميرى على مسمع من اخته الاميرة كما لم تكن حدثتها بمسئلة الخاتم الذى تركته والدتها استحياء وخوفا من أنها اذا أطلعتها على دخيلة أمرها وأبانت ما هو مبهم من سرها ازدرت بما يربطها وراميرى من عواطف العشق وأنحت باللائمة عليه فيعرض عن حبها وينقض ما توثق بينهما من عهوده ويلقى بها فى مهواة من المحن والاحزان لا قرار لها .

ولما صار الركب على مقربة من الحدود أنفذت الاميرة الى المعسكر الملكي رسولا للاستفهام عن الطرق المأمونة والمسالك التى تؤدى بالسائر فيها الى قصده في سلام وطمأنينة ، فما هي الا فترة من الزمن حتى عاد ذلك الرسول وبيده رسالة موجزة من الملك رعمسيس الى بنت أنات يأمرها فيها الا تبرح ماجدو لتوافر أسباب الامن فيها على الارواح ، بما يحيط بها من الحصون المنيعة ويقوم على حفظها من القوى العسكرية المدربة على القتال . وهذا فضلا عن أنها قاعدة الاجراآت العسكرية للجيش المحارب ومستودع لوازمه من مؤن وذخيرة والحاكمة بموقعها

الاثار المصرية . وكانت مشهورة بمناعة موقعها الحربي قبل ان يعيد بناءها النبي سليمان . وقد أغار عليها ملوك الاسرة الثالثة عشرة المصرية في القرن السادس عشر قبل الميلاد

الحربي قرب البحر على شمال فلسطين ووسطها . ثم زاد أمره تعليلا بأنه أصبح على وشك محاربة العدو فى معركة فاصلة تقضى العادات والتقاليد ألا تحضرها حتى لا يصيبها فيها مكروه .

وبينما كانت بنت أنات فى ماجدو تنتظر توارد الرسائل من أبيها تطمأن قلبها بتلاوة ما تحتويه من أنباء الظفر ، كان بنطاؤر والجندي والد وردة وكوكبة من الفرسان نصب حاكم هبرون على قيادتها ذلك الشاعر يسيرون حثيثا نحو الشمال . وكانت هذه أول مرة امتطى بنطاؤر فيها صهوة جواد ولكنه استوى على متنه بما خيل للرائى معه انه من الفرسان المدربين الذين قضوا شطرا كبيرا من حياتهم فى ركوب الخيل ، مع أنه لم يكن تلقى هذا الفن ولا برع فيه الا منذ يومين فقط على والد وردة . وبلغ من مهارته وبراعته أنه كان يفضل امتطاء الفرس الشموس على السهلة القياد ، فما هي الا دقائق معدودة حتى يكبح جماحها ويكسر من حدتها ويخضعها لأرادته . وكان قد تجرد من امساحه الكهنوتية ولبس الزرد وتقلد السيف وأرسل اللحية الى أن مست منه الصدر . وكان والد وردة لا يكف عن النظر اليه والاعجاب بشكله بل كان كثيرا ما يناجى نفسه بقوله : يخيل لى أن الموهار الاوزريسى الذى كثيرا ما جبت معه الامصار وسلكت القفار قد بعث من بين الموتى متقمصا شخص بنطاؤر . انى لأراه يضارعه نضرة وجه ونبرة صوت اذا أمر الجند بأمر ، ويشبهه فى لفتته ومشيته والقبض على زمام جواده وفى العدول عن ركوب المركبات الى متون الجياد ، كلما حالت

وعورة الطريق دون سهولة السير فيه .

ولم يكن بين رفاق بنطاؤر من يسكن اليه ويرتاح لمحادثته الا والد وردة . ولهذا كان يسير فى الغالب خلفهم بمفرده ناظرا الى كل ما يقع تحت بصره ممعنا البحث فيه حتى لا تفوته الاستفادة بعلم ما لم يعلم . وما زالوا مجدين فى السير حتى بلغوا الى جبال لبنان فشهد الوادي الذى كثيرا ما قرأ عنه فى الكتب وسمع من الناس وصف محاسنه ، فسره منظره وأعجبه على الاخص خرير الماء المنحدر على صخوره ، وانما ساءه أن يرى القرى وقد عبثت بها يد الخراب والتهمتها النار من جراء الحرب وأن تصبح ضواحيها موحشة معطلة من الانيس لانتظام سكانها الفلاحين فى سلك الجيش المحارب . وقد علم ان الاعداء مروا بهذه الجهة واغتصبوا من الحراثين بقرهم ومن الرعاة أغنامهم . وكان رجل يعالج فى هذه الساعة بعض الكروم ، فلما سمع وقع حوافر الخيل وثب وثبة اختفى بها عن الانظار دون ان يلتفت الى المقبلين عليه . وكانت الارض محروثة ومحضرة للزرع وآلات الحراثة ملقاة على حواشيها ، وليس فيها للسبب المذكور من يتمم الحراثة بالبذار ، فانشأ يقارن بين هذه الاودية النضيرة ذات الخيرات الوفيرة وبين رمال ليبية وصخور سيناء وسهول مصر أيم فلم يمالك ان صاح : ما أجمل هذه البقاع ! . . ان الآلهة فيها أرأف بالانسان منهم به فى بلادنا . ولقد أصاب اساتيذنا حين بثوا فينا بغض الاجنبي ومقت الكافرين وخشية الايغال فيما يلى النيل ، حتى لا يتجاوز شعب بلاده التى نشأ فيها الى بلاد غيره فيطمح الى

متازعته على الاختصاص بخيراتها .

وكان الشاعر فى اثناء ذلك يدنو من معسكر الملك ، فلما صار على مقربة منه تنازعه عاملان، ذكرى بنت انات ورهبة رعمسيس فيما سيدور بينهما من المحادثات . الا انه كان يطمئن خاطره بقوة الاعتماد على النفس وحسن الظن فى العاقبة فيتغلب بهذا الاطمئنان على ما عراه من الاحزان ولكنه كان يعود فيتهم نفسه بالتطرف فى حسن الظن والتهور فى الاعتماد على النفس فيغشى قلبه الحزن ويعترى خاطره الاضطراب ويستسلم لهذه العوامل حتى اذا اوشك ان ييأس وقي نفسه شر اليأس بالجلد وعدم المبالاة وازاح بهما عن قلبه غشاء الحزن ووطن نفسه على الثبات والاقدام .

وتذكر بنظاؤر ؛ وهو فى متنازع بين هذه العوامل ، ما كان من حكم أمينى عليه وهو واقف وراء اقرانه فى تواضع واستحياء وانصراف عن الناس ، فتبسم وأخذ يسائل نفسه أهو الآن كما كان يصفه استاذه أمينى فى مصر ، واذا كان هناك تباين فهل سببه اختلاف المكان وهل تؤثر الامكنة فى النفوس والطباع ؟ وأخذ بعد ذلك يمثل لنفسه حالته فقال انه لم يكن الا كاهناً لفظته الهياكل لفظ النواة واخرجه الكهان عن أفقهم وطرده الدين من حظيرته القدسية . دع انه ليس الا ابن بستاني وضيع القدر منحط الكرامة . . . ولكن عاطفة الشمم وعلو الهمة تغلبت على هذه الضعة بالامل فى حب بنت انات فقال مناجياً نفسه إن حبه لها متمم لما ينقصه من الكمالات وساتر لما مني

به من العيوب وانه اصبح صاحب الحق فى التطلع اليها بطلب الاقتران بها . ثم راجع نفسه فقال : ولكن ما العمل اذا قابل رعمسيس بالرفض هذا الطلب وانقلبت من عنده شر منقلب . ووقف ثابتاً فى مكانه كمن ينظر سيف النقمة الذى يود الملك ضرب عنقه به معلقاً على رأسه ثم قال : لا أحد على وجه الارض مهما يكن له من الجبروت والسلطان ينتزع من يده قلب بنت اناث وهو انفس ما أغدقته الآلهة عليه من النعم والهبات .

الفصل الثانى عشر

بداية الحوادث وفاتحة الكوارث

كان سكان الجبال يترصدون فى الغابات والآجام لبنطاؤر وصحبه لكي اذا مروا بهم باغتوهم بالحملة عليهم والتنكيل بهم فيهب هؤلاء للذود عن انفسهم وقد ظلوا بين اطمئنان وانزعاج وبين سلم وحرب حتى بلغوا الى بقعة ليس بينها والمعسكر سوى مسيرة يومين للمجد، فاذا هم يرون فيها جموعا كثيفة وافواجا حشيدة من العدو خرجوا من مكامنهم. وكان بربروس والد وردة قد أحس الخطر الداهم فتقدم ليستطلع الخبر ثم عاد كاسف البال منزعج الضمير مروع الفؤاد فأخبر بنطاؤر بأن الخيتاس ملأوا الارض وسدوا بجموعهم الأفق وراء الغابة، وان فى هذا الدلالة الاكيدة على تقهقر جيش رعمسيس، والا فمن أين للعدو ان يقتحم الخطر بالزحف على مؤخرته طمعاً فى قطع خط الرجعة عليه والفتك به؟ ومما ضاعف الخوف والاسى ان أصحابنا التقوا فى أصيل اليوم الماضى بشرذمة من الجنود المصرية خرجت للاستطلاع فاخبرت بان الملك ما زال موجودا بمعسكره، وانه على اهبة مقاتلة الاعداء فى واقعة يكون فيها فصل الخطاب، وان المرجح ان الحرب لم تضرم نارها بعد فخلو الغابات من أثر الجبناء اللاجئين الى الفرار. فلما لم يهتد بنطاؤر الى الحقيقة الثابتة تجاه تناقض الاخبار دنا منه والد

وردة وقال له : اذا استطعنا ان نتوقي شر مداهمة العدو ساعتين فقد نجونا . وأرجو الا يهتدوا الينا اذا سلكنا الطريق الموصل الى سهل قادش ، وهو طريق وقفت على سره وتبينت مسالكه كالموهار السابق وخاصة رجاله . واذكر ان عند منتصفه كهفاً طالما لجأنا اليه واختفينا أياما وليالها به دون ان يقف الخيتاس لنا على اثر ، حتى لقد رسخ في عقائدهم ان الموهار ظفر بخصية الاختفاء عن الابصار فى أية ساعة ما من الليل أو النهار ، مع انه ما كان لنا ان نلجأ الا الى ذلك الكهف الذى اعثرتنا عليه المصادفة . فاذا كنت لا تخشى على نفسك خطر الصعود الى قمم الجبال ولا تستصعب مشاق السير فى الوهاد والنجاد فترجل عن جوادك واتبعنى بلا كلام وانا زعيم بوصولك الى معسكر رعمسيس فى امن وسلام .

عهد بنطاؤر قيادة الشرذمة عندئذ الى بربروس فسار هذا المقدام على رأسها صاعداً تارة ومنحدراً اخرى ومارا من جهة اليمين طورا وجهة الشمال آخر حتى وصل الى شعب ضيق بين جبلين تنحدر منهما مياه يبدو زبدها فى ثنيات الصخور بشدة الاصطدام فنزل والد وردة عن متن جواده فاقتدى به بنطاؤر والجند . ولما عبرت الجياد الماء محا بربروس أثر الاقدام والحوافر في الرمال وافرغ فى أداء هذه المهمة كل حذق ، ثم صعد مع صحبه فى المسيل وعانى صنوف المشاق فى هذا السبيل لمقاومتهم اتجاه التيار . وما برحوا كذلك حتى وصلوا الى بقعة اشتبكت فيها اغصان الورد بأغصان الغار ، فكان بربروس يفرق بينها لاقتصاص

الاثر فى الطريق، وبذل فى ذلك جهده حتى اهتدى اليه . وكان بنطاؤر ورجاله والدواب قد نال منهم التعب فلم يصلوا اليه الا بشق النفس . وظلوا يحثون السير حتى اجتازوا غابة مترامية الاطراف الى أبعد مدى ثم انحدروا من شعوب ضيقة الى نجود بعيدة القاع وصعدوا منها فى صخور كأسنة الرماح في ارتفاع الذري ، ثم هبطوا غدرانا فاضت مياهها لانسياب مياه الامطار فيها فركبوا فيها متن الاخطار والمعاطب . وقد اكفهرّ وجه السماء فى هذه الاثناء فتهاطل الوبل غزيراً ، ثم اظلم الافق وما هي الا هنيهة حتى أرخى الليل سداله وشد النهار رحاله .

فقال بربروس هلموا بنا سريعاً وتماسكوا بعضكم ببعض ، فبالاتصال والتماسك تكون النجاة وبالجلد والثبات تصون الحياة . وما أتم هذه الكلمات حتى كبا جواد فعانى والد وردة وأعوانه النصب فى إقالته من عثرته وإشالته من كبوته ، وكان الليل أسود فاحما والمطر وابلا ، فأخذ بربروس يتحسس بيديه الطريق ورجال الشرذمة حوله تتنازعهم عوامل اليأس والرجاء ، وكانوا الى هذا أميل منهم الى ذاك . ثم وقف فجأة وجذب بنطاور اليه وقال : لعل المغارة قريبة منا .. ادن منى ليتأكد لك صدق قولى ، ولكنى أخاف أن نلتقى فيها ببعض خدم بعاكر الذى اتخذها والده فى حياته مستودعاً للمؤن والذخيرة . . أترى شبحى فى هذا الظلام الحالك . . أمسك بنطاقى وحدب ظهرك ولا تقف الا بأمرى ، ثم تقلد سلاحك إذ لا يبعد أن نلتقى فى طريقنا بجماعة من الخيتاس أو اللصوص فلا نؤخذ على غرة منا . أما أصحابنا

فلا تفكر فى أمرهم فسندعوهم عما قليل. فسار بنطاؤر والدليل متراكنين فى نفق ينتهى الى جب عميق ذى حافة من الحجر الصلد المشرع الاطراف كأسنة الرماح . فلما بلغا اليه قال بربروس: خذ حذرك ومل الى يسارك لان الجب الى يمينك . . ماذا . . انى أشم رائحة دخان . . عليك بمقبض سيفك لأن فى المغارة رجالا . . انتظر هنا حتى أدعو رجالنا .

قال بربروس هذا وانقلب راجعا وظل بنطاور يأذن الى الجهة التى لاح له أن الدخان مندفع منها بتيار الريح ، ثم أمعن النظر فلمح نوراً وسمع أنينا وتبادل سباب ، فدنا من مصدر الصوت ومنبعث الضوء متكئا بيسراه على الصخور وقابضاً بيمناه على السيف وناظرا الى الضوء . وكان والد وردة قد عاد فى هذه الاثناء فسار الاثنان حتى بلغا الى باب المغارة الذى كانت أشعة النور تنبعث من شقوقه ، فاستندا اليه وقال بنطاؤر للجندى : ان القوم من المصريين وها أنذا اسمع حديثهم .. قال والد وردة : فأل حسن ولعل الموجودين هنا بعساكر وفريق من اعوانه . ولا ريب أننا اذا طرقنا الباب أربع طرقات شديدة وثلاثا خفيفة فتحوه لنا لان هذه الطرقات رمز التعارف بين الذين خارج المغارة والذين داخلها ، وهل تفهم مايقولون ؟ قال بنطاؤر : أسمع صوت رجل يلتمس اطلاق سراحه وفك قيوده وآخر يظهر من سياق حديثه عن الاول انه خائن غادر ، وطرق أذنىّ بعد ذلك صوت خشن يرفض هذا الملتمس ويطلب من صاحبه ان يقيم على طاعة مولاه . فلما

سمع صاحب الالتماس هذا الجواب شكا وبكي واستحلف رفيقه بروح والده أن يطلقه من قيوده . ويلوح لى من شكله وقوله ان اليأس قد استحوذ عليه . . ان قلبي ليرفق بحال هذا الرجل ، فاطرق الباب يابربروس فقد حان وقت انقاذه من هذا العذاب الاليم . . اطرق ! اطرق ! لا تخف ! فأطاع بربروس الامر وطرق سبع طرقات اربعا شديدة وثلاثا خفيفة ، فسمع من داخل المغارة صوتا رددت صداه اركانها ثم فتح الباب رجل صلصل بصوته سائلا : أأنت بعاكر . قال بربروس : كلا بل أنا (رشتا) ألا تعرفني يا (نوبى) . فلما سمعه الرجل وهو احد عبيد بعاكر الاحباش تراجع الى الخلف وقال : من جاء بك الى هنا وأنت على قيد الحياة . . قال رشتا أو بربروس وأشار الى بنطاؤر : يجاوبك مولاي هذا على سؤالك .

فتقدم بنطاؤر نحو الحبشى ووقف ازاءه فى موقف تجلت فيه هيبته وبانت طلعته باشعة الضوء المنبعث من نار مشتعلة بالمغارة ، فحدق فيه نوبي النظر ثم سقط على الارض كالمصروع وأخذ يهرّ كالكلب يؤدبه صاحبه ويتمرغ كمن أصابه مس ويقول : هذا خيال الموهار ! هذه روحه قد تجلت لى فى شبح ! لعله اراد ذلك ! لعله أراد ذلك ! فلما رأى بنطاؤر منه هذه الفعال وسمع هذه الاقوال أخذه العجب ، وزاده عجباً ان رأى رجلا مكبلا يحبو متعثراً وينظر اليه مسترحماً ويقول : أتنقذنى من الهلاك يا روح الموهار يا ابت ! أتنقذنى احسانا منك ورحمة ! قال بنطاؤر بعد ان تأمل فيه : لست روحا لاحد الموتى حلت فى جسد

ليكون بها كما كان بين الكائنات . . عجباً ! انى أعرفك ! ألست هوروس أخا بعاكر ألم تتلق العلوم معى فى بيت سيتى ؟ . .

ارتعدت فرائص الاسير المصفد بالحديد وشخص فى بنطاؤر وقال : كن كيف شئت فأنت أشبه الناس بوالدى وصوتك كصوته ، فحق عليك اذن أن تحل قيدى وتطلق سراحى . أنقذنى ! أنقذنى ! من هذا الذل الشائن والعذاب المهين ! أنقذنى ! فقد أبرم الخائنون الحيل للفتك برعمسيس وما نحن جميعاً الا حزبه وأنصاره . فما قرعت هذه الالفاظ سمع بنطاؤر حتى جرد سيفه ففرى به الجلود التى شدّ بها وثاق الاسير وفك الاغلال ، فوقف الرجل وصاح صيحة السرور بالخلاص وشكر للآلهة اسعافهم وامدادهم واثنى على مخلصه ثم قال : ان تكن محباً لمصر صادق الولاء للملك فاتبعنى ، فقد آن أوان كشف المكيدة المدبرة للملك والضرب على أيدى مدبريها بما يكون عبرة لهم وامثولة للاعقاب . قال بربروس : ان الليل الآن حالك الظلمة والطريق الموصل الى الوادى محفوف بالاخطار . قال الرجل : الاستهانة بالاهوال واحتقار المصاعب واجبان الآن فاقتفوا اذن أثرى ولو لقينا الحتوف ثم استولى على سيف الشاعر وخرج . أيقن الحبشى عندئذ ان الشاعر لم يكن روح الموهار تقمصت فى جسد أحد الابرار ، وتذكر انه الكاهن الذى كان يدافع عن وردة وجدها دفاع الابطال فحاول الفرار مقتفياً أثر هوروس شقيق بعاكر فجذبه هوروس من ناصيته فصاح لشدة الالم وقال : اذا طلبت لنفسك النجاة وتركتنى وحيدا هنا فلا خلاص لى من بعاكر . فدعه

هوروس الى باطن المغارة واغلق عليه الباب وقال : انتظر فى هذا المكان فليس لمثلك أمان .

سار بنطاؤر وهوروس وبربروس حتى بلغوا الى الصخرة وانسابوا فى النفق وساروا فيه حبواً تارة وصعوداً وهبوطا تارة اخرى . وما زالوا كذلك حتى نفذوا الى الجهة الاخرى . وكان البرد قارساً فأثر زمهريره فى وجوههم كما لو كانت تلهبها السياط . فقال هوروس : أرى السحب تنقشع انقشاعا يدل على قرب انقضاء العاصفة فامتط يا بنطاؤر صهوة جوادك ولا تضيع دقيقة من وقتك . فأمر الشاعر والد وردة بمرافقة الجند فاعترض هذا بقوله : انهم ومطاياهم قد انهكهم التعب فضلا عن ان السير فى الليل الدامس يعرض السارى الى الاخطار والمخاوف ولا يقطع به الا شوطا قصيرا من البيداء ، والصواب عندى أن ندع الجياد تأخذ نصيبها من الراحة وتستجمع من قوتها ماتستعين به على استئناف السير والاغذاذ فيه . ولا يخفى ان القمر سيطلع علينا بعد ساعة ويملأ الآفاق نورا . فاذا استرشدنا به فى سيرنا أمنا العثار وتجنبنا الاخطار وأطلقنا الاعنة للجياد . قال هوروس : الصواب ما رأيت أيها الجندى ثم أخذ بيده ذاهباً الى مغارة أخرى احتوت كثيرا من الشعير والبلح وقرب النبيذ العتيق ، فبعد أن أخذ بربروس من ذلك ماطاب له ولجنده أشعل واياهم النار ثم تولوا العناية بالخيل فبتسخين الماء بينا كان هوروس وبنطاؤر يسيران سبهللا ، وقد بدت عليهما علامات الجزع . وكان بنطاؤر يسأل هوروس : أكنت موثوق الاكتاف قبل وصولنا بزمن

طويل ؟ أجاب : فعل بى بعاكر أخى ما رأيت منذ أمس . ولقد نجا مما كان لا بد أن يحل به من النكال لولا تعجيله بالانصراف ولعله يقصد الى الخيتاس لينضم اليهم قبل وصولنا الى معسكر الملك فنخسر الفرصة ونضيع النهزة . قال بنطاؤر : يؤخذ من قولك أن بعاكر يدبر المكائد للملك . قال هوروس : نعم . . فقد دبر له حيلة تخجل الوقح بشناعتها وتعافها النفس لبشاعتها . فدنا بنطاؤر من هوروس وكان اعتمد رأسه بكفيه وسأله : ثق بصداقتى واعتمد على أمانتى وقل لى كيف أصبح شقيقك عدوًا لك . أجاب : بعاكر هو أخى الاكبر ، فبعد أن تخرجت من بيت سيتى بزمن توفي والدى وكان آخر كلامه لى وصيته إياي بالامتثال لأمره واعتبارى إياه رئيساً للاسرة من بعده ، غير انى أنست من هذا الاخ البكر بل الاب الجديد ميلا الى القسوة واستبداداً في الرأي وشدة فى المعاملة ، فغالبت ضميرى فى احتمال تلك الرذائل منه وأطعت أوامره احتراماً لارادة أبى واتماماً لمقاصده الشريفة ، ولبثت هكذا حولين كاملين عدت من بعدهما الى طيبة وفيها تزوجت ورزقت أطفالا لا يزالون فى حضانة أمهم ، عند والدتى . وقد مرّ بى الى الآن ستة عشر هلالا وأنا ببلاد الشام أجوب الصحراء وأفرى مع بعاكر القفار . وكان ما زال على سابق عهده من جفاء الطبع وغلظة الكبد وحب الرياسة ، فقابلته بشهامة الرجال وهمة الابطال لا نى أصبحت بعد الزواج غيرى قبله ، اذ تعلمت به كيف أصون كرامتي واحتفظ بمركزى واعمل لتعزيز جانبي . واتفق فى خلال ذلك أن سافر

أخى الى مصر ثم عاد منها منذ ثمانية أسابيع ، ضاربا بأوفى سهم في سوء الخلق وخشونة الطبع . وقد قدم للعتبات الملكية جملة تقارير وقدمت أنا غيرها فحازت تقاريرى من لدنه الرضى والاستحسان فنغرت فى قلبه قروح الحسد فعاد الى مناقشتي ومخاصمتي ومعاملتي بصنوف التعذيب والاذى ، فتدرعت بالصبر . . آه ولكنى لا أود أن أبوح بما صبه علي من ألوان العذاب ، فانه ليس مما يحيط بوصفه اللسان . ومع أنه وهو فى مصر قد وقعت له حوادث خطيرة الشأن فأنه لا يبوح لأحد ما بسرها جريا على عادته فى كتمان أحواله ، سارة كانت أم مكدرة . ومع هذا فقد استنتجت من كلمات فاه بها لأحد الاجانب انه حاقد على مينا وناقم على الملك فأنبهته الى مواقع الزلل ومواطن الخطر فيما يروم أن يسلكه من هذا الطريق ، ثم لم أكرر عليه التنبيه لما ألفته من غضبه وسرعة انتقامه . وإذ كانت الهمم فى المعسكر منصرفة منذ أيام الى اعداد المعدات لواقعة يكون بها فصل الخطاب بين المصريين والخيتاس ، فقد كلفنى الملك بمهمة خطيرة وهي تحرير تقرير ببيان الحالة فى مواقع العدو فبادرت بالاستطلاع وبثثت العيون والارصاد حتى إذا توافرت عندى الاخبار حررت بها فى صبيحة أمس التقرير المطلوب . وما كدت اشرف على ختامه حتى أقبل بعاكر نحوى وطلب منى أن أسلمه إياه قائلا : انه هو الذى أخذ على عهدته أن يقدمه الى الملك فرفضت معتذراً بأن الملك هو الذى تفضل فعهد الىّ أداء هذا العمل وانه لا يليق أن يكون تقديمه على يد غير يدى ، فاحتدم غيظاً

واتهمنى بأنى اغتنمت فرصة غيابه فعملت بحيلتى للتقرب من الملك حتى فزت برضائه دونه ، ولهـذا كلفنى بتحرير التقرير مع أنه كان ينبغى أن يعهد اليه هذا العمل . ثم حتم علي بعد أن أقسم باسم والدنا الطاعة لامره وعدم معارضتى له فى فعله وخرج متخبطا كالمجنون . وبينا كان الخدم يسرجون الخيل رأيت منهم عبداً اسود وضع على متن جواد بعض المتاع وأشياء أخر منها ملفات من الورق فهرولت نحوه ظنا منى أنها التقرير الذى حررته .. ولكن ماذا وجدت ؟ وجدت تقريراً ملفقا بقلم بعاكر قرأت فيه ان الوادى الاكبر المؤدى الى نهر العاصى (الأورنت) فى الشمال الشرقى من بلدة قادش لا أثر فيه للعدو وأنه ممهد يسهل على المركبات سلوكه ، مع انى فى أثناء الاستطلاع رأيت ذلك الوادى غاصاً بالاعداء ودونت هذا الخبر فى تقريرى الذى اغتصبه أخى منى وقرأت أموراً أخر اذا اعتقد الملك بصحتها وأخذ بها كأنها قضية مسلمة كانت له كالشباك الممدود أو الفخ المنصوب . فلما أيقنت المكيدة بحثت فى كنانة بعاكر فرأيت بها سهاماً كتب عليها « فليهلك مينا » ثم رأيت ملفا صغيراً من ورق البردى ففتحته ، فجمد دمى فى عروقى حين قرأت فى عنوانه ما يأتى « الى ملك الختياس . . الى تيتور رئيس ضباطه » . وكان هذا الملف والملف الاول فى يدى حين أقبل بعاكر ، فلم أتمالك حينما ابصرت به أن قلت : ويلك من خائن أثيم !

فلم يعر لهـذا القول أذنا بل ألقى حول عنقى حبلا بطرفه آخية وهو يتخذه لضبط الخيل الجامحة فى المرعى فضغطت الآخية على رقبتى

وكتمت انفاسى حتى كدت اختنق ثم أرخى الحبل وجذبنى اليه من ناصيتى وشرع يشدّ وثاقي بمساعدة عبده الاسود . وحملنى هذا العبد الى داخل المغارة ووقف على حراستى، بينا كان بعاكر يرخى العنان لجياده قاصداً معسكر العدو . هذه خلاصة ما اتفق لى مع هذا الخائن ، ومنها ترى ان لى حقا فى طلب التعجيل بالسفر ، وها قد تلألأت الكواكب وبدأ القمر يعلو على الافق .

قال بنطاؤر بصوت جهوري : هلموا الى الرحيل واحضروا ثلاثة من كرام الخيل لهوروس وبربروس ولى، ولا يرافقنا احد منكم بل لا بد لكم من البقاء هنا حتى نعود . وكان القمر يتخلل السحب فاستوى الثلاثة على جيادهم وانطلقوا مسرعين فلما وصلوا بعد ساعة الى السهل عدت بهم الجياد قاصدة بحيرة قادش التى كانت تبرق فى الافق كمرآة من الصلب صقيلة تنعكس على سطحها أشعة الشمس المشرقة ، ولم يمض زمن حتى بلغوا الى الضفة الغربية من تلك البحيرة ، وكانت أرضها جرداء لا نبت بها فلمحوا من بعيد غبارا متصاعدا كان ينجلى بين آن وآخر عن اشباح متلاحمة ورماح متشابكة وسيوف متشاجرة ، فأكب هوروس بنفسه على جيد جواده باكيا مصعدا الزفرات قائلا : الواقعة ! الواقعة! قال بنطاؤر : نحن لم نخسرها . ثم أطلق لجواده العنان وتبعه رفيقاه فسقط جواد رشتا والد وردة من تحته لكثرة الاعياء والاجهاد وتلاه جواد هوروس الذى قال : ربما جاءت السلامة من ناحية الجناح الايسر . . انى عالم باسرار المكان فلا بد من الوصول اليه ركضا على الاقدام . اما

انت يا بنطاؤر فذهابك الى الملك ميسور اذا سرت على ضفة النهر قرب الجسر المدعم بالاحجار ، لان مهاجمة الجناح الذى ستناط به مفاجأة الجيش لا تكون الا من الوادى المجاور للنهر على مسافه الف خطوة من الشمال ، فانطلق اذن واجتهد أن تقابل رعمسيس لتطلعه على جلية الامر . واذا سألك عن كلمة السر فقل (بنت انات) وهو اسم كريمته العزيزة . . عجل بالذهاب واطلب لقاءه وإلا دهمه الالوف من الاعداء أما أنا فسأعمل للانضمام الى الجناح الايسر والحملة على مؤخرة العدو . فأطلق بنطاؤر العنان لجواده ولكنه لم يلبث أن أجهده التعب وسقط من تحته فعدا على قدميه عدواً سريعا وجرى كهبوب الريح مكررا لفظتي (بنت انات) . وكان كلما طرق هذا الاسم مسمعه تجددت فيه قوة تعاونه على احتمال مشاق الركض وظل كذلك حتى التقى بأحد فرسان العدو فجندله بطعنة رمح ، ثم استوى على ظهر جواده مكانه وارخى له العنان مندفعاً الى ميدان القتال ، بهمة من يطمح الى الاقتران بغادة كريمة من الحسان .

الفصل الثالث عشر

ليلة تقلد السلاح والاستعداد للكفاح

كانت ليلة المعركة من الليالى المشهودة فى معسكر الملك إذ كنت ترى الجنود فى حركة دائمة، وهمتهم فى اعداد معدات القتال قائمة، وعيونهم للتبكير قبل بزوغ الشمس غير نائمة ، عملا بالارادة الملكية وتحقيقاً للمقاصد الوطنية . وكانت تبدو على وجه كل جندي أمارات الشوق الى النزال لاحراز فخر الانتصار والعودة من حومة الوغى مكللا بالغار . وكان بعاكر قدم لمولاه الملك تقريره عن مواقع العدو ، فعقد المجلس الحربى للنظر فيها ، فأقر على أن تكون خطة الهجوم كما يأتى : تزحف فرقة (رع) جنوباً حتى تبلغ الى ما يلى بحيرة (شباطوم) كي تفجأ جناح العدو وتنكل به . وتسير فرقة (سب) المؤلفة من جنود الوجه البحرى فى القلب من ناحية (أنام) . ويزحف الملك بمركباته وصفوة الابطال من جنده فى الوادى الذى أشار بعاكر اليه فى تقريره حتى يصل الى نهر (أورنت) فيعبره خوضا بجنوده ثم يبرحه ليستولى على قلعة قادش . أما فرقة آمون فى الجناح الآخر فتسير مع الجنود الحبشان فى طريق ذكر الموهار انه مسلوك وهو لم يكن كذلك فى الحقيقة وتقرر أن تبقى فرقة (فتاح) على أهبة نجدة الجناح الايسر وامداده عند الحاجة .

لم تكتحل جفون الجند بنوم ، بل قضوا ليلهم فى إعداد معدات الكفاح . وكانت ثلة من الجنود المدججين بالسلاح يحرسون أبواب المعسكر وفى يد كل منهم درقة مستطيلة وسيف قصير عريض محدد الطرف ، وعلى مقربة منهم نيران مشتعلة ينبعث منها ضوء احمر اللون . وكان الجنود الآخرون مجتمعين داخل المعسكر على هيئة حلقات لتعاطى النبيذ أو انضاج اللحوم أو لعب الميسر على الغنائم المأمول أخذها وكثيراً ما أفضت هذه اللعبة المسماة (مورا) باللاعبين الى أخذهم بتلابيب بعضهم البعض . وكان يشتغل الحدادون فى جوارهم بوضع الحدوات فى حوافر الخيل ، والسنانون بأرهاف الاسلحة لتكون بتارة لرقاب الاعداء ، وخدم الضباط بتهيئة المركبات وحمل اجزائها على الحمير لنقلها فى مضائق الجبال ومنعرجات الصخور والاوعار . وكان الكهان شرقي المعسكر فى أشاغيل شتى حول ظلة نصبوها هنالك ، إذ كان فريق منهم يترنمون بالاناشيد الدينية والفريق الآخر يقدمون القرابين ويباركون فى الضباط وعليهم . وكان يصم الآذان فى غضون ذلك صراخ اللاعبين وسباب السكارى وصهيل الخيل ونهيق الحمير ، ويحول دون الوقوف على معانى أغانى المنشدين ، غير أن هذه الجلبة كانت لا تلبث أن تتحول الى سكون عام فيحل محلها ، بين حين وآخر ، زئير الاسود المستأنسة التى ستحف بمركبة الملك فى معمعان القتال حتى لا يجسر على الدنو منها الا من حقت عليهم كلمة الهلاك . وقد تعمد المكلفون بخدمتها عدم تقديم الغذاء لها منذ اليوم الماضي ليستفزها

السغب الى الثورة والغضب ويزداد منها على الاعداء العطب .

وكانت صواوين الملك مضروبة وسط المعسكر ، تحيط بها خيام الاحراس والضباط اصحاب المركبات . أما الجيوش التى حشدت من غير المصريين فكانت مصطفة خطوطا متوازية يرأس رجالها جنود من المصريين ، فكنت ترى هنا الحبشان بشعورهم المتجعدة وهناك ابناء الرمال الذين تواردوا من الصحراء ، يلفتون الانظار بقوامهم المعتدل ويميدون يمنة ويسرة راقصين كعاداتهم عند انتشاب الحرب ويخطرون بسيوفهم ورماحهم ، وعلى مقربة منهم الجنود الصقليون صفر الوجوه بخوذاتهم المعدنية وسيوفهم الكبيرة والليبيون بألوانهم الواضحة وأذرعتهم الموشومة ورؤوسهم المزينة بريش النعام ، والعرب سمر الوجوه بلحاهم الجميلة المحددة الاطراف وقد وقفوا الى جانب جيادهم يسانونها بمس جيدها لهجين بالادعية للكواكب أن تمدهم بالانتصار وتتوجهم بتاج العز والفخار ، الى غير هؤلاء وأولئك من القبائل التى لا حصر لأساميها ، وقد تقلدوا جميعاً السيوف وملأوا كناناتهم بالسهام ليرشقوا بها الاعداء اللئام ويوردوهم موارد الحتوف . ويرأسهم على اختلاف أجناسهم وتباين لغاتهم وتنوع ملابسهم الملك رعمسيس ، فكأنما هو سائق جياد يسوسها بعنان واحد .

وكان بوسط الصواوين الملكية هيكل صغير غير سميك الجدران رفعت فيه تماثيل آلهة طيبة وصور أجداد الملك . وكان دخان البخور يصعد منه الى طبقات الجو فتبدده الرياح كما تبدد السحب الكثيفة

وتنشر رائحته الساطعة في أركان الفضاء . وكان الكهان يقدمون فيه القرابين لآمون رب الارباب و (نيشب) إلهة الجنوب التى بيدها الفوز تؤتيه من تشاء و (منث) إله الحرب .

وكان الى جانب الصيوان المعدّ لنوم فرعون المكان الخاص بحارس الاسود ، وأقيمت تجاه صيوان عقد الجلسات اعلام كثيرة . وكان السكون بهذه الناحية من المعسكر سائدا بخلافه فى النواحى الاخرى منه حيث كانت جلبة الجند وغيرهم ، ولا سيما فى الخيام المعدة لادخار المأكولات والأنبذة وتحضير الأطعمة ، ترتفع الى عنان السماء . وكان بين هذه الخيام خيمة منصوبة على مستطيل كبير من الارض مدت فيه الموائد وعلقت بداخلها وخارجها مصابيح الزجاج الملون ووقف حولها الجنود الصقليون والليبيون والمصريون وقد شهروا السيوف ، يرون ما يمر امامهم من الحوادث دون أن يبدوا اشارة أو ينبسوا بكلمة ويقفون أنظارهم على الاوانى الذهبية يتصعد منها بخار الطعام والقنانى البلورية تشبه العقيق لونا ولألاء بما شملته من الشمول ويطوف بها حول المائدة الملكية ولدان من ابناء الاشراف والأسر الكريمة فى الهيئة المصرية . وكان هذا الصيوان موضوعا بحيث يستطيع الخدم عند الانتقال والارتحال أن يفكوا أجزاءه فى وقت قصير ، ثم يركبونها كذلك . وكانت جدرانه قطعا من قماش لين كثيف لا ينفذ منه الماء نسج بمدينة منفيس وطلته بالالوان الجميلة والنقوش العجيبة فى بلده طانيس أيدى مهرة العمال الفينيقيين . وكان فى أجزائه جزء نسجه عمال (صائيس)

ورسموا فيه باسلاك الفضة صورة نسر الانتصار الذى يمثل الالهة نيشب مكررة مائة مرة . أما الاعمدة فكانت من خشب شجرة الارز المصفح بالذهب الخالص والنضار المصفى تمسكها أطناب فتلت بخيوط الحرير وأسلاك الفضة .

مدت بداخل هذا الصيوان أربع موائد جلس اليها مائة مدعو . وقد خصص ثلاث منها بقواد الجيش ورؤساء الدين وأكابر الكهان والمستشارين ، والرابعة للأمراء من الاسرة المالكة . الا أن رعمسيس لم يكن يجلس بينهم اذ جلس الى مائدته الخاصة التى مدت فى مكان مرتفع يصعد اليه بدرج مفروشة بجلود النمورة والفهود ليشرف منه فى اثناء الطعام على جميع الآكلين فتزداد هيبته وشوكته استقراراً فى نفوسهم .

وكان رعمسيس جميل الصورة متين الاركان مرتفع القامة معتدل القوام مرسل اللحية الى الصدر مكال الهامة باكليل الوجهين القبلى والبحرى ، فى عنقه عقد عريض سلكت فيه الاحجار الكريمة ، وعلى كتفه وشاح ساتر لبعض جسمه ، أما الذراعان فكانت تكاد تخفيهما دمالج الذهب النقي لكثرتها . وكانت أعضاؤه المتينة وعضلاته البارزة وبشرته الصقيلة اللامعة النحاسية اللون تنم على حقيقة نفسه وأنه خلق للنهي والامر وللحرب والفوز . وكان فى مجلسه الذى وصفناه يرمق ابناءه بعين الاغتباط والفخر ويحوطهم بمظاهر العطف والرفق ؟ الا انه كان مع ذلك اشبه بالليث ، مهما يخلد الى السكون ويلتزم الراحة تصحبه

القوة والشوكة والقدرة على قهر المصاعب . ولئن قطعت يده الخبز فى لين ورفق فأنها سرعان ما يشتد وقعها ويقسو ضربها إذ أمسكت بمقبض السيف وأطارت به المئات من هامات الاعداء .

كانت أحوال هذا الرجل العظيم وتصرفاته فعلا وقولا تشف عن أخلاق فاضلة وصفات تنطق بعبقريته وتسمو به على النظراء . ومع ما خصه الله من هذه الفضائل التي قلما اجتمعت فى احد إلا أن كان نادرة زمانه ونسيج وحده ، فان ناظره أو محدثه كان لا يشيم منه الا الدعة والدماثة والرفق فى سمت وهمة وعزة ، ولا يلبث أن يأنس من بسامة ثغره ما يملأ بالطمأنينة قلبه . وإذا كان العدو ترهبه صلصلة حلقه التى تشبه الرعد القاصف فى حومة الوغى ، فأن محدثه لا يسمعه الا أن يعجب بعذوبة لفظه وسلاسة خلقه إذا خاطبه ملتمساً اقناعه بصحه ما يريد إقامة الدليل عليه . وكل هذا عائد الى المبادىء الصحيحة التى شب عليها مذ نعومة الاظفار فجعلته ملكا يخشى بأسه فى سويعات الأمر والنهي وحليما يرجى خيره فى أوقات الراحة من عناء الحكم .

وكان يقف من خلفه ساعتئذ شاب شديد العضلات فى ضمور ، معتدل القوام فى اطمئنان حسن الشارة من غير تعمل ، يقدم الى فرعون كأس شراب بعد أن يشرب هو منها قليلا فكان كلما أفرغها رعمسيس فى جوفه ملأها ثانياً وقدمها اليه بعد أن يكرر ذلك الفعل . هذا الشاب هو مينا زوج نيفرت وأقرب المقربين الى الملك . وكان الناظر اليه يستشف من ملامحه عزة النفس وكرم المحتد . وهو وان لم يكن يعتمد

على آرائهم فى المجالس العالية أو يركن اليهم فيما يستدعي شدة العارضة وثقابة الفكر وبعد النظر فى المصائر ، إلا أنه كان على إرث كبير من الرقة وصفاء الطبع وصدق الولاء فى المخالطة . أما (شاموس) بكر ابناء رعمسيس ، وهو الذى رقي فى الكهنوت الى مرتبة كاهن أعظم لمدينة منفيس ، فكان أقرب موضعاً فى المأدبة الى أبيه ويتلوه أخوه (منفتاح) ثم صاحبنا (راميرى) ذو الشعر المرسل الذى كان العدو أسره فانقذه من الاسر بعض الجند الذين يدينون بعقيدة الولاء للسدة الملكية . وكان رعمسيس يحادث ابنه راميرى فى موضوع المؤامرة التى كان نقل اليه خبرها وقال : ان ما نقلته الي من اخبار مصر لموجب لشديد القلق وداع الى الخوف من سوء العاقبة . ولست أشك هنيهة فى صحة التهمة التى وجهتها الى المتآمرين ، غير انى ما زلت أجنح الى الاعتقاد بان افراطك في محبتى وغلوك فى الولاء لى قد حادا بك عن نهج الصواب وصرفاك عن مشاهدة الحقيقة المحسوسة . ومن ثم عراك الخوف من سوء مغبة ما وقع فى وهمك . وإذا انضاف ما رويته لى من ذلك الى الرسالة التى وردت من بنت أنات والتقرير الذى حرره مباشر خيل مينا والاخطارات السرية التى تواردت علي تباعا من مصر ، فان قلبي مع خطورة ذلك كله لن يرتاع بسوء مغبته ، لانه وان يكن آنى يتمنى من صميم الفؤاد التربع فى هذا الدست لايهام السذج بعزته وعلو مكانته ولكنى أعتقد أنه يقنع بأي نصيب أمنحه إياه عند عودتى ، بل يرضى بلاشىء . فلتطمئن إذن خواطركم ، فالرجل ليس من ذوى الصبر

والجلد فى جسام الامور وخطير الاعمال . وقد حبب عجزه هذا الىّ اعتقادى غباوته وضيق عقله وقصر نظره وأنه لن ينفذ ما يبتكره أو يبتكره له غيره . فقال شاموس وقد أحنى رأسه أمام والده احتراما له : ومع هذا فقد استطاع أمينى أن يذكى فى قلبه نار المطامع فأصبح مما يصح الجهر به ان الكاهن الاعظم هو رأس الفتنة وآنى ساعدها ، وهو رجل عرف بالذكاء وقوة الارادة ، اذا قال فعل وأجاد الفعل وأحسن التدبير بحيث يخضع لامره نصف الكهنة فى الديار المصرية .

قال فرعون : انى عالم بذلك وعالم ايضاً ان أكابر الامة وسراتها ما زالوا ناقمين علىّ لأنى سقت عبيدهم وفلاحيهم الى ميدان القتال ، ومع هذا فلم يأت هؤلاء العبيد بفائدة لانهم جبناء تقشعر أبدانهم متى احتدمت المعركة . وقد عولت على تخصيصهم منذ الغد بحراسة المعسكر ولعلهم يفلحون فى أداء هذه المهمة السهلة . واذا نحن حملنا على قادش ودخلناها عنوة فلسوف نغنم منها التحف الكثيرة والخيرات الوفيرة التى سيؤول أوفى نصيب منها الى هياكل وادى النيل . فعليك ياشاموس أن تبلغ الى زملائك كهان هيكل منفيس ان والدك سيضاعف لهم ما كان أخذه منهم . قال شاموس : ان لتذمر أمينى وتحيزه لآنى ومالأته اياه فى تدبير المكائد ضد الملك أسبابا أخر أولى بالالتفات ، ويكفى مولاي الوالد هذا الالماع فان فكره . . قاطعه رعمسيس : ان سراة الامة وكبراءها اعتادوا ارشاد الملوك والاخذ بزمامهم فى القيام بشؤون الرعية ولكنى أضرب بنصائحهم ومشوراتهم عرض الحائط

لأنى النائب وحدى فى ادارة تلك الشؤون عن ملك الآلهة ورب الارباب . . نعم لست أزعم أنى اله وإن يكن يقام لى من المراسم مايشبه أن يكون مراسم الآلهة ولكنى أدع للكهان القيام بما هو اختصاصهم المألوف ، وهو الوساطة بين الآلهة وبينى وأمتى ، فيما يرتبط بالامور الدينية . أما الامور الدنيوية فما زلت قابضاً بيدى على زمامها ، إذ لى وحدى الحق الصريح فى القيام بها . ولنترك البحث فى هذا الموضوع لأن من الخصال التى فطرت عليها اجتناب التظنى فى الاصدقاء والثقة بالغير ولو أدى ذلك الى ما لا تحمد عقباه .

قال هذا وأشار الى مينا فأقبل عليه بالكأس الذهبية فتجرع ما فيها من الشراب عباً ، ثم حدق فى الحاضرين بعين الليث وقال بصوت جهوري متهدج : إذا كانت صفوة القوم الذين وضعت فى أيديهم زمام مملكتى ليسلكوا بها سبيل الرشاد فى غيابى كأمينى وآنى يريدون إيقاعى فى شرك الحيل السافلة والتدابير السخيفة ، فسيكون عهدى بالعودة الى مصر وشيكا . ووقتئذ لا يكبر عليّ وطء تلك الافاعى بقدميّ وهي تدب فى رمال استنباط الحيل والتدابير . وكان لصوت رعمسيس وهو يفوه بهذه الكلمات دويّ تردده أركان المكان حتى جمد السامعون فى أماكنهم لا ينبسون بكلمة ولا تبدو منهم حركة . ولكنه بعد إذ سكت هنيهة رفع رأسه وقال بصوت تختلجه نبرات السرور والعطف : اصدقائى وخلصائى ! لتطمئن افئدتكم وليهدأ جأشكم قبل أن يشب ضرام القتال . فغير عازب عليكم اننا قمنا بفعال توجب المجد والفخر وأن

شعوب الارض طرّا ، حتى القاصية منها ، قد أحست شدة بطشنا ونفوذ سلطاننا وأننا شدنا على ضفاف الانهر آثاراً ناطقة ببيان ما فتحناه من الامصار ، ونقشنا فى الصخور الصلدة ما يخلد ذكرى شهامتنا فى صدور الذرارى والاعقاب . ما ذلك الا لأن مليككم وصاحب السيادة عليكم وأعظم الملوك شوكة ، ما عظمة ملكه وبسطة نفوذه الا من فضل الآلهة وفضلكم أيها الاخوان الاعزاء . ولا مشاحة فى أن واقعة الغد ستضيف الى فخاركم فخراً جديداً والى مجدكم مجداً مستأنفاً ، فادعوا الى الآلهة أن توفقكم فيها للفوز وأن تمنحكم الغلبة على العدو الى أن تضع الحرب أوزارها ويدنو موعد الأوبة الى الوطن العزيز . . ارفعوا جميعاً كؤوسكم واشربوا معي فى حب الانتصار وسر العودة الى الديار .

فصاح الجميع بصوت واحد : لك الاقبال والنصر ! لك العزة والفخر ! لك الصحة والعافية ! لك الرفعة والمجد ! فنزل رعمسيس من علوة عرشه ثم سار بين ضيوفه قائلا : عليكم بالراحة حتى يختفى كوكب ايزيس ، فاذا ظفرتم منها بما يجدد فيكم النشاط ويستفز الهمم فاتبعونى الى هيكل آمون ومنه الى ميدان القتال . فما أتم رعمسيس هذه الكلم حتى انطلقت الالسنة بالدعاء للملك بالفوز والنصر وعلو القدر وبقاء الذكر . وكان فى خلال ذلك يخاطب ولديه منفتاح ورامیرى بعبارات التشجيع ثم أمرهما باتباعه فبرح الثلاثة صيوان المأدبة يتقدمهم الحرس يحملون بأيديهم قضبانا نيطت بأعلاها ريش النعام وزهور الزنبق الممومة بالزرياب واقتفى مينا أثرهم وظلوا سائرين حتى وصلوا الى الصيوان

الملكي المعدّ للنوم ، فأمر رعمسيس قبل الدخول فيه باحضار اللحوم النيئة ، فلما أحضرت قدمها بيده الى أسوده الذين كانوا يطوفون به ويتملقونه ويستجدونه نظرة عطف . ثم دخل اسطبل الافراس الكريمة فتفقدها واختار منها اثنتين لجرّ مركبته فى الغداة الى ميدان القتال ، واسمهما (نوره) و (نصرة طيبة) . ثم عاد الى صيوان النوم فأشار على ندمائه وصحبه بالانصراف وأمر مينا بتجريده من السلاح والعقود والدمالج ، فلما انتهت هذه المهمة دعا بولديه وكانا بباب الصيوان مضطربي الخاطر شديدي القلق ، فقال بصوت مرتفع : أتعلمان لمَ امرتكما باقتفاء أثرى ؟ فلزما الصمت فكرر السؤال ، فأجاب راميرى : لعل مولانا الوالد استشعر ما بينى وشقيقى من الشقاق . قال الملك : نعم هذا ما استشعرته وبعينيّ شاهدته . وانى لراغب فى ان يسود الوئام بين ابنائى جميعاً وكفاكم فى الغداة ما ستمتلىء به صدوركم من المقت والبغض للاعداء ، ثم اعلما أن الاصدقاء الصادقين أصبحوا ولا وجود لهم فى هذه الايام ، مع انهم أول من ينبغى ان يلاقوا النكال فى حومة القتال ، فاذا كان من حظ أحدنا أن يصرعه الاعداء فأولى به أن يذهب فى خير وسلام وأن يمحو من قلبه أثر الضغينة والبغضاء . . قل لى يا راميرى ما سبب النزاع بينك وأخيك ؟ . أجاب الامير : أبت ! لست أكن له حقدا ولا أريد به سوءا . وخلاصة الامر أنك جزيتنى على ما أظهرته من الشهامة فى منازلة الخيتاس بسيفى هذا الذي تراه معلقاً بنجاد أخى منفتاح . والمألوف أننا ننام معا فى صيوان واحد ، فلما

كانت صبيحة أمس جردت سيفى من غمده لاغتبط بحسن صنعه ومضاء حده فتولانى الدهش اذ رأيت أنه ليس السيف الذى وهبتني إياه ، وأيقنت ان منفتاح أخذه وبدل منه بغيره . قال منفتاح : ما فعلت هذا الا من باب المازحة والتطايب ، ولكنى علمت فيما بعد أنه يكره المزح وقد قرصنى بواحدة من قوارص كلماته حيث قال انه لمتنازل عن سيفه لى كي أتحلى بمكافأة لم أنلها بفضلى وأن فى وسعه القيام من جليل الفعال بما يستحق عليه المكافأة بسيف آخر . قال الملك : كفى . كفى ! لقد وقفت على سر الخلاف وسبب قلة الائتلاف . وحكمت عليكما بأنكما وقعتما معاً فى الغلط وركبتما متن الشطط . واعلم يا ولدى منفتاح أنه خليق بمثلك اجتناب الغش ولو قصدت به الى المزح ، فقد حدث يوما انى كبوت كبوتك بارتكاب ما يشبه هفوتك . . سألتنى والدتى المقدسة (تأتى) قبل شخوصى الى بلاد (التنوس) أن اجلب لها فى عودتى منها قطعة من حجر سواحل (بيلوس) التى دفعت لجج البحر اليها جثة أوزريس للتبرك به ، فاتفق لسوء حظى ونكد طالعى ان نسيت قضاء ما سألت ولم أذكره الا عقيب عودتى الى طيبة وكنت وقتئذ فى مقتبل العمر وربيع الشباب ، فدفع بى النزق الى التقاط حجر من احجار الطريق قدمته اليها مدعيا انه ذلك الحجر المقدس والتحفة النادرة التى كلفتنى احضارها ، فسرت سرورا وتهلل وجهها بشراً وحبوراً وأخذت تعرض الحجر على اخوتها واخواتها اعجابا وافتخاراً . ثم جعلته فى حرز حريز ووضعته الى جانب تماثيل الاجداد ، فلما رأيت منها شدة

الاهتمام بعرض دنيء لا يستحق العناية وعلمت انني غششتها وضللتها بما ادعيت كذباً وبهتاناً دبت الى قلبي عقارب الندم ووخزني واخز السريرة فلم أذق للراحة طعما ، ليلا ولا نهارا ، وأبت نفسي أن يكون ذلك الحجر الوضيع محترم المقام عليّ الشان كأنه علق من الاعلاق النفيسة أو تحفة من التحف النادرة فلم يسعني الا أن القي به في النيل . فلما شعر القوم في القصر بضياعه قاموا على قدم وساق وفتحوا للتحقيق أبوابا وألقيت الشبهات على الغاشية والحشم والندامى ، فخفت أن يضحى أحدهم ويذهب فداء للآخرين ، وان يؤخذ البريء بذنب الجاني فبادرت بالاعتراف وقصصت حقيقة الامر من رأسه الى قدمه . وكنت أود أن لو أقع تحت طائلة العقاب ، ولكنهم صرفوا النظر عن معاقبتي وتركوني وشأني فازداد قلقي واضطرابي واشتدت على نفسي وخزات السريرة وتبكيت الضمير ، ولم يذهب عني الباس الا بتوالي الايام وتعاقب الاعوام . غير أن هذه الحادثة أفادتني فائدة ذات قيمة وهي أطراح الكذب ولو في المزح ، فعليك يا منفتاح بالسير على سنن أبيك وسلوك منهاجه . أما أنت يا راميرى فخذ سيفك ولا تنس ان الحياة سيل ينحدر بالشقاء والآلام وان خير الناس من عود نفسه وهو في شرخ الشباب التجاوز عن الهفوات والا عاد مكفهر الوجه كاسف البال كبعا كر رئيس الطلائع . فهيا يا ولدي تصالحا وامحوا الضغائن من قلبيكما .

فدنا الاميران من بعضهما وألقى راميرى بنفسه على أخيه بحركة

مصدرها الانبعاث النفسي ثم قبله . فوضع الملك يديه عليهما وقال : هيا اذهبا للاستراحة كي تفوزا غداً بالحمد والثناء . فلما غادر الاميران مجلس أبيهما التفت فرعون الى مينا وقال له : أود أن أحدثك قبل انتشاب الحرب فى أمر ذي بال . لقد قيل ان العين مرآة القلب وهاء نذا أرى في عينك ما يشير الى هموم تساور فؤادك منذ حضر من طيبة حارس خيولك ، فماذا يا ترى قد دهاك وما الاخبار التى بها وافاك ؟ أجاب مينا بصوت ينم على ما فى فؤاده من الكدر والحزن : ان حماتى راتوتى أساءت تدبير أموالى فقد رهنت اطيانى وباعت ما كنت أملكه من السائمة . قال الملك : ان لهذا الداء دواء فلا تحزن .. سأغدق عليك من النعم والعطايا السنية ما يتجاوز مأمولك ان أقمت لى الدليل على أن نيفرت لم تتغير حتى الآن ثقتها بك وانها ما برحت مقيمة على حبك . . ألا يكون القلق الذى ساورك وبدت علائمه على وجهك نتيجة وهم وقع بشأنها فى قلبك ؟ ما عهدتك قط شديد الاهتمام بمالك وأرضك . . فاذا كنت بقصرك الكلام عليهما تقصد الى ستر حقيقة الواقع عنى فانى أحب منك أن تميط الستار الذى مددته عليها وان لا تنكر علىّ شيئاً ، واعلم أنى منك بمثابة الوالد من ابنه فكاشفنى بكل ما فى صدرك ولن ينقلب قائد فرسانى المحبوب الى أهله كاسف البال حزين القلب . . فقبل مينا صولجان الملك وقال : تركت نيفرت والدتها لترافق كريمتكم بنت أنات في حجها الى جبل سيناء وبلدة ماجدو . قال رعمسيس : فى النقلة والارتحال تحسين للحال ورجاء للاستقبال ،

فدع نيفرت تعيش فى كنف بنت أنات فانه لا أحد يعنى بحمايتها ويحرص عليها مثلها . قال مينا : لا ريب عندى فى هـذا وإنما وقعت قبل رحيلى من طيبة حوادث ليست مما يرتاح اليه الخاطر، فانه لما تكرم مولاي فخطب لى نيفرت من امها كانت مخطوبة لبعاكر ابن خالتها، وقد اغتنم هذا فرصة غيابى عنها بعد زواجى بها إذ قضت الظروف بذلك الرحيل لقتال الاعداء فأكثر التردد على بيتى والاختلاط بحماتى والتودد اليها حتى لقد نقل الىّ أنه أنعم عليها بمال طائل لتسدد به ديون ابنهـا وقد تذرع بصنوف الحيل والتدابير للتدخل فى شؤون أسرتى حتى بلغ من سماجته فى ذلك أن اهدي الى حليلتى باقة من الزهور وقد رآه حارس جيادى رأي العين . فتبسم الملك ثم أهوى بيده على كتفه وقال : يؤخذ من قولك انك تطلب من زوجتك الثقة العمياء بك وان تكون المثل الاعلى عفة ونزاهة مع انك لم تأنف من ايواء امرأة اجنبية فى صيوانك . وإذا كان هذا عجباً فأبعث منه على العجب أن تفتح للتظنى باباً الى فؤادك لمجرد أن ابن خالة زوجك أهدى اليهـا باقة من غض الزهر .. ليس من العدل ولا الحق أن يكيل المرء بمكيالين أو يزن بميزانين . . والمرجح فى نظرى أن كل ما فى الامر أن ثارت بنفسك عواصف الغيرة من ذلك الوحش الذى تلاقت فيه صنوف المثالب بل الحجر الثقيل الذى قذفت به الشياطين فى بيت المرحوم الموهار السابق . قال مينا : الحقيقة يا مولاي ان ثقتى فى نيفرت لا تزال كما كانت ثقة الرجل النزيه بزوجته الطاهرة النقية الجيب . الا أن نفسى لا تطيق

أن يكون بعاكر، ذلك الشخص الدميم الخلقة الشبيه بالذبابة السامة، هو الذى يجرأ على استجلاء محياها وتقديم الزهور فى بيتى اليها . قال الملك : جدير بمن يطمح الى احراز ثقة الناس أن يثق بهم فعلا . ألا ترانى مضطراً فى أحوال كثيرة الى قبول القصائد الشعرية فى مدح فعالى والتنويه بذكرى من قوم هم فى اخلاقهم وطبائعهم مثال الدناءة والسفال؟ فدع عنك الهمّ والبال واستعد غداً للنزال .. استعد للانتصار والعود الى وطنك مكللا بالغار ، ولا يذهبن عليك أن بعاكر سيعفو عنك بقدر ما فرط منك . . انصرف الآن وتفقد الخيل واركب غداً المركبة بما عهد فيك من الشهامة فى مواطن الطعن والنزال .

ذهب مينا ليتفقد الخيل فالتقى برامبرى الذى ابتدره بقوله : لعلك تعلم يا مينا انى ما زلت أنزهك من المعائب وأبرئك من الشوائب وأرفع قدرك الى المنازل العالية واقتدى بك فى المحامد . ولكن لا أنكر عليك ما اعترانى من الشك فى نزاهة قصدك منذ علمت أنك أتيت الى صيوانك بامرأة أجنبية وانت تعلم انك قرين أجمل نساء طيبة وأكرمهن محتداً . . انى كأخ لنيفرت ، عارفٍ بما ينطوى عليه فؤادها وما تجنح اليه نفسها ، أؤكد لك أنها لن تعيش ساعة واحدة إذا ايقنت انك فضحتها بأيوائك امرأة اجنبية فى صيوانك . . هذا الفعل منك عار كبير لا يلصقه بالمرأة المصرية الا عدم الوفاء لها بالامانة والعفاف . فارجو منك ألا تحقد عليّ فلا يعلم الا الآلهة ما يجىء به الغد .

وكان مينا يصغى الى حديث رامبرى دون أن تبدو عليه علامات

الاكتراث . فلما أتم الامير كلامه قال : يعجبنى منك أيها الامير الكريم اقتداؤك بأبيك فى الصراحة والصدق والاعراب عن كل ما يتلجلج به خاطرك دون تصنع ولا مواربة ، كما يسرنى أن تكون مثله في الامساك عن الحكم على متهم قبل سماع دفاعه عن نفسه . . لست بمنكر عليك أن فى صيوانى امرأة اجنبية هى ابنة ملك الدنائم . ولكن لعله وصل الى علمك انى منذ بضعة أقمار لا أتردد على هذا الصيوان بل أقيم على الدوام بباب صيوان والدك الملك . . ادن منى قليلا لأروي عليك القصة بحذافيرها حتى لا يداخلك الشك فى نزاهة قصدى وحسن نيتى وأوقفك على أسباب وجود تلك المرأة عندى . . كان المعسكر ضاربا تحت حصون قادش ، وكان رعمسيس ملازما الفراش لجرح أصابه فأصبحنا فى بطالة يسأم منها النشيط ، وكنت لذلك أقضى جل وقتى فى الصيد والقنص على سواحل البحر . وحدث يوما ان اوغلت فى تلك الجهة فأذا بكتيبة من جيش الدنائم أحاطت بى احاطة السوار بالمعصم وأخذتنى الى معسكرها أسيراً بعد إذ أوثقت كتافى . وقد اعتبرني قواد العدو من العيون المبثوثة عليهم فحكموا علي بالاعدام وشرعوا فى تنفيذ الحكم إذ أحاطوا بالحبل عنقى . وكان الملك لحسن طالعى ووفور حظى مقبلا فى تلك الساعة فسألنى عن حالى فأطلعته على الحقيقة فأطلق سراحى وأحسن معاملتى واكرم مثواي ودعانى لتناول الطعام على مائدته . وكان لحسن صنيعه من التأثير فى نفسى ما حبب الي مقابلة هذا الصنيع بمثله . وقد سنحت فرصة لذلك بعد زمن يسير إذ لم ينقض على

تلك الحادثة شهر حتى هجم جنودنا الليبيون على معسكر الملك وجاءوا بما لا يحصى عدده من السبايا والاسلاب والغنائم ، وكان من بين السبايا ابنة ملك الدنائم . وإذ قرر والدك الملك مكافأتى جزاء ما أظهرته من ضروب البسالة والاقدام في القتال ، فقد أمر بأن اكون أول من يختار حصته منها فاخترت ابنة ذلك الملك الذى صان من الموت حياتى وذهبت بها الى صيوانى ومعها نساء حاشيتها وتركتها معهن فيها هادئة البال مطمئنة النفس محترمة الجانب ، حتى تسنح الفرصة لردها الى أبيها تحف بها الحشمة ويحدوها العفاف والصون ، وأكون بهذا قد قابلت الصنيع الحسن بمثله .

وما أن وقف راميرى على سر الخبر حتى مد يده الى مينا مصافحاً وقال له : التمس منك الصفح عن سوء ظنى بك فقد وقفت الآن على سر سؤال والدى الملك منى عما اذا كانت نيفرت ما برحت مقيمة على عهد الوفاء لك . قال مينا : وبم أجبت ؟ قال : أجبت بأنها لا تكف عن التفكر فيك وانها لم يداخلها قط شك فى أمانتك ووفائك وقد بدا لى أن هذه الاجابة قد حلت منه محل الرضاء فالتفت الى أخى شاموس مبتسما وقال : «لقد كسب مينا الرهان» . قال مينا : نعم فان الملك حفظه الله وعدنى بمكافأة حسنة وتحفة سنية اذا كانت نيفرت بالرغم من اقامة امرأة اجنبية بصيوانى تبقى على ولائى وتستحق شكرى وثنائى . ويظهر لى أنه كان يرى الامر مستحيلا ، ولكن الحمد للآلهة ان كسبت الرهان إذ ثبت اخلاص نيفرت لى بالدليل والبرهان .

الفصل الرابع عشر

ذل الانكسار وعز الانتصار

ما خلعت الشمس جلباب الافق وبرزت من خدرها حتى كان الكهان وقوفا فى طليعة كل فيلق من فيالق المشاة والفرسان، يرفعون الاصوات بالادعية والصلوات، ويقدمون القرابين التماساً للنصر المبين ويعرضون صور الآلهة على الانظار فى زوارق من العسجد والنضار، وانبث المبشرون فى كل مكان يبشرون بما استطلعه رئيس الكهان، من الطوالع المؤذنة بالسعادة والهناء والفوز على الاعداء. وكان لكل فيلق علم خاص قد رسمت عليه صورة الحيوان المقدس أو المرموز به الى الاقليم الذى ينتمى هذا الفيلق اليه. وكان كل جندي قد حمل معه لوقاية نفسه من فتكات الاعداء وحفظ كيانه من شرورهم، التمائم والاحجبة والاحكام الدينية المسطرة على ورق البردى والخواتم ذات الفصوص المصنوعة على مثال الجعل. وكان سوادهم الاعظم يخفون فى ثنيات ملابسهم أو قطر ميزات مؤونتهم خصلا من شعر الحيوانات المقدسة أو أفاعى أو جعلانا على قيد الحياة (١) تبركا بها وتفاؤلا بالخير ودفعا للشرور والنكبات.

---

(١) كان لكل اقليم حيوان مقدس يعبده اهله وكان بعض هذه الحيوانات معبودا من المصريين كجعران فتاح وابن آوى وغيرهما

أما الملك فكان فى محفة يحملها أربعة وعشرون شابا من اشراف مصر ونبلائهم يعرض الجند ويتفقد أحوالهم قبل نزولهم الى حومة الوغى. وكانوا يقدمون اليهم آلهة طيبة الثلاثة ومنث اله الحرب ونيشب الهة الانتصار . وما ظهر الملك بين صفوف الجند حتى جثوا جميعاً ولم يقفوا الا بعد أن أحرق البخور بيده وتناول من ابنه شاموس الكاهن الاعظم رمز الحياة والقوة . وما انتهت هذه الرسوم الدينية حتى أخذ الكهان ينشدون بصوت واحد أناشيد التمجيد والاجلال للاله (رع) وظله وخليفته في الارض الملك رعمسيس .

وما تحرك الجيش للزحف حتى سطعت فى السماء كواكب لامعة كانت قبل السير بدقائق معدودة تحجبها عن الانظار سحب كثيفة قاتمة ، فتحرك الكهان من فورهم للقاء الملك وفسروا له هذا الحادث العلوي بانكشاف الغمة وأن جيوشه ستبدد شمل العدو كما بدد الاله رع السحب المتلبدة ومزقها تمزيقاً . وكان المشاة يحثون السير دون جلبة ولا غمغمة حتى يستنيم الاعداء الى الطمأنينة وينصرفوا عن الحذر والحيطة فيكون مأخذهم سهلا والانسياب عليهم فجأة . ووقف الضباط فى مواضعهم المعينة على مركبات القتال وبأيديهم أعنة الجياد . وكان رعمسيس فى مقدمتهم يحمل فى مركبته كنانتين احداهما للقسي والاخرى للسهام . وكانت الجياد التى تجرها مكللة الرؤوس بريش النعام تلامس متونها أعنة مرصعة بالاحجار الكريمة . وكان الرهج يسطع من سنابكها اذ كانت تضرب الارض مللا من الوقوف ورغبة فى ايراد العدو موارد

الحتوف .

وكان رعمسيس متوّجا بتاج الوجهين البحرى والقبلى ومحصن الجسم بقميص الزرد تحمله كتفاه برافعات من الحرير الاحمر . وكان مينا واقفامن ورائه ممسكا باحدى يديه أعنة الخيل وبالاخرى درقة يقى بها مولاه سهام الاعداء . فلما جاوز باب المعسكر عند بزوغ الشمس فى تلك الهيئة الهيّئة والشارة العجيبة أقبل بعاكر رئيس الطلائع فقبل الارض بين يديه وترامى على قدميه ، وقال جوابا على سؤال وجهه الملك اليه عن احوال أخيه وأين هو انه قد أصابه مرض اضطره الى ملازمة الفراش فى بعض النقط الامامية . ولم تكن الشمس قد تم وقتئذ شروقها ليتبين الملك أقد اكتسى وجهه بحمرة العار والخجل أم بصفرة الخوف والوجل ، فاذا به يراهما تتداولان وجه هذا الخائن الاثيم الذى لم يعتد سبك الحيل ولا تدبير الخيانات والدسائس ، اذ كانت هذه أول مرة فرط فيها بواجب الامانة نحو وطنه ومليكه .

ثم سأله رعمسيس : وماذا العدو صانع الآن . أجاب : يحشد كل قواه جنوبي المدينة وشرقيها . لذا أصبح القتال قاب قوسين أو ادنى ، فان رأى مولاي أن يفجأ قادش فى الوقت الذى يزحف فيه الشطر الاكبر من الجيش لمناوشة الاسيويين من جهة الجنوب فان حصونه واستحكاماته لا بد ساقطة اليوم بين يديه الكريمتين . ثم ان طريق الجبل ، وهو الطريق الذى لابد لجيوش مولاي من الزحف فيه للوصول الى القصد من طريق معبد ممهد لاوعورة فيه . فسأل الملك :

أأنت مريض كأخيك فأني اسمع فى صوتك خلخلة واضطرابا . أجاب الموهار : لم يمض وقت من حياتى كنت فيه أجود صحة منى الآن . قال الملك : هلم اذن لترشدنا الى هذا الطريق .

والتفت رعمسيس بعد هذا الى مينا قائلا : ان الطريق ممهد معبد وغير وعر كما أخبرنا الموهار، فلاعجب ان طابق الواقع هذه الاخبار. اليس هو الوارث عن والده فضيلة الاحاطة بأسرار الطرقات . . ثم جياده العاديات ضبحا المثيرات نقعا المباريات للريح سبقا . . ما كادت تصل به الى جبهة الجيش ليرشده الى الطريق الممهد والمسالك القويمة حتى عادت به الينا . فالتفت مينا الى بعاكر ولم يتمالك ان صاح : انه لدنيء الطبع سافل النفس منحط الهمة فان الجياد التى اعجب بها مولاي انما هي جيادى التى ابلغت ان راتوتي أهدتها اليه قبل رحيلى من طيبة . وما كنت لاصدق هذا الخبر حين بلغنى ومع انى ما اشتريتها الا لتجر مركبة نيفرت لولا أن زال الشك الآن وارتفع اللبس . ولقد رأيت هذا الغر بعيني رأسى فى مركبة تجرها تلك الجياد المشتراة بمالى . فلاطفه الملك وسكن من غضبه وقال: ان زوجتك ما زالت لك فدع له الجياد.

لم تمض بعد هذا الحديث هنيهة حتى ترجرج الهواء بدوي بوق لم يدر السامعون مصدر النافخ فيه ، غير ان شدة ارتفاع الصوت كانت تدل على قربه من مكان الجيش . فوقف رعمسيس فى مكانه وانتضى سيفه ووقفت الخيل آذانها فقال مينا : هذا بلا ريب صوت بوق الخيتاس : وكانت مركبة ذات اربع عجلات حاملة أسود القتال

تتبع مركبة الملك ، فأمر رعمسيس بأطلاق سراحها . وكان قد سمع صيحات العدو ورأى جنود الطليعة ترتد على الاعقاب بغير نظام وقد تخللتها مركبات الخيتاس التى كانت تنحدر تباعا من رأس الوادى وتسمع لها قرقعة تصم الآذان ، فانطلقت الليوث مزمجرة الى أن اتصلت بمركبة الملك وأحاطت بها ، فرفع مينا السوط وأهوى به على متون الجياد فكبت فى بادىء الأمر ثم وثبت مندفعة الى الامام حتى بلغت الى قلب الميدان . وكان الجنود المصريون قد خذلوا فعلا وأخذوا يلتمسون لأنفسهم مخرجاً للفرار من وجه العدو الذى كان نكل بهم تنكيلا وأثخن فيهم إثخانا وبيلا ، فلما رأى الملك الخطر محدقا به ولم يكن ليخطر له ببال . سأل : أين بعاكر ؟ فلم يجاوبه أحد لأنه كان اختفى عن الانظار . وكانت الارض تتزلزل تحت أقدام الهاربين والمطاردين والخيول تدوس الرمم وعجلات المركبات تصم بصريرها الآذان والرعد يلقى بهزيمه الوجل فى القلوب ، فلم يتمالك رعمسيس أن صاح صيحة الحرب المألوفة له فى مواطن القتال اذا اشتد الحرج عليه وعلى جنده فتغلب على صوت البوق ورددت صداه الجبال والاودية . وقد أجاب الضباط على هذه الصيحة بمثلها فوقف الفارّون فى أماكنهم مترددين بين متابعة الركض طلباً للنجاة وبين الثبات فى مواطن القتال . الا أن الخوف أخذ من قلوبهم ما أضعف بأسهم وهدّ ركنهم فمضوا فى طريق الفرار لا يلوون على شىء . وما هى الا دقائق حتى طرق آذان الملك صوت الابواق وصرخات الخيتاس ، وكان منبعث الصوت من

خلفه حيث يمتد أحد الاودية عمودياً على الطريق الذى سلكه الجيش المصرى . ومر هذا الجيش دون أن يداخله شك فى أمره ، اذ كانوا يجهلون ما دبر لهم من الدسائس ونصب فى طريقهم من الشباك . على أن ذلك الوادى لم يكن سوى الذى انطلق بعاكر فيه حينما توارى عن الانظار لاخبار العدو بقرب زحف الجيش المصرى فيه وحضه على مفاجأته بالهجوم من حيث لا يدرى . وما كادت تصل صرخات الخيتاس الى سمع رعمسيس على ما شرحناه آنفا حتى رأى المصريون ألوف الفرسان من أعدائهم والمئات من مركباتهم طغت طغيان السيل على المؤخرة والجنب وحالت دون الاتصال بينهما والكتيبة الملكية، وتمكنوا بهذه الحركة من الاحداق به وأخذ المنافذ عليه حتى صار أشبه ما يكون بالصخرة فى وسط البحر تساورها اللجات من جميع الجهات.

نظر رعمسيس على التفيئة فى أمر نفسه ومصير جيشه وكلاهما فى احرج المواقف وتأمل فى ذلك بعين الحكيم الذى لا تزعزع ركنه الحوادث فادرك حقيقة الخطر الذى احتف به ، لا سيما وقد كان يرى الاعداء يتدفقون من الخلف على جيشه ويسمع صلصلة سيوفهم وشخشخة دروعهم وضبح خيولهم وغمغمة الفريقين فى قتال عنيف ونزال مخيف ، كما كان يرى من الامام خطباً جللا وطامة كبرى . كان يرى فى مرامى نظراته قتلى تبقر بطونهم حوافر الخيل وجرحى يئنون أبين الثكالى وفارين يلتمسون الآفاق هائمين على وجوههم خذر الموت وخلف هؤلاء أعداء ألداء قد انشرحت صدورهم لبوارق الانتصار

والفوز .

الا أن الملك قوّم قامته ورفع هامته اذ استفزته فداحة الخطب فثارت حميته فصاح صيحة ثانية تغلب بدويها على زئير الآساد وجلبة العساكر وصلصلة السيوف . وكان أنين الجرحى وصوت القوّاد ولغب المحاربين بالنسبة لهذه الصيحة كالصمت المطلق . ثم تناول قوسه وأرسل منه سهماً أصاب به كبد اشجع قواد الخيتاس فأرداه . أما الآساد فكانت تثب على جياد العدو وتنشب فى صدورها الاظفار فتعوقه عن متابعة الزحف . وقد ذعرت جياد الفرسان من مرأى تلك الضوارى فتراجعت الى الخلف براكبيها وتلاحقت فى الفرار من ميدان القتال حتى حالت بين جيوش الخيتاس والمصريين . وكان رعمسيس لا يفتر لحظة عن رشق العدو بسهامه الصائبة حتى كادت تنفد من كنانته . وكان مينا يقيه بدرقته سهام العدو فلم يصبه سهم واحد منها بل كانت تتكسر نصالها على النصال ، وألقى أعنة جياد المركبة الملوكية على غاربها فانطلقت حتى توسطت صفوف الاسيويين ، فجرد رعمسيس سيفه وطعن به الجم الغفير منهم فجندلهم جميعاً . وكانت ليوثه الكواسر فى غضون ذلك تفتك بهم شر فتك وتلقى فى قلوبهم الفزع ، كلما نشبت أظافرها وكشرت عن نابها . والخلاصة ان الجيشين التحمت عساكرهما جسما لجسم وطال بينهما النزال والجلاد واشتدت الجلبة وعلت الضوضاء بما يصم الآذان ويرهب النفوس ويذكر الرائى بالبحر الخضم وقد ثار ثائره واضطربت عناصره ، وصعب مراسه وانحلت

أمراسه . أما مينا فقد ابدى من معجزات البسالة والتدبير ما يخلب العقول ويسترعى الانظار ، فقد كان يخيل للناظر انه نفوس متعددة فى ذات واحدة ، اذ كان يواجه الخطوب بثاقب الرأي فيتجنبها بتوجيهه المركبة ذات اليمين تارة وطوراً ذات اليسار وحينا الى الوراء . وكان يرقب السهام فى مسراها مخترقة الفضاء فيتصرف فى أوضاع درقته بما يكفل وقاية الملك شر الاصابة بها . وكان يبدى فى ذلك من آيات التبصر وحضور الذهن ما يندر أن يتوافر مثله فى واحد من مشاهير الابطال . وكان تفاقم الخطب قد حرك فى نفس رعمسيس سواكن الغضب فتطاير الشرر من عينيه وأكثر من الصيحات المزعجة وأمعن فى الفتك والتنكيل وأبلى بلاء لم يسبق له مثيل .

وقد انغرزت ثلاثة من سهام العدو بدرقة مينا فقرأ عليها بالحروف المصرية كلمات معناها « الموت لمينا » ومر بجانب أذنه سهم رابع فنظر صوب المكان الذى جاء منه فأصابه بكتفه سهم خامس فصاح : خيانة سافلة ! خيانة سافلة ! انى لأشهد بعاكر بين الخيتاس بعينى . وقد سمع الخائن صيحة مينا فلم يركن الى الفرار ، بل دنا من المركبة الملكيه وأرسل من قوسه سهما سادسا وقال : دونك أيها الغاصب السالب . . ها نحن أولاء فى ميدان القتال ! ما زالت خطيتى قرينتك ولكنها بعد هذا السهم ستصبح أرملا ، فاستولى عليها وأحظى بها . وما مرق السهم من القوس حتى أصاب خوذة مينا فاضطرب جسمه وسقطت الدرقة من يده وكان قد رفعها الى رأسه

ليدفع بها الخطر عن نفسه وسمع بعاكر فى اثناء ذلك يغرب فى الضحك فما هي الا لمعة البرق حتى أحس سهما سابحاً ينفذ من كتفه فأزعجه الالم وصرفه عن القيام بمهمته نحو الملك إذ أرخى الأعنة للجياد ووثب من المركبة وثبة الليث، ثم جرّد حسامه وحمل به على خصمه اللدود الذى كان ينتظره ثبت الجنان هادىء الجأش، وما أن دنا منه حتى حمل عليه حملة منكرة. ورآهما الملك يتناجزان ويتصاولان، فلم يستطع الفصل بينهما، لانه ما شعرت الجياد بارتخاء الاعنة على غاربها حتى انطلقت كالريح مقتفية أثر الاسود.

وكان أحراس الملك هووا الى الارض صرعى، بعضهم تلو بعض، فسرعان ما أحاط به العدو يريد به الأذى والشر. ولكنه أخذ درقة مينا وانقض عليهم يطعنهم بسيفه، فكان فى كل طعنة حتف واحد منهم. ورأى راميرى أن أباه أصبح فى عزلة وأنه لم يعد ثمة اتصال بينه وجيشه فاخترق الصفوف واقتحم الالوف حتى وصل اليه ودنا منه. فقال رعمسيس: المجد والفخر لك يا ولدى وفلذة كبدى! أنت خير حفيد لسيتى الاول وأحق الناس بالانتماء اليه. قال راميرى: انى طامح لاحراز سيف غير الذي اغتصبه أخى منى. ولقد حمل فى هذه الاثناء على جندي ضيق عليه الخناق فاحاط العدو به، وشهد الملك جماعة من الدنائم يقبضون على أعنة جياد الامير وآخرين انصبوا عليه بسيوفهم، كما شهد رفاق الامير يولون الادبار بمركباتهم إذ خافوا الخطر على حياتهم.

وأصيب أسد بسهم فسقط يتلوى ، لشدة ما نابه من الألم ، ويزأر . وأدركت رعمسيس طعنة سيف شطرت درقته شطرين فاشتد عليه الكرب لما عاناه من توالى الطعن والضرب . ورأى كأن أجنحة الموت ترفرف على رأسه وأسنة الهلاك مشرعة الى صدره ، غير أنه بدلا من أن يواصل صيحات الحرب التى كانت ترتجف منها أفئدة الاعداء وتقوى بها عزائم المصريين بسط يديه بالدعاء الى آمون أن يعززه بنصره ويوافيه بالنجدة والعون ، فما أتم الدعاء حتى برز له من بين الجمع شاب مصري طويل القامة تبدو عليه ملامح الهمة والشهامة ، فأمسك بأعنة الخيل وحيا الملك بأحسن تحية ، ثم وثب فى المركبة فارتعدت فرائص رعمسيس دهشاً وعجباً إذ خيل له أن هذا الحادث الغريب ما هو الا احدى المعجزات أو اجابة لتلك الدعوات . ولما هدأ روعه التفت الى الشاب ، وهو يدير حركات المركبة بحذق غريب وشجاعة لم يكن للابطال منها نصيب ، فلاحت له فيه ملامح الموهار السابق والد بعاكر خائن الوطن وسبب الرزايا والمحن ، فقال مناجياً نفسه ، لعل الاله آمون تقمص فى شكله لينقذه من الوبال ويدفع عنه عار الانخذال . وزاد هذا الاعتقاد رسوخاً فى نفسه انه سمعه يقول : الثبات يا مولاى الثبات ! فبعد هنيهة ترد لك الامدادات فتنجو من المهلكات ، ثم تصل بنا فى ميدان الفوز الى أبعد الغايات .

اطمأنت نفس الملك بهذه الكلمات فصاح صيحة القتال التى رددتها الآفاق والجبال وأطار رأس رجل من الخيتاس كان بدنوه منه كالباحث

عن حتفه بظلفه . وكان الشاب الذى أرسلته العناية الربانية لنجدته يحمل الدرقة يحميه بها من سهام الاعداء الانذال ويثخن فيهم ويوردهم موارد النكال . وظل الملك ونصيره على هذه الحال هنيهة من الزمان ، فاذا بصوت الابواق يقرع الاسماع منبعثاً من الجهة اليمنى ، فتبين رعمسيس فيه صوت الابواق المصرية ، فسطعت بوارق السرور على وجهه وأيقن الظفر بالاعداء . ولم تمض الا دقائق معدودة حتى لاحت للانظار من خلف الجبل القريب بضعة آلاف من جنود فيلق (فتاح) تحت قيادة هوروس . ولقد رأت هـذه النجدة الخطر محدقا بالملك فانقضت على العدوّ بهمة لا تعرف الكلال وثبات تميد له الجبال ، واخترقت صفوفه وفتكت برجاله فتكا وبيلا وألزمتهم بعـد طول المجاهدة بالفرار ، وانقذت رعمسيس من الانكسار . أما الشاب الذى كان ملازما لركابه فقد اختفى عن الانظار ، لانه ريش بسهم أدماه . وقال قائل انه لم يكن من الانس وانما هو الاله آمون تقمص فى شكل رجل من الشجعان ليمحو عن الملك معرة الذل والهوان .

ثاب رعمسيس الى الراحة ساعة جمع فيها شتات جنوده ثم هجم بهم على الخيتاس ففرق شملهم ومزق جمعهم وقتل بعض رؤسائهم وأسر الآخرين ، ثم انتشر بجنوده فى أركان السهل فضم اليهم ما بقى بالمعسكر من الجنود الاحتياطية وهجم بهم على قلب جيش العدوّ فاضطر الفارين الى التفرق فى نهر الارونت وبحيرة قادش ، واستمرت المناوشة بين الفريقين حتى أرخى الليل ستاره . ولما اسفر الصباح استأنف القتال

بشجاعة لم تخطر للخيتاس ببال ، فحاربوا متقهقرين ثم ولوا مدبرين بعد ان كانوا من النصر بخيانة بعاكر واثقين .

ولقد كانت الحيلة التي دبرها هذا الخائن الاثيم على وشك النجاح وكان ينبغي أن تكلل به اذا صح دائما أن يدلى الى النتائج بالمقدمات ، في مثل هذه الحالات . فان قواد الخيتاس اختاروا من جنودهم أحذقهم في سياسة الجياد وأثبتهم في مواطن الجلاد ، فتواروا خلف أشجار الوادى الذى تعهد بعاكر لهم باستدراج رعمسيس وجيشه اليه . فلما وفى بهذا العهد وسار الجنود المصريون فى اطمئنان من بغتات العدو ، إذا بألفي مركبة وخمسمائة مركبة قد هاجمت جناح الجيش المصرى ، بينما كانت مقدمته تستعد لمقابلة فريق آخر من الاعداء انساب عليها من خلف الوادى ، ولم تكن تتوقع الاشتباك معه فى قتال لبعد مكانه على ما أكده بعاكر فى استطلاعه قوة العدو واستعداده . ولكن العناية الربانية تداركت الخطب بما أشرنا اليه من المدد الذى خسر الاعداء بسببه ثلثي جيشهم ومعظم قوادهم ، وفى مقدمتهم (تيتور) المشير الاكبر و (شيرو بازار) مؤرخ ملك الخيتاس الذى كان ملازما ركابه ، يدون الحوادث تمجيداً لاسمه وتخليداً لذكراه .

أما رعمسيس فقد استقبله الجنود فى معسكره بهتاف السرور وأناشيد النصر . وعم الخير الديار المصرية فهش له الكهان فى هياكلهم والجند فى ثكناتهم ، بعد إذ طال عبوسهم ، لما حرك آنى من خواطرهم ونبه من كامن بغضائهم . ولم يبق حديث يتداوله القوم في محافلهم

ومجتمعاتهم سوى ظفر المصريين بأمة الخيتاس . وعلى أثر الواقعة أرسل الأعوان لتفقد الجرحى ورفع جثث القتلى ، فوجد مينا فى الفريق الأول ولم يوقف لراميرى على أثر ولم يعرف عنه خبر . وانقضت أيام لا يدرى أحد عنه شيئاً فأفضى ذلك الى تواطؤ الانباء بوقوعه فى أسر الاعداء ، وأن الفريقين اتفقا على المقايضة عليه ببنت ملك الدنائم التى اختار مينا أن تكون نصيبه من الغنائم ، واسكنها في صيوانه وعاملها بكرمه واحسانه . وقد نقبوا عن بعاكر فى كل مكان فلم يعلموا من أمره شيئاً ، ولكنهم وجدوا مركبته فخلصوا الجياد منها وسلموها لمينا صاحبها الذى ما كان أعظم فرحه برجوعها الى حوزته بعد أن سلبت منه غدراً فى غيبته .

استولى المصريون على قادش واستتب لهم الامر فيها ، فالتمس (خيتازار) امير الخيتاس الصلح فأجاب فرعون بأنه لن يذاكره فى هذا الموضوع الا عقب عودته الى الديار المصرية ، فاضطر السفير المنوط هو واثنى عشر من أمراء الامم المتحالفة ضد المصريين الى اقتفاء أثر الموكب الفرعونى فى قصده ، بمظاهر الانتصار ، الى وادى النيل كأسرى حرب لا يمتازون على هؤلاء الا بما كان المصريون يعاملونهم به من الاحترام والتكريم .

وكان رعمسيس شديد الاشتياق الى العودة منصرف الرغبة الى المسارعة بها ، لأن وسواسه كان يحدثه بوقوع امر خطير فى مصر . وكان ضميره يناجيه بتحرج الاحوال ، واستمكن منه هذا الشعور على

وجه أحس معه أن الفوز المبين الذى فاز به على الاعداء قد شابته شوائب الفتنة ، وكدر صفوه بوجه خاص تحققه من خيانة بعاكر ونزوع آنى الى الاستقلال بالملك ومعرفة الدانى والقاصى بهذا الخبر ، حتى أن أمير جيش العدو لما سأله الصلح ألمع الى فوائد المبادرة بابرامه من حيث انه يمكن أولياء الأمر من رتق الفتوق الداخلية التى تواردت عليه أخبارها من مصر . وكان رعمسيس موقناً انه قادر على كبح جماح الثائرين والضرب على أيدى المارقين ، الا أنه ظل واجماً كاسف البال ، لأنه أحسن الظن بقوم ألقى اليهم بأزمة الحكم ليدبروه فى أثناء غيبته على مايطابق مصلحة الرعية فاغتموا هذه الفرصة للاستئثار به . وضاعف حزنه ما حل بمينا من الردى ، وهو البطل المقدام الذى كان يوليه من الاعزاز والاكرام ما يذهب بالفوارق بينه وابنائه ويعهد اليه قيادة جياد مركبته وتلقى أوامره التى كان يكفيه لتنفيذها الماع بكلمة أو إشارة بطرف العين .

ولم تشفع هذه الصفات النادرة له عند القائد العام للجنود المصرية فقد حكم عليه بالتجريد من رتبته والعزل من وظيفته وبعدم ليقانه للقيام بها وبنى هذا الحكم على أسباب منها انه آثر الانتقام لنفسه فتخلى عن مركبة الملك وعرض حياته للخطر فى أحرج المواقف ، كما عرض الجيش بذلك للهلاك والفناء ، ومثل هذه الجريمة فى القانون العسكرى المصرى يعاقب مرتكبها بالاعدام . فلم يجد رعمسيس من ثم سبيلا للاعتراض على الحكم ، بل رأى فى الاقتصار على التجريد من الرتبة والعزل من

الوظيفة مبالغة فى الرفق بالمذنب وغلوّا فى الصفح عنه ، ولكنه رضي بذلك لمكانته منه وسالف خدمته لذاته السنية .

وكان رعمسيس شديد الائتاد والحذر بفطرته ومقتضى غريزته ، لا يمضى ابدا مع الخيال ولا يستسلم للوهم . ولذا كان يرى منشرح الصدر لين الجانب متهلل الوجه فى غالب أيامه ، حتى أيام الشقاء التى تنهك فيها قوة البدن ويعتور الفكر الكلال والضجر ، ولكنه كان ذلك اليوم سابحا فى تيار الافكار تائها فى فيافى الخيالات تنفعل نفسه بأقل المؤثرات ، فيرتفع رأسه بغتة كمن يقوم من نومه منزعجا . وكثيرا ما اقتحم الاهوال وعانى الشدائد ورأى الموت مجسما فى أقبح الاشكال فلم ينبض له نبض ، الا فى يوم قادش الذى ختم مع ذلك بفوزه . وهو ما دام حيا لن ينسى ما استشعره فيه من العجز وقلة الحيلة وقتما انفض جنده من حوله واندفعت به الجياد نحو الاعداء رغم أنفه ، فكان كريشة فى مهب الريح تتلاعب بها الحدثان ، بل لن يذهب عنه أبدا ما تولاه من الحيرة كلما عالج الخلاص من الاعداء وأراد ان يعرف من انقذه من أيديهم أآمون ، وقد سمع دعاءه ولبي نداءه ، فتجلى له فى صورة انسان وكان له خير معوان أم غيره ، أم انه ابن الشمس يجرى فى عروقه الدم الالهى ؟ وكان لرعمسيس أن يسلك فى الظنون كل مسلك لان الاله خصه بمزية لم يخص بها أحدا من البشر وادركه من عنايته بما يدل على سمو مرتبته ، ولكنه كان ينظر الى نفسه ليرى أنه بشر سوي وأنه كغيره من بنى الانسان خلق ولا فارق بينه وبينهم ، والا لما

أنّ من ألم الجرح الذى أصابه واشتكى بل لما ازعجته خيانة بعاكر . ثم قارن بين نفسه وقد توسط شيع الاعداء ولم يجد حوله أحدا من الاصفياء ونجا من مكرهم السيء بما ايده من المدد الالهى ، ومن حكم عليه بالاعدام ، وانه لما جىء به الى دائرة التنفيذ صدر الامر بالعفو عنه . فاستنتج من هذه المقارنة أنه أحد أفراد البشر وأيقن ذلك وسرّ له لان بشرية الانسان تكفيه مؤونة التصدى لعلم المستقبل ، ومتى كان الانسان لا يعنيه من علم الغيب شيء خلا قلبه من هموم الحياة واشاغيلها وفى هذا منتهى الهناءة والسعادة .

كانت واقعة قادش من الوقائع الفاصلة وكان فوز المصريين فيها مبينا اذ استولى رعمسيس بها على مضائق الشام وقلاعها ثم عاد الى مصر مطمئن النفس ، بعد ما أنفذ اليها بحراً شطراً كبيرا من أدوات القتال وجماً غفيرا من الجرحى ، وصحبه فى عودته الامراء المغلوبون على أمرهم . وقد بعث باثنين من ابنائه الى ماجدو للمحافظة على اختهما بنت انات في بيلوز [1] ولينتظرا معها فى سفينتها حتى يصل هو اليها .

(١) بيلوز هى الفرمة الان وكانت مفتاح مصر لكل جيش حاول الاغارة عليها من جهة شرق

الفصل الخامس عشر

ملتقى الابطال والخونة الانذال

مضى على واقعة قادش ثلاثة أشهر كان الجند والاهلون بمدينة بيلوز فى خلالها يعدون معدات الاحتفال باستقبال الجيش المصرى الظافر بالاعداء الانذال . وكان آنى المعروف بفتور الهمة وخمود العزيمة لا يكف عن استنهاض العمال وحثهم على انجاز الاعمال ، وكان دائب الحركة فى مركبته ذهوبا وجيئة لمراقبة العبيد المكلفين بأقامة أبواب النصر وتنميقها بالازهار وترتيب الاسود الصناعية المموهة بزاهى الالوان فى أماكنها . وكان يقف مع كل فوج منهم هنيهة حاثا على اتمام القصر الذى شيد اكراما لفرعون وتنويها بذكره فى موقع معسكر الهكسوس ومستنهضا على الاحتفال بتنميقه وتزيينه .

وبهذا الحث والاستنهاض استطاع بضعة آلاف عامل من تشييد هذا القصر [١] فى عدة أسابيع فجاء قصرا فخم المنظر حسن النسق خليقاً بسكنى الملوك والامراء . وكانت الارض من حوله صلدة لا تصلح للنبت فاذا بها حديقة غناء ، بل جنة فيحاء يمتد فى وسطها طريق يفضى بالسائر فيه الى غرفة المائدة وهي غرفة مرتفعة أيضاً عن ارض

---

(١) جاء فى بعض النصوص ما يشير الى ان المصريين كانوا يبذلون الاموال الطائلة لتشييد القصور واقامة الحفلات بها يوما واحدا أو بعض يوم ثم يهدمونها

الحديقة ذات أزج يمثل القبة السماوية فى لونها السنجابى وتلألئ كواكبها السنية مرفوعة على أعمدة بشكل النخل علقت بتيجانها أطراف قطع مستطيلة من الخز اللازوردي اللون ، بحيث تتصل أطرافها الاخرى بعضها ببعض فى نقطة واحدة هي مركز الظلة القائمة فوق العرش الملكى . أما الظلة فكانت عبارة عن قبة مجوفة مرصعة بلآلىء زرقاء وخضراء وقطع من البلور النقي منشورية الشكل كانت بسنائها ولألاء ألوانها تخطف أبصار الناظرين .

أما العرش الملكي فكان موضع الجلوس منه درقة يقف الى جانبيها ليثان يتكىء الجالس عليهما . وكانت زواياه الاربع قائمة القوائم على أربع صور تمثل أربعة من أمراء آسيا قد تقوست ظهورهم لثقل ما يحملون . أما الارض فكانت مفروشة ببساط ازرق اللون رسمت فيه الحيوانات البحرية من أسماك وغيرها ، اشارة الى البلاد التى استولى فرعون مصر عليها ، وقد مدت عليه موائد يحيط بها ثلاثمائة كرسي للمدعوين الذين سيدعون اليها من عظماء المملكة وقواد الجيش الظافر . وكانت ألوف المصابيح التى تشبه بشكلها أزهار الزنبق والخزامى تضيء القاعة بضوئها الباهر وتلفت الانظار الى شكلها البهي الزاهر .

وكانت مخادع النوم على هذا المثال من الجمال والجلال ، اذ كانت مكسوّة الجدران بنسيج أحمر مزركش باسلاك الفضة والذهب وسقوفها مغطاة بقماش لازوردى دقيق السلك وارضها مفروشة بجلود الزراف . وفيما يلي الحديقة من الناحية المجاورة للمدينة شيدت مبانى

الخشب على صفوف متوازية لأقامة الحراس والجند، وجعلت الاسطبلات فى آخر ذلك كله ومن بينها اسطبل موّه بالذهب وزين بالازهار للجياد التى كانت تجر فى ميدان القتال مركبة الملك . وقد وهبها رعمسيس لاله الشمس شكرا له على ما منحه من الظفر .

وكان الوالى آنى وصديقته راتوتى يتفقدان هذه الغرف فقالت له : يظهر لى أنك قد بلغت المراد بتشييدك هذه الاماكن وتنسيقك إياها على ما يوافق الذوق السليم . أجاب آنى : أصبت الا أننى لا أدرى مم أعجب، أمن سلامة ذوقك فى الترتيب أم من رجاحة عقلك فى اتقان الاساليب . فتبسمت راتوتى وقالت : اذا كنت أهلا لبعض المدح فما هو الا لأننى أخلصت لك الولاء ورمت لك الصعود الى أوج السماء . والا فأي باعث يحملنى على اجهاد القريحة فى استنباط الوسائل الرجيحة لانشاء هذا القصر الفخم فى مستنقع امتلأ بالحشرات، مع ان مصيره للزوال بعد أن ينفق فى سبيله الكثير من الجهد والمال . قال آنى مطرقا رأسه : نعم سيكون عمر هذا القصر قصيرا وبقاؤه كالطيف ، ولكن هل ذهب عليك أن مشروعنا الذى قدحنا فى تدبيره القريحة وأعملنا فى تحضيره الفكرة قد ذهب نفخة فى رماد ؟ . . أرى أمينى قد خمدت همته وتلاشت عزيمته كما أرى الجنود التى اخلصت لى الولاء وحالفتنى على الصدق فى السراء والضراء قليلة العدد يكاد لا يبدو لها أثر فى جيش عرم قد مثل بخمرة الانتصار وتعلق برعمسيس لما أصاب من المجد والفخار . ثم ان الرعاة العبرانيين الذين استعملتهم هنا الى مودنى بما

رفعت عنهم من الضرائب الفادحة لم يتعودوا حمل السلاح والنزول فى مواطن الكفاح . وانت تعلمين فوق هذا ماجبل عليه شعبنا من اتباع الغالب وتحرى مواطىء أقدام الظافر والغاصب والتزلف للقوي ، فهم ولا شك مبادرون بتقبيل قدميه ولو سعوا حبواً اليه مع علمهم بماسفك من دماء ابنائهم وأزهق من أرواحهم . لذا أرانى فقدت الثقة فيمن حالفتهم واضطرب خاطرى لامر آخر لا اجد مجال القول ذا سعة لشرحه . . وهو أن البازي المرموز لى به والذى عهدت الى العجوز نيخت العناية بأمره لا يزال مريضا ، بل على وشك الموت لما تولاه من الضعف والوهن .

قالت راتوتى : اذا سلكت مسلك الرجال وجاريت فى شهامتك الابطال ، قويت أجنحة ذلك البازى فاستطاع الطيران وحلق فى سماء القدرة والامكان . واعلم انه لا يحسن بك الكوص على الاعقاب ولا ان تخشى من الملك أي عتاب . لانه متى رآك وقد استقبلته استقبال الآلهة العظام انتفخت أوداجه بالكبرياء ونسي الانتقام ، ومنعه ذلك عن توهم الغدر فيك وتحامل على من يناويك ، وعز عليه أن يسىء الظن فيمن أنابه لادارة شؤون الوطن . ولكنه اذا أصغى اليوم لمقالك ولم يشك فى حال من أحوالك ، فانه يخشى أن ينقلب عليك فى الغد بسعايات الواشين اذ لا يغيب عنك ماوقع فى طيبة من حوادث لا يرجى أن تمحو أثر تلك الوشايات . وما أشبهك الآن بأسد حبس فى قفص حديد فاختلس من غفلة حارسه فرصة أفلت منه بها ، فلما أخذت عليه

الآفاق وامتدت الايدى للقبض عليه كشر عن نابه . فاذا سلكت اليوم مسلك الآساد ولم تخش بأس أحد من العباد فويل ثم ويل لمن يحاول أن يخضعك لجبروته ويرغمك على الطاعة لحكمه .

قال آنى : انت لا تكفين عن اغرائى بما أخشى أن تكون عاقبته شقائى وبلائى . . من يدرى أن يخيب سعينا كما خاب سعي بعاكر من قبلنا، وهو الذى دبر لرعمسيس من محكم التدابير ما كان ضمينا له بسوء المصير . قالت راتوتى : أتظن أنك ان اخطأت المرمى اضطرب حالك وساء مآلك . . اذن ما معنى قول الناس ان الآلهة هم الذين يدبرون حركة العناصر وان لأحد منهم على تحريك ذرة منها بقادر . . أتستبعد أن تكون الاقدار ساقتك الى انشاء هذا القصر الفخم العظيم لتدمره بالنار وتجعله كالعظم الرميم ؟ قال : ومن يأخذ على عهدته اشعال النار فى هذا المكان الذى ملأه عبدى ونيمو بالقصل والقار ؟ أجابت : أنا التى تقوم بهذه المهمة مع رجل لا مطمع له عند رعمسيس ، وهو من أرباب النجدة والهمة . سأل : ومن هو ؟ أجابت : بعاكر ! سأل : وهل هو هنا ؟ أجابت : كيف تجهل وجوده وقد رأيته بعينيك . قال : لعلك واهمة . قالت : كلا ! وقد خاطبته بنفسك . أتدرى من العبد الاسود الاعور الذى وافاك أمس بخطابى ؟ انه لبعاكر ابن اختى ستخم . فأرعد آنى لسماع هذا الخبر وقال : ما أسوأ حاله ! قالت : نعم انه فى أسوأ ما يخطر بالبال من الاحوال لتغير معالمه وتبدل ملامحه . ولقد فقد احدى عينيه فى منازلته لمينا فأصبح أعور ، وكان جسمه ابيض نقيا

فطلاه بالسواد حتى تنكره امه والناس . وقد أصيب بطعنة رمح نفذت من رئتيه فأصبح لا يتكلم ولا يتنفس الا بعناء . وكان متين الاساطين قوي العضلات عريض الاكتاف، فصار نحيلاً ضئيلا لا يفرق الناظر اليه بينه وعبد التصق بطنه بظهره من فرط الطوى . وما رأيته فى هذه الحال التى يتعذر معها تبين أمره حتي عنّ لى ان اجعله من اتباعى دون ان اطلعه على ما أرمي اليه من المقاصد . والذى أتوقعه انه سيكون لنا على تحقيقها عضدا ونصيرا ولو كان من وراء ذلك حتفه . . مالى أراك مترددا ؟ أما رأيت انى لك كمن يهز الجذع ليلتقط غيره الرطب ومن يغرس الشجر ليجنى غيره الثمر ؟ وأذكرك هنا بوجوب التنبيه على حافظ الانبذة ألا يبخل بها على العسس والذياذبة وغيرهم من الجنود السردينية كيلا يفسدوا علينا تدابيرنا . ولقد علمت أنك أمرت باقراغ ثلاث من الخمس السفن التي جاءت من مصر مشحونة بما كان مدخراً عندك من النبيذ . وعهدى برب مصر فى المستقبل أن يكون كريما لا شحيحا لئيما .

قالت ذلك وافتر ثغرها عن ابتسامة الاستنكاف . فادرك آنى مرادها بها وقال : لقد خيل لى أني خجول وفى جلائل الاعمال غير عجول ، ولكنى أكاشفك بما يجول فى خاطرى الآن وهو أن يكون ما فرط منا أضغاث أحلام لا حقيقة شديدة الأيلام . . أود تنفيض يدى من الدسيسة التى أحكمت تدبيرها بانشاء هذا القصر الذى كلف المبالغ الطائلة من المال . أما النبيذ الذى أشرت فى كلامك اليه فنى وسعى

التصرف فيه على كل حال واهراقه على مذبح الامانى والآمال . ومع هذا فأني أكل الامر اليك وأدع تصريفه على الوجه الموافق لسعة حيلتك . وقد اعتزمت الذهاب بعد الاحتفال الى معسكر الحبشان لأقضى به ما بقي الليلة من الزمان .

قالت راتوتى : ان تفعل هذا وشهد الناس ان النار التهمت ذاك الذى اغتصب عرش الفراعنة يبايعوك ملكا على مصر، ويكفى أن يبدأ أحدهم بالمبايعة ليقتدى به الآخرون . . ولا يهولنك من الامر شيء فأن الكاهن الاعظم أمينى يؤثرك على رعمسيس ويتلقى نبأ جلوسك على الاريكة المصرية بالبشر والارتياح ، ولو بقى صدره حاملا بعض الحقد عليك . ها قد اقبل فرعون وها هي أعلامه تخفق من بعيد . قال آنى : نعم لقد جاء فى قضه وقضيضه . ثم سكت هنيهة وقال : أنبهك يا راتوتى الى أن بنت أنات قد حلت الجناح المخصص لها من القصر ولست أحب متى اشتعلت النار فيه أن تذهب فريسة للنار . فضحكت راتوتى باستخفاف وقالت : أهذا كل ما عندك . . كن واثقا انها ستنجو من الخطر ولن يلحقها شيء من الضرر . فودعها آنى ثم أجال النظر فى البهو المعد لاقامة الحفلات وقال متنهداً : لقد ضاق صدرى وحرت فى أمرى ، ألا ينقضى هذا اليوم وليلته بخير وسلام . . فضحكت راتوتى وقالت : أراك تشبه هذا البهو الفسيح فى التجرد من مظاهر الجلال ومجالى السرور ، ولكنك متى وضعت التاج على مفرقك وأمسكت الصولجان بيدك تهلل وجهك بشراً وتهافت لاستجلاء محياك النضير

أفواج الناس فيكون شأنك عندئذ شأنه فى هـذا المساء، متى أضيئت المصابيح وخفقت الأعلام وتلألأت كؤوس الراح وبدت على المحتفلين علامات الارتياح . فشكر آني لها هذا التعبير الجميل بغمزة عينه وانصرف فشيعته بنظرها وقالت في نفسها : سأدع بنت أنات هنـا فريسة النار إذ لا أود أن أرى الى جانبي من يشاطرنى النفوذ والاقتدار .

وكانت بيلوز غاصة بالوفود توافدوا من كل صقع وحدب لتهنئة الملك وجيشه الظافر . وكانت طوائف الكهان أوفدت الوفود لتحية رعمسيس وتهنئته بالانتصار على العدو . وكان وفد مدينـة الاموات منها مؤلفاً من خمسة أعضـاء يرأسهم أمينى والنبي جاجابو . فقصد الجميـع ، وقد لبس بعضهم ثياباً ناصعة البياض والبعض الآخر جلود الفهود التى خص بحملها الانبياء ، الى القنطرة المشيدة على فرع النيل ، يتقدمهم أعضاء وفد هيكل فتاح فى منفيس وهو الهيكل الذى شيد فى عهد فرعون مينا أول مصري جمع بين التاجين وملك ناصية الوجهين وكاهنه الاعظم والمدبر لأموره ابن رعمسيس . وتلاه وفد مؤلف من كهان عين شمس فكهان هيكل مدافن طيبـة الذى سبقت الاشارة اليه . وكان بيـد كل كاهن محجن طويل منمق بأزهار الزنبق والورد ، وبيد الكثيرين منهم مجامر البخور يشبه شكلها يداً منضمة الاصابع وضع فى تجويفها العطر الثمين . وكان فى مبعوثى هيكل آمون بعض نساء الأسر الكبيرة فى طيبة ، وقد وهبن أنفسهن لعبادة هـذا الاله ،

وكانت راتوتى انخرطت فى سلكهن حديثاً بناء على طلب الوالى آ . .

أما أمينى فكان يسير الى جانب جاجابو مفكراً كاسف البال فسأله هذا بصوت خافت : أنظرت كيف جاءت الاحوال بما لم يخطر ببال . . أين آمالنا التى عللنا بها النفوس . . ألسنا الآن أشبه بسعاة البريد يحملون كتبا مختومة لا يدرون ما تتضمنه من الاقوال ؟ قال أمينى : كن واثقا أنى جئت لتهنئة رعمسيس مسوقا بعواطف الاخلاص . . أما علمت أنه سيعود الى مصر على أثر ما وقع من الحوادث فى قادش على غير ما جاء منها وفى حالة تباين حالته حينما برحها . . انه ليقدر بلا ريب ما وافاه آمون به من النجدة والنصر ولعله نذر لهذا الاله تشييد الهيا كل الباذخة اجلالا واكراماً ووعد بتقديم القرابين لهيكلى . ولقد عهدت من رعمسيس حفظ العهد والوفاء بالوعد أكثر من ذاك الرجل النحيل الذى أراه فى مركبته هناك باسم الثغر . . قال جاجابو : أخاف على هذا الوالى أن تبطش به يد الملك . قال أمينى : انى واثق من عفو فرعون عنه لأن الرجل لا حول له ولا حيلة فهو كالغصن الرفيع الذى تثنيه الرياح . قال جاجابو : ومع هذا فقد كانت ثقتك به عظيمة فاذا آمالك فيه أصبحت الآن كآمال العاطش الذى يحسب السراب ماء فاذا جاءه لم يجده شيئاً . قال أمينى بصوت منخفض : ان ثقتى كانت بنفسى لا به و آمالى كانت مستمدة من همتى لا من همته . وغاية الأمر انى أردت استعماله فى قضاء بعض الحاجات ، فاذا أنا تخليت الآن عنه فما هو الا لغلطه وغروره . . وأول ما زلت قدمه معنا فى

رفضه رجاء العفو عن بنطاؤر ثم حثته فى يمينه انتقاماً من شاب شريف الخصال حسن الخلال . وانه لجدير بالنفس الشريفة ان تناصب العداء نفساً مثلها لا نفساً خسيسة ممتهنة ، أفيجوز إذن أن يكافأ الرجل الذى انتزع بنطاؤر من بيننا باجلاسه على عرش الملك ووضع التاج على مفرقه ! كلا ان المرء إذا أبى الظهور فى مظهر الرجل السهل القياد المنحدر مع تيار الأهواء فالضرورة تحتم عليه الاستمساك برأيه وعدم الحيد عنه ، الا بعد إمعان النظر واطالة الروية . ولكنا معشر الكهان الذين لا همّ لهم الا السهر على مصلحة الجمهور لا يسرى علينا ما لا محيص لغيرنا عن العمل به من المبادىء والقواعد . فمن الحقوق المخولة لنا الرجوع عن الغاية التى اليها نرنو ، ولو بلغنا اليها وجذبناها من ناصيتها كما لنا أن نتخلى عمن نصرناه ورفعنا شأنه ولو هوى الى الحضيض . ومن مبادئنا الخالدة التى لم نحد عنها منذ ألوف السنين أن الحياة الطيبة هي التى يقبض الكهان على زمامها . وهذا رعمسيس قد فتح البلاد وأخضع لسطوته العباد ، لا أظن الا انه سيدأب بعد عودته الى الوطن على تشييد الهيا كل الشامخة وفاء بالنذر ، ولا بد له فى ذلك من الالتجاء الينا لالتماس معونتنا ، وأنت أدرى أنه لا محيص لمن كانت له حاجة عندنا من الاذعان لنا . هذا هو سر تهنئتى ابن سيتى على ما ناله من الفوز والغلبة ولا سر سواه .

وكانت الاعلام تخفق على ضفة فرع النيل بينا كان ارتفاع الغبار فى الضفة الأخرى يشير الى دنوّ الجيش المصرى . ولم تكن الاغمضة

الطرف حتى طرق الآذان عزف الموسيقى العسكرية التى تسير فى طليعته وكان الملك رعمسيس على رأس الجيش تقدح عيناه شرراً وتبدو فيهما آثار العظمة والكبرياء ، ولكنه ما كاد يرى عند الجسر الممدود على النهر عشرات الآلاف من الاهلين يصيحون صيحات الفرح ويهتفون بالدعاء له وينثرون فى طريقه الازهار اليانعة والغصون الناضرة حتى تحولت عظمته الى تواضع وكبرياؤه الى عطف وحنان . ثم تواصل سير الموكب على هذا النمط فلما وقف تقدم آنى اليه وقبل الأرض بين يديه ثم عرض عليه صولجان الملك موضوعاً فوق وسادة من الحرير ، فأشار فرعون اليه أن يدنو منه فلما دنا مال عليه وقبل ما بين عينيه ورجا منه أن يصحبه ويسوق مركبته لتشرف بقيادته اياها . وكان رعمسيس يحس فى نفسه ساعتئذ بعاطفة الشفقة على آنى والشكر له بعد إذ رأى من ظاهر أمره ما يحمله على حسن الظن به وطرح الاعتقاد بأنه قد نزع الى الخيانة ومزق عهد الأمانة .

وكان رعمسيس يستشعر كأن قلبه إناء يفيض سروراً لمشاهدته الوطن الذى يريد له السعادة والسيادة على سائر الاوطان . ثم استقبل الكهان بأرق التحيات وأظهر لهم من الميل ما انثنوا معه داعين له بدوام البقاء غوثاً للوطن وحافظا له من الشرور والمحن . ثم سار بارشاد الوالى حتى بلغ الى القصر فدخله وصعد الى القاعة التى أعدت له متهلل الوجه باسم الثغر وتفقد بعد ذلك العجول وكانت تبلغ الألفين عدّا ثم الاسود فالفهود المستأنسة فالاشجار النادرة المجلوبة من البلاد الاجنبية

وقد تخللت أغصانها الطيور المغردة بألوانها الزاهية ، وهذا فضلا عما لا يحصى عدده من الزراف والنعام الذى خصص لجر المركبات . وكان الملك دائم الانصراف نحو البحر ينتظر بذاهب الصبر حضور كريمته بفت انات .

أقبلت الاميرة بعد هنيهة فعانقها الملك وضمها اليه ضمة المشوق ، لا سيما وقد أثار مرآها فى نفسه ذكرى والدتها المحبوبة التى اغتالتها المنون منذ عهد غير بعيد . وكانت نيفرت تلازمها وتحمل لها مروحتها ، فلما دنت من الملك جثت على ركبتيها فأمسك بيدها لانهاضها وتلطف بها اذ قال : لقد وقفت اليوم على أمر جديد لا بأس من موافاتك به يا نيفرت . . لاحظت أن السعادة القصوى التى كنت اظن أن لا سعادة بعدها وأن الجمال الرائع الذي كنت اعتقد ان لا جمال بعده قد يتدرجان فى النمو والازدياد الى ما يتجاوز الظن والاعتقاد . ومن هذا القبيل طالع مينا ، فقد كان كوكباً ساطعاً لا يدانيه كوكب فى السمو واللألاء فأصبح شمسا متألقة الضياء . وما فاه رعمسيس باسم مينا حتى فكر فى أمره فتقطب وجهه وكسف باله ولكنه تدارك ما فرط منه فالتفت الى كريمته وسألها : ماذا فعلت صديقتك نيفرت حينما علمت أن قرينها اختار من بين السبايا امرأة جميلة اكرم فى صيوانه مثواها وأقامها عنده أشهرا طويلة ؟ . . اريد منك يا ابنتى العزيزة ان تكشفى لى النقاب عن هذه الحقيقة . قالت : ان الشطط الذى ركب مينا بهذا الفعل متنه اضطر نيفرت الى ملازمتى فى هذا السفر الشاق ، فقد نقلت

راتوتى ذلك اليها فخنقت عليها وقالت لها إنها تظلمه بذمه والافتراء عليه وذكرت لها بعد ذلك أنها واثقة به ثقة لا حدّ لها وانها تفضل البعد عنها حتى لا تسمع ما تكرهه فى حقه منها .

سأل رعمسيس من نيفرت : أحقيقى ما روته بنت اناث ؟ فاحمر وجه نيفرت خجلا وأومأت ايماءة الايجاب ، بينما كانت دموعها تترقرق فى عينيها وتساقط كاللآلئ على خديها . فقال الملك : ان رجلا احرز السعادة كلها باقترانه بمثلك لخليق به ان يكون قدوة الناس فى كرم الخصال ومحاسن الشيم . ثم التفت الى رئيس التشريفات وقال : بلغ مينا أنى أحب منه أن يقوم اليوم على خدمتى فى أثناء الطعام كما خدمنى ليلة الاستيلاء على حصون قادش واذكر له انه تركنى فى معمعان القتال عندما أبصر ببعاكر وانه ان رأى قرينته فى هذا المساء فلا يتركن قدح الشراب يسقط من يده . فشكرت نيفرت للملك هذا العطف جائية فلم ينتظرها حتى تقف ، بل انصرف للسلام على رجال بطانته الذين حضروا معه تضحية القرابين وكرر لهم وعده بأنشاء هيكل فخم فى طيبة . وكان الملك فى مروره بين الاهالى والجند الذين ثملوا بخمرة الانتصار وأطالوا له الهتاف والدعاء يقطع الطريق الموصل الى المرسى حيث كانت سفن كثيرة تقل جرحى المصريين فتفقد أحوالهم واستفسر عن جراحهم وتمنى لهم الشفاء السريع . وكان آنى قابضاً على أعنة جياد الملك يجذبها اليه ليكبحها عن السرعة ، ولكنه بالغ فى الجذب حتى حرنت ولم يهدأ ثائرها الا بشق الانفس . وكان رعمسيس فى خلال ذلك يشعر

بأحاسيس غريبة تنتاب نفسه ، فقد خيل له أنه يرى وسط المزدحمين حوله شابا توافرت فيه قرائن الشبه بالبطل الذى انقذه فى واقعة قادش عقب استغاثته بآمون ، فقال محدثا نفسه لعل الجياد حرنت عند ما ابصرت بهذا الاله الذى لم يكن فى الحقيقة الا بشراً كغيره عادمن موطن القتال جريحا كما عاد كثيرون غيره . ولقد كان فى سعة الخائن الذى يقود مركبته ايقافه على جلية الخبر بعد اذ شهد بنطاؤر وسط الجموع ، ولكنه لم يفعل ولن يفعل لانه قد هاله منظره فجذب اليه الأعنة بدون ارادته لتشنج أعضائه واضمحلال قوته .

الفصل السادس عشر

المأدبة الملكية لتنفيذ المؤامرة السياسية

كانت الشمس على وشك الأفول وقتما عاد الملك من المرسى الى القصر الشامخ الذى أعده آنى اجلالا له واعلانا لانتصاره . وكان جماعة المدعوين يتهافتون على البهو الفسيح المخصص للمأدبة ، وقد أضيء بالانوار المتألقة . فلما دخل رعمسيس وجلس على أريكته واصطف ابناؤه حوله على شكل الهلال أطرق الحاضرون رؤوسهم ثم مثلوا بين يديه يتبع بعضهم بعضا ، فكان يقابلهم بوجه باش ويحدثهم بلطف ارتاحت له افئدتهم وانشرحت منه صدورهم وتطابقت ألسنتهم بالشكر له والثناء عليه . وكان رعمسيس يحدث نفسه بقوله : ان اخص صفات الملوك الدعة واللين والدماثة ، فاذا كان أجدادى اختاروا الثعبان رمزاً لعظمة شأن الفراعنة ومبلغهم من البطش والجبروت فلست أود ان يحمل رأسى تاجا يحتوى هذا الرمز الجائر . ثم أجال النظر فيمن حوله وقال : ارفعوا عن رأسى هذا التاج وضعوا بدلا منه اكليل ورد زاه نضير .

وفى غضون هذا الاحتفال انصرف من البهو اثنان دون أن يشعر بهما أحد ، وهما الوالى آنى والكاهن أمينى . أما الاول فما كاد يبلغ الى الباب الخارجى حتى أمر حراسه بالذهاب الى مكان الجرحى لاحضار

بنطاؤر وحجزه فى صيوانه ليتصرف كما يرى فى أمره ، وكان لا يزال لدى الوالى ذلك الشراب الذى جهزته الساحرة نيخت ليصيب ربان السفينة بالجنون لساعته اذا ساغه ، فحدثته نفسه ان يستعمله فراراً من بنطاؤر اذ كان يتوقع منه الاخطار والشرور .

اما أمينى فقصد الى صديقه جاجابو ليعوده ، وكان أغمي عليه لشدة القيظ فى أثناء التشريفات الملكية . ولقد سأل عن حاله فلما اطمأن عليه عاد ادراجه الى القصر الملكى لحضور المأدبة السنية ، فالتقى فى طريقه بالجنود الذين نيط بهم استدعاء بنطاؤر ، عائدين به . وقد لفت نظره الى الشاعر اعتدال قده وهيبة وجهه فوقف فى مكانه حائرا من الدهشة . أما بنطاؤر فقد عرفه وصوّت باسمه فأقبل الكاهن الاعظم عليه وعانقه فرحاً بلقائه . ولقد همّ الحراس بالتفرقة بينهما فكاشفهم أمينى بحقيقته وأمرهم ان يذهبوا به الى صيوانه لا الى صيوان الوالى مؤكدا لهم انه يتحمل عنهم تبعة مخالفتهم اوامر الوالى . فبكى جاجابو فرحاً برؤية بنطاؤر وأمر له أميني بثياب بيضاء فلما تدثر بها وقف نظره عليه ثم وضع كفه على كتفه كما يفعل الأب الحنون بولده الذى ضل ثم اهتدى . وقد قص بنطاؤر عليهما كل ما اتفق له من الحوادث منذ برح مصر ، وما كان من التقائه ببنت انات ومشاركته الجنود المصرية فى واقعة قادش ، الى غير هذا من جليل الحوادث ، الا أنه لم يفه بكلمة ما فى حبه لبنت انات وانقاذه الملك من الاخطار والمهلكات ، بل قال فى ختام حديثه : كنت منذ ساعة فى خيمتى اسرح الطرف فى الانوار

الزاهية المنبعثة من القصر ، فاذا الحراس قد انسابوا فى خيمتى على غرة منى وانتزعونى منها قائلين انهم سيذهبون بى الى صيوان الوالى الذى لست أعلم من امره معي غير أنه ناقم عليّ متعمد ايصال الضرر اليّ .

فارسل جاجابو وأمينى كلاهما الى الآخر نظرة كفتهما مؤونة الكلام ؛ ثم قام الكاهن الاعظم وانصرف معتذراً بقرب ميعاد الاحتفال وضرورة وجوده وسط المجال وأمر الحراس بالانصراف قائلا لهم انه سيخبر الوالى بتعرضه لهم ومنعه إياهم من أخذ بنطاؤر اليه . وحينما بلغ أمينى الى القصر كان آنى منصرفا الى اجلاس المدعوين فى الاماكن المعدة لهم فاتجه نحوه وبعد أن سلم عليه باحترام قال : لقد تأخرت عن الميعاد المضروب فعفواً عفواً . وسبب تأخرى انى ألفيت بنطاؤر على قيد الحياة فدعوته الى النزول فى صيوانى وأن يقوم على خدمة النبي جاجابو مكانى فان هذا النبي لا يزال طريح الفراش .

امتقع وجه الوالى غيظا حينما سمع هذه الاقوال ، ولكنه كظم غيظه وتكلف البشاشة فى وجه أمينى حتى لا تنكشف له نياته ثم قال: أراك مخطئاً فى سوء ظنك بي اذ يبدو لى من كلامك اعتقادك انى قصدت هذا الشاب بالاساءة فى حين أنى لم أطلبه الا لارسله اليك . قال أمينى : لا يسعنى الا الشكر لك وطلب الصفح منك بعد اذ افتأت على ارادتك ولم انتظر اتمام مشيئتك . ثم تركه وجلس فى المكان المعد له الى جانب الملك .

وكان مئات العبيد فى غدو ورواح بين الموائد لتقديم الألوان

الشهية ، وكانت تسير بين هذه الموائد مركبات صغيرة وضعت عليها أوانى كبيرة من المعدنين الكريمين قد اتقن صانعوها نقشها ، لتوزيع ما فيها على المدعوين . وكان فريق من الأطفال مختفين خلف أزهار النيلوفر المجسمة التصوير فى خشب سقف البهو ينثرون على المدعوين أوراق الورد والبنفسج فيزداد منظر البهو بفعلهم هذا بهاء وبهجة ، لا سيما اذا انضاف اليه تموج الاقمشة الشفافة التى علقت بأطرافها فوق الثريات والمصابيح فكان يخيل للرائى أنها سماء لازوردية اللون تتخللها على ابعاد متفاوتة منها سحب بيضاء تسير فى الجو سيراً وئيداً . أما الارواح العطرية فكانت تحرق فى مجامر من الذهب الخالص ارتفاعها ستة أقدام موضوعة وسط البهو . وكان الموسيقار فى مكان لا تراهم فيه العيون ، يشنفون الآذان بأنغامهم المطربة وألحانهم التى تهز النفوس هزاً . وكان الملك ابن الشمس تنبعث من وجهه الانوار السنية كما تنبعث من هذا الكوكب الدرّي ، وحوله الى اليمين واليسار ابناؤه الفخام . وكان مينا يقدم الى الملك الشراب فى أكواب بعد أكواب ، أما نيفرت وبنت أنات فكانتا تجاه كرسيه كالبدور الطالعات .

ولطالما انصرف نظر مينا وهو فى مكانه الى قرينته المحبوبة الامينة التى لم يظفر منها بحديث مذ جاءت الى هذه الاصقاع ، فكان الملك يشعر بأنه لاه بها عنه فينبهه الى تقديم الشراب ، كما كان فى خلال ذلك يتحف المدعوين باخبار الانتصار . وقد طاب له فى ذلك تجنب الاختصار ، فما جاء على آخرها حتى قال رئيس كهان عين شمس : لا

غرابة ان أفاض الشعراء في تمجيد أعمالك والتغنى بخصالك . قال الملك : لا تقل تمجيد أعمالى ومدح خصالى بل عناية الآلهة الذين أنقذونى ببركاتهم الطيبات وأظفروا جندى بما لهم من باهر الآيات وعجيب المعجزات . سألت بنت أنات : أرأيت الاله ذاته يا أبت ، وان رأيته فبأي شكل تجلى لناظريك ؟ أجاب رعمسيس . بدت لى ملامحه كملامح الموهار السابق ، أبى بعاكر الخائن . وكان طويل القامة بدين الخلقة تلوح سمات الهيبة على وجهه . وكان يحرك السلاح فى يده برشاقة الطفل ولباقته اذا تفرغ للعبته . وكان أمينى يصغي الى الملك وعلامات الدهش ظاهرة فى وجهه ، فلما أمسك عن الكلام وقف وقال : لو ان لمثلي أن يعود الى عهد الشباب لما عاقه عائق عن التنويه بقدر هذا الاحتفال ، عملا بالتقاليد القديمة ، في خطبة بليغة أنثر دررها ، ولا عن تمجيد معجزة آمون وبسالة ولده فى أبيات عامرة بالمعانى الشريفة والالفاظ العذبة اللطيفة كأملح شيء وأحسنه . الا انى لشيخوختى ألتمس منكم الاغضاء على ظاهر عجزى عن السبق فى هذا الميدان . ثم التفت الى آنى وقال : ولما كانت الاسماع يطربها الصوت الرخيم ، وكان لا ينقص بهجة الاحتفال اليوم سوى شاعر يشيد بذكر انتصارات مولانا الملك بما ينظم من عقود الاشعار وينشد منها بين يديه الكريمتين وفى حضرته العلية بصوته الرخيم ونبراته البلبلية ، فماذا لو استدعينا الشاعر بنطاؤر الذى أفاض الآلهة عليه المواهب ، وهو الآن قريب من هذا المكان وحضوره فى حيز الامكان ؟

ما طرق اسم بنطاؤر سمع بنت أنات حتى عرتها هزة الدهش والحيرة والاضطراب ، ولم يتمالك الكهان الذين آلم قلوبهم وفت في عضدهم نبأ فقد هذا الشاعر الكريم الذى كان نابغة الشعر وبدر الشعراء الطالع فى سمائهم ان انجلت كروبهم وثلجت صدورهم حين علموا أنه ما زال حيا يرزق وانهم لسوف يمتعون برؤيته أبصارهم ويهذبون بسمو ابتكاراته افكارهم . وما هي الا دقائق معدودة حتى مثل الشاعر بين أيدى الملك والمدعوين وأنشد أشعاراً حماسية بليغة المعانى وصف فيها زحف الملك رعمسيس وجنوده على مدينة قادش حيث قال :

« نهض حضرة الملك وهو فى غاية الصحة واعتدال المزاج ، ونهاية القوة والابتهاج ، كأنه المعبود منث آخذا عدة الحرب فى الحال ، ومتهيئاً للضرب والنزال ، فأرسل مركبته فى صفوف الاعداء الانذال ، ليوردهم موارد النكال ، فهجم على بنى الخيتاس منفرداً بنفسه ، ولم يتقدم معه أحد من ابناء جنسه ، واقتحم المعركة وحده أى اقتحام ، بمشهد من جميع الاتباع والخدام ، وقد أحاط به ألفان وخمسمائة مركبة حربية ، لابطال الخيتاس وذوى العصبية ، من القبائل المتكاثرة ، والعشائر المتظاهرة ، وهم (أرادوس) و (ماز) و (بتاسا) و (كشكاش) و (أليون) و (جاز) و (ناتان) و (شيروت) و (اكتور) وغيرهم . وكان على كل مركبة ثلاثة محاربين ، بالسلاح مدججين وبعدة القتال مؤهبين ، ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ، ولا من قواد جنده ولا من أمراء دولته ، بل ولا من عساكر المركبات وجند

الرماة ، فتوجه الى معبوده واستغاث بمولاه ، قائلا : تركنى وحدى بوسط الميدان ، جند الرماة والفرسان ، ولم يبق معى من يشد أزرى ويعضد ظهرى ، فماذا يريد بى مولاى آمون ؟ فهل انا ولد عاق ، وللعقوبة اهل استحقاق ، مع أنى لمولاى سميع مطيع ، اصدع بالامر على قدر ما أستطيع ، وأقوم بحقوق المشاعر ، واظهار الشعائر ، وأملأ بيوت العبادة من غنائم الاعداء الغادرين ، واتقرب الى المعبود بما لا يحصى من القرابين ، وقد انفقت فى تشييد المعابد المبالغ الفادحة ، وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة ، وأقمت الهياكل الجسيمة ، واقتطعت لها الاحجار العظيمة ، وغرست فى المعابد الاشجار المخلدة ، ونذرتها لتكون مآثر مؤبدة ، واحضرت للمولى المعبود من جزيرة اسوان ، أحجار المسلات الباقية على مدى الازمان ، وأجريت السفن فى البحار الزاخرة ، لجلب غنائم الملل الى الهياكل الفاخرة ، فابتهل اليك يامولاي وبك استعين ، وانا بين من لاأعرف من قوم كثيرين ، بل وأنا فى حضرتك وحدى ، وقد انفض من حولى جندى ، تركنى عساكر الرماة ، وفرّ عنى الفرسان الكماة ، وقد دعوتهم فما أجابونى ، واستغثت بهم فما أغاثونى ، وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان ، وأحق بنصرتى من الابطال والفتيان ، فانصرنى على العدد الكثير ، والجم الغفير ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

ثم أجاب الشاعر فى قصيدته بكلام عن مولاه انه لبى دعاه وقبل رجاه ، فقال : « سمعنا يارعمسيس نداك ، وقرع آذاننا من هرمونتيس

صداك ، فها أنا منك قريب ، ولك نعم الاب ونعم المجيب ، وانا الشمس آخذ بيدك ، وأقوم بسعدك ، خير لك من الآلاف العديدين ؛ من الناس ولو جاؤا مجتمعين ، ومتى كنت بين مركبات القوم ولو كانت الفين وخمسمائة تفرقوا منهزمين ، وراحوا تحث سنابك افراسك منكسرين ، وضعفت قلوب اعدائك بين جوانحهم ، واسترخت اعضاؤهم بين جوانبهم ، فلا يرمون بهاسهما ولا يهزون رمحاً ، وسأغرقهم فى الماء فلا يستطيعون سبحاً ، ويقعون فلا يقومون نهضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ، ولقد تعلقت ارادتي بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه ومن سقط فلا يسود ، ومن هوى فلا يعود »

ثم قال الشاعر على لسان سائس ركاب الملك : « يا سيدى العظيم ، ومتكى الكريم ، وحامى مصر يوم النزال ، لقد بقينا بين صفوف الاعداء فى وسط القتال ، فمهلا مهلا والنجاة النجاة ! ويا ليت شعرى ياسيدى الأجل ، ماذا يكون العمل ؟ » . قال الشاعر فأجابه الملك : « اشدد عزمك ، وقوّ قلبك ، فانى سألقاهم واحمل عليهم كما يحمل البازي العلوى على غنيمته ، فاخذلهم واقتلهم ، حتى يلقوا فى التراب » . قال : « فأرسل رعمسيس عليهم حينئذ مركبته وحمل عليهم ست مرات متواليات فقهر رجالهم ، وخذل فى كل مرة ابطالهم ، واجتمع حوله من لم يشهد الواقعة من قواد عساكره وفرسانه ، وانصرف كل منهم فضمهم حوله ، وجمع بهم شمله ، وقال لهم لقد احتد عليكم قلبي ، واشتد عليكم غضبي ، هل منكم من أدى حق وطنه ، وحمى حومة بلده ؟ لو لم

يقيم مولاكم هذا المقام ، لادركتكم الحمام ، بل قعدتم فى مساكنكم ، وتخلفتم عن قلاعكم ومحاصنكم ، ولم ترسلوا الجندى خبرا ، ولا أوردتم عندى من أحوالكم أثرا ، وانما ارسلت كل واحد منكم فى قلعته ، وأوليته بولايته ، موصيا أن يرتقب وقت الجهاد ، وان لا يتأخر عن النزال والجلاد ، وها أنتم جميعاً أخطأتم ، ولاوطانكم قد أسأتم ، ولقد اقترف جنودى وفرساني أكبر الآثام ، اذ تركونى يحيط بي الطغام ، وإن انهم لأكبر من ان ينعت ولكنى ابديت شجاعتى ، واظهرت جرأتى ، وما اسعفنى أحد من العساكر الرماة ، ولا الفرسان الكماة ، بل أخلى العالم بتمامه الطريق لبطشة عضدى ، وكنت وحيداً لم يأخذ أحد بيدى »

ثم وصف بنطاؤر ميدان القتال وقتما عادت جنود الملك اليه بعد الهرب فقال : « ثم آبوا فوجدوا وجه الارض حيث ساروا مجللا بالرمم ، مغموراً بالدم ، ولكثرة القتلى به كان لايوجد فيه موضع لقدم ، فخاطبوا حضرة الملك بقولهم : — أيها البطل الباسل والسيد المقاتل ، وصاحب القلب ذى الصبر والثبات ، لقد أغنيت بنفسك عن جميع الفرسان والرماة . وبما أنك ابن الاله تور ومن صلبه فقد محوت بسيف الانتصار ، قطر طائفة الخيتاس من بين الاقطار ، وانما أنت رب العظمة ، وملك القهر والغلبة ، ولا اتفق لك نظير من سلطان ، قام بدلا من جنوده بأعباء الحرب والطعان . فلا غرو أيها الملك ذو القلب الكبير اذا كنت أنت حيث التقى الجمعان أول مبارز ، وكنت أمام

جندك أول بارز ، والعالم باجمعه ينظر اليك . اذ تعصب كله عليك » .
فأجابهم الملك بقوله : « لقد اخطأتم جميعاً خطأ شديداً ، اذ انكم تركتمونى بين الاعداء فريداً ، فلا أخذ بيدى عشير ، ولا أسعفنى أمير ولا قام بناصرى مطلقاً نصير ، بل هزمت الاحزاب من كل الملل وحدى ، وقاتلت دون جندى ، وكان يحملنى كل من الجوادين المدعو أحدهما العظمة فى الصعيد ، والآخر بالسعادة في الملأ الاعلى ، ولم تجد يدى سواهما حين أحاط بى الاعداء ، فاكرموهما واعلفوهما بجيد الحب فى حضرة الاله (فرا) كلما آويت الى قصورى المشيدة ، ذات الاعمدة العديدة » . قال الشاعر : « فلما أصبح الصباح ، وأشرق الفجر فى اليوم الثانى وبنوره لاح ، عاد الملك رعمسيس الى القتال ، ورجع على الاعداء بالصيال ، كأنه ثور نزل على أوز ، وعاد الشجعان من اصحابه للمجد والعز ، فانقضوا معه على العدو فى معركته ، كالبازي ظفر بفريسته ، وقاتل معه الاسد الكبير ، الذى كان يسير الى جنب جواديه فاشتعلت جميع جوارحه غضباً ، وصار كل من دنا منه سقط على الارض ملقى ، وظفر الملك بالاعدا ، وقتلهم جميعاً فلم يترك منهم أحدا ، وداسهم بسنابك الخيل حتى اندرست منهم الرمم ، وتعجنت فى الدم ، وصارت كلها قطعه واحدة ، لم تلبث ان صارت جامدة خامدة »

وما اتى الشاعر على آخر قصيدته حتى بهت الحاضرون ولزموا السكوت والسكون . وكان رعمسيس لا يفتر عن النظر الى بنطاؤر . كأن نفسه كانت تحدثه بتوافر الشبه بين صورته وصورة المبعوث الالهى

الذى نصره فى واقعة قادش على اعدائه وقد حدق فيه النظر حتى انتهت به الحال الى الاعتقاد بأن ذاك الذى يراه هو الذى أنقذه من مخالب الموت ووقاه شر الوقوع بأيدى الاعداء ، ولولا ذلك لما وقف على نص الدعاء الذي كان يستنجد به الاله آمون . ولقد أنس من نفسه ميلا اليه لم يتمالك معه من الوقوف أمام عرشه اذ قال للمدعوين : ان هذا الرجل لحقيق بالاحترام والتبجيل فاحترموه وارفعوا قدره ، لان الالوهية تجلت فى صورته لنجدة مليككم حين أحاط به الالوف من الاعداء فصاح الحاضرون بصوت واحد : المجد والفخر لبنطاؤر .

وقد أثر هذا المنظر فى نفس نيفرت تأثيراً جعلها تقصد الى مكان الشاعر ، وقد اكتسى وجهها النضير بحمرة الخجل وتقدم اليه باقة ورد كانت وضعتها بين نهديها الرمانيين . فطرب رعمسيس لهذا العطف ثم التفت الى بنت اناث بعين المستفهم عن هذا السر ، فنظرت اليه ثم قصدت الى مكان بنطاؤر فكللت رأسه باكليل من الزهور . فأعجب الملك بفعلها وصفق الحاضرون بأيديهم استحسانا ، واسترسلوا فى التصفيق زماناً . وكانت أنظارهم متجهة نحو الملك وابنته وبنطاؤر وظلوا كذلك حتى قال رعمسيس : لقد انتصف الليل فلينصرف كل منكم الى حيث يريد ، وموعدنا فى الغد هنا . . فلا تنس هذا يا بنطاؤر . ولكن لنشرب قبل الانصراف فى سر السلام والامن ، ولنشكر لآنى حفاوته بنا ومبالغته فى اكرامنا ، وانى لاحمده حمداً خاصا على غيرته وأمانته فى ادارة شؤون رعيتى مدة غيبتى .

وهنا سار الملك يتقدمه آنى مرشداً وانصرف الحاضرون . وما استطاع مينا أن يحظى بمقابلة تيفرت الا دقائق معدودة تبادل معهافيها عبارات الشوق والوجد . وكانت الاميرة أذنت لها بالمبيت عند والدتها راتوتى . اما رعمسيس فبقي بعد أن صرف رجال حاشيته في خلوة مع ابنته . وقد سألها : فيم كنت تفكرين وقتما وضعت اكاليل الزهور على رأس بنطاؤر ؟ قالت بصوت واضح وعبارة صريحة : وفيم يا والدى يفكر بنات مصر اذا فعلن مثل هذا ؟ قال رعمسيس : ألا تحسبين حساباً لوالدك ؟ قالت : ان والدى يعلم أننى خاضعة لامره ولو كان فى هذا الخضوع حرمانى من السعادة ، ولكننى اعتقد أيضاً أنك تحب لى الخير والهناءة ، ولن أنسى ما حييت تلك الساعة التى كانت والدتى المرحومة فيها على فراش الموت فوعدتنى باستطلاع أفكارى واستكناه مكنون اسرارى ، كما كان هذا شأنها معى فى جميع أحوالى وأطوارى . ثم ما فائدة الاسهاب وانا لم أعشق بنطاؤر منذ أيام ، بل ان زمام قلبى بيده قبل اجتماعنا بهذا المكان . ولقد رأيت انه بما ابداه من جليل الفعال جدير بان يرقي الى قصوى درجات الشرف والكمال . وهب انه وضيع الاصل وحقير الشأن ، أفلم يكن خليقاً بشرف القربى من اميرة هي سلالة اعظم الملوك وجديرا بأن يسمو بفضائله الى اسنى المراتب وابعد الغايات ؟ قال الملك : نعم لم أنس الوعد الذى تذكرينني به فافعلى ماشئت وتصرفى بشؤونك على ما تشتهين . ولقد عهدت فيك من الصراحة فى القول والفعل مايحملنى على الثقة بك والاعتماد عليك

وإحلالك من نفسى منزلة والدتك منها ، والدتك التى كثيراً ما سمعت قولها ان المرأة الصادقة أهدى الى الصواب من الرجل مع ما اختص به الرجال دون النساء من الفضائل والمزايا . فاذهبي الآن يا ابنتى العزيزة لالتماس الراحة من العناء وابحثي عن اكليل جديد يزين رأسك ويظهر بأسك .

الفصل السابع عشر

ما يدبر فى الظلام من الجرائم والآثام

فى السهول المحيطة ببيلوز نصبت خيام وسرادقات ناصعة البياض يظنها الرائى ، وقد طرحت الكواكب عليها أشعتها الباهتة المريضة ، كثبان رمل فى الفلوات الصحراوية وآكام برد فى المناطق الثلجية . وكان النازلون فى هذه الخيام والسرادقات فى ابتهاج وازدحام لا تشوبهما أكدار ولا آلام ، لانهم جلسوا للشراب من النبيذ العتيق الذى جىء به اليهم فى ثلاث قرب وضعت على ثلاث مركبات زينت بالازهار تجرها عشرة من عجول البقر ، واصابوا منه كثيراً دون ان يكتفوا فثملوا وترنحت اعطافهم وطاشت أحلامهم . وكان بعضهم يتهافتون على الموائد التى مدت برسمهم فى اماكن معينة من تلك السهول الفسيحة فيتناولون ما لذ لهم وطاب من الطعام والشراب .

وكانت خيام الجند مضروبة حول الحديقة التى أقيم بوسطها القصر الملكى وكان سرادق آنى بينهما يمتاز بارتفاعه وانفساح جوانبه وجمال رونقه وحسن نظامه . وكان الى اليمين منه الامكنه الخاصة باقامة وفود مدارس الكهنة ، والى اليسار رجال حاشية الوالى وراتوتى خالة بعاكر تختال فى مطارف العز والجلال . وكانت نيخت العجوز خلف السرادق لا يفصلها عنه سوى ستار رقيق . وكان آنى قد اخذها معه فى سفينته

وقتما حضر الى مصر دون ان يعلم بأمرها أحدا سوى راتوتى وبعض من يثق بأمانتهم من الخدم .

وكانت العجوز فى اثناء الاحتفال قاعدة القرفصاء بالمكان المعين لها تعانى المشاق والاجهاد فى استنشاق الهواء ، لما أصابها فى صدرها من الداء . وكانت تستصبح بمشكاة من الفخار الاحمر وعلى مقربة منها البازي المريض ، وقد غشيت عينيه سحابة بيضاء . وكان كلما حملته العجوز بين يديها الجافتين لتنفخ فى منقاره الاحدب ارتفع حاجباه وانتسر جناحاه ، كما لو كان يتأهب لمنازلة جارح آخر أراد به سوءا . وكان الطفل شراعو على مقربة منها غارقا فى نومه ، وقد رأته فى هذا الوضع فدفعته برجلها قائلة : قم من نومك أيها الخبيث . فهب المسكين من نومه فزعا وانتصب على قدميه وهو يتداعى للسقوط لغلبة النعاس عليه ، فقالت له : يخيل لى اننى أسمع صياح امرأة منبعثاً من صيوان آني ، فاسترق السمع وقل لى اذا كان ما خيل لى حقيقة . أجاب : اننى اسمع صياحاً يشبه ان يكون أنينا ، وأسمع صياحا آخر من خيمة نيمو . قالت : انطلق الى هناك ولا يدرين بك أحد ثم عد سريعاً واخبرنى بما رأيت .

انطلق شراعو مهرولا بينما كان البازى فى يديها تحوطه بعنايتها لأن الضعف قد استمكن منه فأخذ بيد يمنة ويسرة ، الا أنه كان بالرغم من ضعفه وتضعضعه يمد عنقه الى يدها ويرفع منقاره يذود عن نفسه كلما بدت حركة منها تقصد بها الى معالجة أمره . ولقد أيقنت العجوز أن لا أمل فى استنقاذه من خطر الهلاك ، فقالت بصوت خافت : هذا

الطائر لا محالة هالك بعد قليل ، اما الطائر الذى اسميته رعمسيس فانه يزداد فى كل ساعة قوة وشبابا .. نعم ان قوة هذا وضعف ذلك لا يدلان على شيء ما فى المستقبل من أمر الملك والوالى آنى ، فان الاعتقاد بمثل هذه الخرافات ضرب من الهوس والجنون . ولكن من يدرى ما ذا تكون العاقبة ؟ ألا يجوز أن يفضي التفاؤل بخير أو شر فى أمر ما الى الاعتقاد أحياناً بصحته . . رأيت الوالى قد ركب متن الخطر وزج بنفسه فى مآزق الشر والضرر ، مع أنه سيعود بصفقة المغبون كما يدل عليه ضعف جناحي هذا البازي المسكين وارتخاء أعضائه وانكباب رأسه . . ها هو قد تدلى . . ها هو قد مات . طرحت العجوز الطائر ميتاً فى حجرها ثم ألقت به الى أحد أركان خيمتها ووجهت كلامها اليه كما لو كان الوالى آنى بعينه : أسعد الله مساءك يا آنى لقد عدت من آمالك فى وضع التاج على مفرقك بالخيبة والفشل وتبين ما بنيت عليه آراءك من الخطأ والخطل . ثم سكتت هنيهة وقالت بكلمات متقطعة : وماذا عسى يا ربى أن يقع بعد الآن من الحوادث ؟ ان الرجل ألحف فى سؤالى أيقترن سعيه بالفلاح . وكان نيمو ينقل الي اخباراً جعلتنى اعتقد بقرب وقوع حوادث كثيرة خطيرة لم يكشف لى عن مكنون سرها ، ولكننى أخذت منها أن القوم يدسون لى الآن الدسائس وينسجون من التدابير ما أخشى منه على نفسى . . آه ! ها قد عاودنى الحزن والألم .

ثم رفعت يدها الى قلبها وسقطت على الارض مغشياً عليها ولبثت

غائبة عن الصواب ساعة من الزمن. فلما أفاقت من غشيتها أحست كأن قطرات ماء بارد تجرى فى عروقها، فقالت: لو انني ربيت بازيا آخر لاستطلع من حاله مستقبل أمرى لسار الآن فى أثر أخيه. ثم من يدريني أيفى آنى بوعده الذى وعدنى من تحنيط جثتى بعد مماتى! ولكن كيف يستطيع الوفاء وهو ذاته سائر الى الهلاك.. ستترك جثتى معرضة اذن لعوامل الفساد والفناء دون أن أحظى بنعيم الحياة الآخرة. أو اظفر بما أشتهيه من اللقاء بمحبوبى آسا الذى لن انساه ما خفق لى قلب فى صدرى.

قالت هذا ثم لزمت الصمت هنيهة استأنفت بعدها مناجاة نفسها: ليس الموت فى الحقيقة سوى واسطة للخلاص من آلام ذكرى الحوادث الغابرة وسبيلا الى الحياة الخالدة التى لست أيأس من الفوز بها! نعم لا يخلق اليأس بمثلى فان الموتى جميعاً، على تفاوتهم فى الدرجات، لا مناص من محاسبتهم على أعمالهم فى الحياة الدنيا بمقتضى القوانين الالهية التى لا ينبغى لنا التطلع لاستبطان اسرارها واستكشاف أسبابها. فأين يا ترى أجد محبوبى العزيز الذى أحرق بنار الحب مهجتى؟ أفى الجنة بين البررة المقربين أم فى الجحيم بين المعذبين؟ أما أنا فسواء عندى أفى السعير وجدته أم فى رياض الجنان رأيته، مادامت غايتى اللقاء به والتملى بمشاهدته، وليس لهذا أم ذاك من ذريعة إلا تحنيط جثتى بعد الوفاة وصونها من الفساد والفناء.

وفى الاثناء كان شراعو أبلغ الى نيمو ما صارت العجوز اليه من

تضعضع القوى والاشراف على الموت . فلما دخل عليها لتفقد أحوالها ووقع نظرها عليه تنفست الصعداء وقالت : انك أحسنت بحضورك فى هذه الساعة ،فقد حان يا بني أجلى . ولا تغرب شمس اليوم حتى ألفظ النفس الاخير فجزع نيمو وصاح قائلا : كيف هذا يا والدتى ؟أتموتين ! كلا بل يجب أن تبقى على قيد الحياة لتنعمي ، بعد انقضاء حوادث اليوم ، بلذة العيش وتفوزى بجزيل العطايا والمنن . قالت العجوز : أما حوادث اليوم التى تشير اليها فقد وقفت على ظواهرها وبواطنها . ثم أوعزت الى شراعو بالانصراف وسألت نيمو أن يذيع لها ما كان كائما من تدابير تتخذ وفخاخ تنصب . فدنا القزم منها وقال: ان القصر الذى سيقضى الملك فيه الليل بني من الخشب وقد وضع القصل والقار فى جدرانه حتى اذا نام اشعلنا النار فيصبح القصر وليس به انيس ولا ديار . اما الاحراس فهم الآن بين موت وحياة لكثرة ما شربوا من النبيذ الذى نهب عقولهم وسلب شعورهم . قالت العجوز : لقد بلغت النهاية فى سبك الحيل ، لكن لا أتوسم فيك الجرأة والاقدام على تنفيذها ما دمت تجهل اذا كان قد اتصل بالملك سر المؤامرة عليه أم لا ، أو سيشاركك فى ذلك رفقة توافرت فيهم صفات الشجاعة واقتحام الاخطار . قال القزم : لا يدرى بدخيلة هذه المؤامرة غيري وراتوتي وبعاكر . وقد اتفقنا جميعاً على اضرام النار فى وقت واحد بجهات معينة . أما الجهة التى أخذت على عهدتى اضرامها بها فهي الحجرة الخاصة بينت أنات . وقد تعهدت راتوتي بأحراق السلم المتصل بأداة اذا

حركت سقط السلم ولم يعد الصعود فيه ولا النزول منه ممكنين . أما بعاكر فتعهد بأشعال النار فى حجرة الملك رعمسيس : قالت العجوز : حسن كل هذا ولكن من المرأة التى كان صوت استغاثتها قبل حضورك بقليل يدوى فى الفضاء ؟ فتردد القزم فى الجواب فقالت : تكلم ولا تخش شيئاً من عجوز مثلى ستحمل هذا السر معها الى القبر . أجاب نيمو : التقيت فى الطريق بحفيدة المحنط بينم فجئت بها الى خيمتى معللا النفس بزواجها متى استوى أنى على عرش الملك واعتقتنى راتوتى من رقها وكافأتنى على اخلاصى فى خدمتها . والظاهر انها كانت فى حاشية الاميرة بنت انات ، وكان مقرراً أن تقضى الليلة معها فى حجرتها . فساقتها الاقدار الىّ حتى لا يصيبها ما سيصيب غيرها من الموت بعذاب النار . وكانت تريد منى ان اطلق سراحها كي تعود الى القصر فلم أجبها الى طلبها ، ورأيت ان انقاذها من الحريق فرض محتوم علىّ . وقد ألحفت فى الطلب فلم أر بدّا فى اخضاعها لارادتى من شد وثاقها بحبل متين . سألته العجوز : وهل سكتت ولم تقاومك ؟ اجاب : كيف لا وقد كانت تتقلب فى يدىّ كمن يتقلب على الجمر : ولم تمنعني هذه المقاومة العنيفة من التغلب عليها بمساعدة الاخرس خادم الوالى الذى امره مولاه بمساعدتي . ولما علا صراخها حتى ملأ الجو وخفت العاقبة سددت فمها بقطعة خشب فلم تستطع الصياح . سألته العجوز : واذا ذهبت فى تنفيذ مكيدتك فهل تتركها وحدها فى خيمتك ؟ قال : نعم لان والدها معها . قالت العجوز دهشة : والدها رشتا ذو اللحية الصفراء ! . وكيف لم

يحطم عظامك كما يحطم قدر الفخار وقد رأك تسيء الى ابنته ؟ قال نيمو ضاحكا : والدها لا يستطيع حراكا لانى كنت التقيت به فى المعسكر فاعطيته من نبيذ آنى قدراً وافياً أضاع رشده فهوى الى الارض جامدا كالمومياء . وهو الذى أطلعنى على مكان وردة فأسرعت من فورى اليها وما زلت بها حتى احضرتها الى خيمتى بحجة أن والدها مريض وانه رجا منى استدعاءها ليخفف عن نفسه الالم بالنظر اليها ، فما سمعت هذا القول حتى اقتفت اثرى وحين رأت أن والدها قد فقد صوابه جثت على ركبتيها امامه ثم طلبت ماء لتنضح به جبينه بعد اذ ظهر لها أنه أصيب بحمى شديدة وسمعته يلهج بذكر جرذان كان يقول إنها أحدقت به وحملت عليه . وقد لحظت بعد ذلك أن الوقت أزف وأنه لا بد من العودة الى القصر الذى فيه بنت انات ، فلما أبت البقاء عندى التجأت الى العنف فى الزامها على البقاء ، ولو دريت يا أماه ما اصبحت عليه الآن من الجمال الباهر والحسن الزاهر ! قالت العجوز : نعم جمال باهر وحسن زاهر ! ولكنك اذا اتخذتها حليلة لك ستضطر الى اذكاء العيون عليها لان الجمال مرعى . قال نيمو : اعلمى أنى سأعاملها بما يعامل الامراء والكبراء به نساءهم فأرصد لخدمتها الخاصة بعض الجوارى الحسان . . اترى راتوتى قد عادت مع نيفرت ؟ انى أرى الكواكب تهوى قليلا قليلا ، وعما قليل يتم الحادث الجلل الذى اتفقنا على ان تكون اشارة الشروع بتنفيذه ان تصفر سيدتى ثلاث مرات فتهم عندئذ بوضع النار فى الاماكن المعينة . وأذكر يا أماه ان عندك علبة

ثقاب فاعطنيها فانها اجود من ثقاب علبتى . قالت العجوز : خذها فلست بحاجة اليها بعد ان فرغ نصيبي من الدنيا . ولكن قل لى مالى أرى يديك تضطربان . . دع الجبن والكعاعة وخذ العلبة بقوة والا تناثرت ثقابها قبل ان تضرم النار بها. فودعها نيمو بعبارات تشف عن العطف فلم تبد منها حركة ولم تنبس شفتاها بكلمة ، فلما غاب عن نظرها وقفت وقد ظهر القلق على وجهها وأذنت لتسمع صفير راتوتى وكانت عيناها تلمعان وساورتها الهواجس ، فلما سمعت للمرة الثانية من صفير راتوتى المنبعث من صفارة فضة قالت تحدث نفسها : ما أشنع فعلتكم أيها الاغبياء الادنياء ، فبعاكر منكم عنوان الشر ونذير السوء وراتوتى صاحبة الصلف والخيلاء ونيمو مصدر المكائد وينبوع الحيل . ولكنكم لن تستطيعوا ان تمسوا رعمسيس باذى ولو فى اضغاث الاحلام. ان بازى آنى قد مات فلا أمل اذن له فى تحقيق أمنيته كما لا رجاء لى فى قضائه لبانتى ، ولكن لو رام رعمسيس . . .

ثم تناولت قنينة وسكينا وسارت مستندة الى عكاز ومتعثرة فى اذيالها ، حتى بلغت الى خيمة نيمو ، وكانت الآفاق تردد دوي الصفير الثالث . فلما وصلت الى الخيمة وجدت بها وردة مطروحة ارضا وموثقة الاكتاف ورشتا فاقدا الشعور . وكانت وردة ترتعد فرائصها وشراعو ممدودا عند قدميها كالكلب الامين ، فلما رأى العجوز مقبلة عليهما بسط يديه بالضراعة ان تنقذهما . أما هي فقد ألقت السكين الى الطفل وأمرته أن يقطع الحبل الذى شد به وثاق وردة ، وكان حبلا

متينا مضفورا بالياف ورق البردى .

وبينا كان شراعو يعالج قطع الحبل بالسكين كانت العجوز تدلك صدغي رشتا بالخلاصة التى فى القنينة ثم قطرت نقطتين منها بين شفتيه ، فما هي الا غمضة الطرف حتى أفاق الرجل من غشيته وأجال النظر فيما حوله دهشاً حائرا . فقدمت العجوز اليه ماء وألحت عليه ان يشربه وقالت لوردة التى نشطت من عقالها ووقفت على قدميها : اعلمى ايتها الايكة البيضاء ان الآلهة قد بعثوك هنا لاداء مهمة جليلة . . ان الملك واولاده قد دبرت التدابير لاغتيالهم ، ولى شوق الى انقاذهم مما اوشكوا ان يقعوا فيه، غير راغبة فى جزاء الا ان تحنط جثتى وتدفن فى طيبة . أفتقسمين لى لتبلغن الى الملك هـذه الوصية ؟ قالت وردة : اناشدك الآلهه ما الخطر الذى تتوقعينه ؟ قالت العجوز : خذى على نفسك عهد الآلهة وميثاقهم ان تتعهدى قبرى بالعناية . قالت وردة : اقسم لك بالآلهة وبحياتى لئن مت لأتعهدن قبرك ، ولكن أى مصاب يتهددنا الآن ؟ أجابت نيخت : ان راتوتي وبعاكر ونيمو تآمروا على اضرام النار بقصر فرعون فى ثلاث جهات منه ، فعليك يا رشتا باقتفاء أثرهم وبادر بايقاظ الاحراس وعجل بانقاذ الملك من الهلاك . قالت وردة لوالدها : هلم بنا ياوالدى نتلافى الخطر والا وقع بنا السوء والضرر. قالت هذا وأخذت تركض خلف أبيها . وبينا كانت تمعن فى الركض كانت العجوز تشيعهما بنظرات العطف والحنان وتحدث نفسها : ان وردة صادقة الوعد واهل لحفظ العهد . ثم همت بالعودة الى خيمتها

فخانتها قواها ولم تستطع نقل قدميها . ولم يكن شراعو الصغير لضعفه بقادر على مساعدتها ، فسقطت على الثرى ، والتفتت الى القصر فاذا بشعاع يسطع فى السماء بين حين وآخر كأنه لمع البرق الخاطف ثم ازداد تألقه وتصاعدت بعده سحب دخان كثيفة اشتدت بها حلكة الظلام . وما هو الا مرّ الطيف حتى اندلع لسان اللهيب وتطاير الشرر فى جميع الارجاء. فلما رأت العجوز هذا المنظر المخوف صاحت بشراعو أن يجرى الى المعسكر ويوقظ النائمين. فأخذ يعدو صائحا بملء فيه: النار! النار! وقد احست نيخت فى اثناء ذلك ألما احرج صدرها وضيق انفاسها فرفعت يدها الى قلبها وتشنجت شفتاها وكان آخر جملة فاهت بها قبل ان تفيض روحها : الى الملتقى فى العالم العلوى يا آسا !

الفصل الثامن عشر

النار ! النار ! وما وقع بالقصر من الدمار والاندثار

كانت راتوتى أخفت بعاكر فى خيمة بعض الخدم كيلا ينكشف امره ويفتضح سره . وما تمكن هذا الشاب الساقط الهمة من العودة الى مصر الا بشق النفس واستنباط الحيل . فانه بعد معركة قادش التى اصيب فيها بالجراح الفادحة اخذ يتلمس الطريق فى الآجام الكثيفة والغابات المظلمة حتى وفقته المصادفة لمقابلة فلاح سوري يقود حمارا فاشتراه منه ثم امتطاه وطار به من سبل لا يعرفها سواه وظل يواصل السير الى ان بلغ الى المغارة التي كان الشاعر بنطاؤر ارشد اليها والدوردة ، فوجد بها تابعه الحبشى الأمين الذى أقام على خدمته والعناية بشأنه حتى أصبح بحيث يستطيع السفر الى مصر . وقد قصد اليها فعلا فوصل الى بيلوز متنكرا بلباس حداة الابل ولم يستصحب الحبشي بل تركه فى سوريا حتي لا يشى به فتمتد يد الانتقام اليه . ولما دنا من الحدود بين سوريا ومصر (١) وجهت اليه اسئلة عن حقيقة شأنه وعن سبب حضوره وعما اذا لم يلتق فى طريقه ببعاكر الخائن لوطنه أو لم يسمع عنه خبرا . وأخذ السائلون وهم حفظة الحدود واحراسها يصفونه له

---

(١) كان على طول الخط الفاصل للحدود المصرية من حدود الشام بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر حصون متعاقبة تكاد يتلاصق بعضها ببعض لحماية مصر من غارات عرب الشاسو وكانت هي العلامة على خط الحدود

بأنه عريض الاكتاف قوي الاساطين بدين الجسم ظاهر الصلف ، ولم يخطر قط ببالهم انه هو بعينه ومينه الذي يجاوبهم على اسئلتهم ، وكان لهم فى ذلك عذر . وقد تنكر فى زي جمال اعور ووخطه الشيب وأنهك قواه التعب لا سيما مع تحيله على بشرته اذ غير لونها بعقاقير اشتراها من طبيب وطلى بها جسمه فأصبح اسود فاحما لا فرق بينه وبين الزنوج .

وكان آنى وراتوتى قد وصلا الى بيلوز حينما وافاها بعاكر متنكرا بذلك الزي يستجدى الناس احسانهم ، وحاملا بيده سعفة نخل . واتفق ان ابصر بخالته راتوتى فدنا منها مستجديا فأثر منظره الرث الحقير فى نفسها بما حملها على اسدائه البر . وقد سألته عن اصله وسبب جراحه والصناعة التى يزاولها واظهرت الاهتمام بامره عملا بخطة عقدت العزيمة على اتباعها وهي استمالة الفقراء للاستعانة بهم عند مسيس الحاجة . فجاوبها على ما وجهت من اسئلة ، وكانت تتلقى بيانه بتكلف الشفقة والرفق ولكنها تعذرت عليها معرفته بصوته ، فلما كان اليوم التالى عاد اليها ليعرفها بنفسه . وقد كان ، فلم تتمالك عندئذ ان اظهرت الدهش من تغير حاله وانقلاب سحنته . وكان آنى قد أصدر منشوراً ينذر بعقوبة الاعدام فيه كل من اهتدى الى بعاكر ولم يقبض عليه ليسلمه الى رجال الحكومة . ومع هذا فان راتوتى قد رضيت بهذا الخائن فى خدمتها غير مقدرة لمخالفة ذلك الامر عاقبة . وليس غريبا ان لا تعبأ راتوتى بالاوامر والمنشورات الرسمية لانها كانت بحاجة شديدة الى بعاكر ألد خصوم رعمسيس ومينا سائس ركابه . وكان ذلك الخائن على ما أصابه

من العور ونزل به من المحن يجتهد فى مجانبة الخدم، لان رذيلة الكبرياء فى طبعه لم يقهرها وازع المصيبة ، فاراد مغالبة سنة الدهر فى الخلق بأن يكون يعد أفول نجمه كما كان فى أيام عزه وبأسه . وكان ما امتلأ صدره به من الاحقاد والسخائم قد محا من فؤاده عاطفة الحب فلم يعد يفكر فى نيفرت . وهو ان افسح صدره للاحقاد ولم يمت بها فما هو الا لتردد الامل بنفسه فى انه سيقهر اعداءه ويدحر خصومه ويراهم عداد الموتى ، قبل أن يدهمه هادم اللذات ومفرق الجماعات .

كان بعاكر وهذه حالته اطوع آلة فى يد راتوتى لتحقيق امانيها . ولقد وثقت من صدقه وأمانته لانه ما كاشفته بالمكيدة التى دبرتها وفوضت الى حذقه بل الى حقده اضرام النار بقصر الملك والفتك بمينا حتى برقت فى عينه بوارق الارتياح للقيام باعبائها . وكان تحت نافذات حجرة الملك ، وهي من سطح الارض باربعين قدما ، دربزون مقاما على اطراف قوائم الخشب الحاملة للسقف . فوضع المتآمرون تحت هذا السقف مواد كثيرة قابلة للالتهاب وتلمس بعاكر الثقوب المعدة لدخول المتآمرين منها ليشعلوا النار فاهتدى اليها بما احتدم فى بصيرته من نار الحقد لا بما بقي فى عينه الوحيدة من البصر .

وقد نفخت راتوتى فى صفارتها النفخة الاولى فاندس بعاكر فى الداخل دون أن يمانعه احد لأن الاحراس كان غلب عليهم النعاس ، لما أفقد صوابهم من النبيذ العتيق الذى قدمه الوالى وأنصاره اليهم . ثم أخذ يتسلق الجدران بالالفاريز البارزة منها حتى بلغ الى ارتفاع قامتين . وهناك

وجد سلما من الحبال المتينة قد ترك بمكانه عمدا بناء على خطة مرسومة من قبل ، فاستمسك به تقية السقوط . وكانت حجرة الملك مضاءة بالانوار الساطعة فشهد فى مكانه ما كان يعمل فيها وسمع ما يقال .

وكان مما رآه جلوس الملك يطيل التأمل ويعمل الفكر وأمامه الوالى آنى ، وعلى مقربة من سريره مينا يهيء له لبسة المتفضل [1] ، وانه بعد هنيهة رفع رأسه ومد يده لآنى قائلا له بثغر باسم : اسمح لى يا ابن العم بأن يكون ختام هذا اليوم الجميل اعترافى بفضلك وشكرى مروءتك ، فقد الفيت فيك الصديق الحميم والخل الوفيّ والحافظ الأمين وان اعتقادى فيك لكذلك ، ولهذا لم احفل بما سعى الواشون والحساد به لدي فى حقك . واعلم أنى من ابعد الناس عن اساءة الظن بالناس غير انى رأيت أموراً رابتنى كثيرا وقلق من اجلها خاطرى . رأيت أنى ظلمتك واجحفت بحقك ، فقد بلغ من سوء ظنى بك مالا أجد معه مندوحة من الاعتذار اليك . انك صديقى وأنا صديقك ومن احب الامور الي أن تقف الامة المصرية على مبلغ ثقتى فيك واعتمادى عليك ولست أجد للدلاله على هذه الثقة ما هو ابلغ من دعوتك الى القيام على حراستى هذه الليلة فنم انت على الاريكة بينا أرقد انا فى هذا السرير .

فمدّ آنى يده لمصافحة الملك ، وكان بعاكر على مقربة منهما يسمع كل ذلك ويراه فلم يتمالك من التبسم حينما شهد الوالى ممتقع اللون بادية عليه علامات الاضطراب والوجل . أما رعمسيس فلم يشعر بهذا التغيير

---

(١) ثياب النوم

الفجأي لانه التفت الى مينا وقال له : هلم الىّ يامينا لقد اختبرت قرينتك أيما اختبار ، فعلمت ما انطوى فؤادها عليه من الاسرار ، وتحققت انها تهواك ولا تحب فى الدنيا سواك ، وانها قد أسلمت قيادها اليك لتمام ثقتها بك واعتمادها عليك . وشأنها فى هذا شأن الاطفال الذين يأتون عفوا من الاعمال مايفوقون به همة الرجال . وتذكر انى وعدتك يوما بهبات وعطايا جزيلة اذا اقامت قرينتك على عهد الوفاء لك فى مدة غيبتك الطويلة . واذ لم تبق عندى خلجة شك فى ذلك فسلنى ما تتمنى وهو يوجه في الحال الى بابك .

فجثا مينا أمامه واخذ يقبل اطراف ثوبه ثم قال : لا استميحك يا مولاي الا الاغضاء عن ذنبي ليخف عبء الهموم عن قلبي ، وانت ادرى بما هو هذا الذنب الذى ما تورطت فيه إلا لأن يد الخائن بعاكر تطاولت الى نيفرت الطاهرة الذيل . وقد أيقنت الآن كما كنت أوقن من قبل ان هذه الزوجة الصالحة المقيمة على عهد الوفاء لم تحس فى نفسها نحو ذلك العتل الذميم غير الاشمئزاز والاحتقار كما تشمئز النفس لرؤية الخنفساء والصرار . قال الملك : ماذا اسمع ؟ لقد طرق اذنى الآن أنين شاك وعويل باك . ثم دنا من النافذة وأطل منها فلم ير احدا ، لأن بعاكر الذى لم يكف عن النظر الى الملك ولا عن متابعة حركاته قد تمطى تحت الدربزون فلم يره الملك لحلكة الظلام . ولقد عاد الى مكانه فقال مينا ، وكان لا يزال جاثيا على ركبتيه : اعف عنى يا مولاى واصفح الصفح الجميل . اعد الىّ ثقتك وسلمنى زمام جيادك الصافنات

وفوض الىّ أمر المركبات . . انا لا أعيش الا بك ولا أنعم بغير الاخلاص لك ، فاذا كان مولاي قد رأى فى عبده كفاءة واستحقاقا فما الفضل فى ذلك الا له وهو مليكى ومولاي وأبى . قال رعمسيس : قف يامينا فلقد اجبت من قبل نداك وحققت رجاك ، ولا يأخذنك العجب اذا سبقتك الى تحقيق مرادك لانى مدين لك باشياء كثيرة لولاك لما حصلت عليها . ولك الآن أن تحمد نيفرت حمدا جزيلا فقد جاءت بالدليل على تفانيها فى حبك ، وابسط أكف الدعاء الى الآلهة الذين يجلون عن الموت ولا يدركهم الفوت ، اعترافا بما وفقونى له فى هذا اليوم الميمون من مقابلة خلين وفيين وزيادة أولادى فى شخص الشاعر بنطاؤر .

ما أتم الملك هذه الكلمات حتى طرق الآذان الصفير الثالث منبعثا من صفارة راتوتى ، مؤذنا بتنفيذ المكيدة ، فما أن سمعه بعاكر حتى ألقى جذوة نار مشتعلة من الفتحة المثقوبة تحت الدربزين ، ثم نهض لينصت الى حديث الملك ومينا غير مكترث بالخطر المحدق به . وكان آنى فى خلال ذلك قد تقدم صوب الملك وقال له : ألتمس من مولاي العفو اذا اجترأت على الاستئذان منه بالانصراف . وانى لأشكر له التفاته السامى اذ عهد الىّ حراسة ذاته العلية فى هذه الليلة ، غير انى أشعر باعياء فى جسمى على أثر ما بذلت فى الايام الاخيرة من جهود وعانيت من تعب . فان راق لمولاى أن يأذن لى ، وهو المرتجى والمأمول للنعم . . فقاطعه رعمسيس : سيبقى مينا طول ليله ساهرا ، أما أنت

فاذهب الى فراشك مطمئن البال ، واعلم انه ان ابقيتك هنا حتى الآن فما هو الا لرغبة منى فى إظهار ثقتى بك . . هلم الىّ بالثياب يامينا . . ثم إن على لسانى كلمة أحب الافضاء بها اليك . . اعلم أن الشباب يجذب الشباب كما يجذب المغناطيس الحديد . فان بنت انات اختارت لنفسها بعلا من ذوى الشهامة والمروءة والفضل ، ألا وهو الكاهن الشاعر بنطاؤر الذى أنقذنى من أيدى الاعداء وخلصنى من الشرور . وقد روي عنه أنه ابن بستاني بيت سيتى ، ولكن أمينى أطلعنى على حقيقة أصله وسر مولده ، فتأكد لى أن بنطاؤر انما هو ابن الموهار العريق الحسب الكريم المحتد ، وان ذلك الوغد الممقوت بعاكر هو ابن البستاني ، وان عجوزا ساحرة تسكن على حفاف المقبرة بدلت احدهما من الآخر لغاية فى نفسها وانها اعترفت بهذه الحقيقة ولم تجحدها . وهذا النبأ قد هش له وجهى وارتاح صدرى ، اذ لولا استكشاف ذلك السر لانتقمت من ستخم إما باعدامها وإما بنفيها الى معادن الذهب فى بلاد الحبشة . . يالله . . ما هذه الحوادث العجيبة والمصادفات الغريبة ! . .

وهنا سمع دوي جسم ثقيل قد سقط وارتطم عند سقوطه بالارض فهرول الملك ومينا الى النافذة لاستطلاع الخبر فلم يستطيعا الوقوف عندها لتصاعد الدخان الكثيف من تحتها ودخوله منها . فقال الملك : احضروا الخدم لاطفاء الحريق . قال مينا للوالى : عجل بالخروج وانج بحياتك ، أما أنا فسأبقى هنا حتى تنجلى الكارثة ويعود الاطمئنان . وما كاد آنى يسمع نصيحة مينا له بالنجاة حتى ولى الادبار كالأسير

الذى يطلق سراحه بعد طول الاعتقال . وكانت راتوتى اشعلت النار بداخل القصر وكسرت الأداة الحافظة للسلم فسقط تلك السقطة التى ألقت الروع فى القلوب . ورأى آنى ثيابها السابلة الى كاحل القدمين وهي تطلب النجاة بعد فعلتها الشنعاء فناداها باسمها وهو يركض خلفها طالبا النجاة لنفسه ايضا .

أما رعمسيس فاظهر من الثبات والجلد ما استوجب العجب ، لانه عاد الى حجرته رابط الجأش ساكن القلب ، ثم أطل من النافذة ليقف على مبلغ الخطر فرأي اللهيب مندلع اللسان من الجناح الايسر فيصبغ الفجر بلون يخيل للرائى معه انه فى رابعة النهار . أما جهة الجنوب فكان السكون سائدا فيها ، فوجه مينا نظره الى الدربزين الذى نزل بعاكر منه واختبر بقدمه متانته فتأكد له انه من المتانة بحيث يحمل جملة من الناس ، ثم التفت الى الجهة الاخرى فلم يسعه الا ان صاح قائلا : يا للخيانة ! ان هذا الحريق لم يقع اتفاقا وانما هو نتيجة تدبير سابق ، فانى ارى رجلا يلقى جذوة نار مشتعلة ، فاسرع مينا نحو السرير فتناول قوس الملك ورماه منها بسهم فسقط صارخا . ولقد وجدت جثة ذلك المجرم بعد فأذا بها جثة نيمو الذى كان السهم اصماه فى قلبه . وكان بذلك المكان ليحاول اضرام النار بحجرة بنت اناث ومخدع الامير راميرى . وخرج مينا من النافذة بعد ذلك ليقيس ارتفاع الوثبة ، الا أن الدخان كان فى حجرة فرعون كالضباب المنتشر وكانت ألسنة اللهب تندلع قتلتهم أخشاب السقف . واحس الناس كلهم

هذا الحادث الرهيب فأخذ الجنود الذين يقودهم رشتا والد وردة يصيحون : النار ! النار ! ليمت الدساسون والخونة ! أنقذوا الملك ! فلما سمعت وردة صياحهم أسرعت الى القصر لتخبر بنت انات بما وقع ، وتحضها على النجاة بنفسها . وكان الملك واقفا على الدربزون بجوار مينا يصيح بالجند : ليذهب بعضكم الى القصر لانقاذ ابنتى ويجتهد البعض الآخر فى منع سريان الحريق باخماد النار ، أما أنا فذاهب الى الجناح القبلى لأرى ما حدث به .

ولكن جذوة النار التى ألقاها نيمو قبل أن يراش بسهم مينا جاءت بالغرض المقصود من اشعال النار واحراق أخشاب السقوف وتخريب القصر واهلاك سكانه . وكانت غمغمة أصوات العساكر تمتزج بقرقعة سقوط السقوف ودويّ الطبول وصدى الابواق فتصدم السمع جلبة يعجز قلم البليغ عن وصفها . وربط الامراء أطراف ثيابهم بعضها ببعض ليتخذوا منها حبلا متينا يستعينون به على النزول من النافذة وقد تمكنوا من ذلك بما لا يخطر بالبال من الجرأة والهمة . وكان رعمسيس يشجعهم على الخلاص دون أن يتحرك من موضعه التماس النجاة لنفسه ، لان الدربزين المحيط بالقصر كان مقسما اقساما متساوية يبعد كل قسم عن تاليه بستة أقدام وكان اللهب يمتد ويشتد استعارا وينبعث منه الشرر فيساقط كالشهب عليه وعلى مينا .

فصاح رعمسيس : أحضروا القش واتخذوا منه كوما فى هذا المكان فلا مطمع فى النجاة الا بالوثوب . وكان اللهب يخرج وقتئذ

من نافذات مخدعه ، ولا سبيل للوصول اليه ، غير ان رعمسيس ومينا لم يفقدا شيئا من الجلد والأناءة وحضور الذهن ، فلما رأى مينا ان الاثنى عشر أميرا ينزلون من النافذة بالحبل المتين المتخذ من الثياب المتصلة الاطراف بعضها ببعض صاح برامیری ، وقد تأهب للنزول ، أن يرفع الحبل وان يثبت بمكانه حتى يجيء اليه . فاطاع الامير أمره وقبل أن يعترض رعمسيس على مينا فى فعله كان هذا قد وثب فى الفضاء الذى بين أجزاء الدربزون فارتعدت فرائص الملك والامراء واكبروا مجازفته الى هذا الحد بحياته . لانه لو كانت قدمه زلت فى شيء لسقط كما سقط بعاكر ومات شر ميتة .

وبينما كان الحضور يشهدون هذه المناظر المؤلمة المفجعة التى توبلت فداحة الاخطار فيها بما يناسبها من الاقدام والثبات والاقتحام كانت النار تدمر السقوف وتلقى بها الى الحضيض فيسمع لها دوي يختلط بترنيمات المنشدين المقبلين من المعسكر البعيد . وأبلغ شراعو نيفرت نبأ الحريق فأسرعت الى مكان الحادث وجثت على ركبتيها تبتهل الى آلهة النجاة ان ينقذوا أهل القصر من مخالب الهلاك . وكانت ترى مينا واثبا من مكان الى مكان وترافقه فى حركاته بفؤادها وسائر جوارحها وتعض على شفتها لتكظم فى نفسها احاسيس الخوف فلا ينهمل من عينيها دمع ولا ينطلق لسانها بصياح . ولم تلبث الطمأنينة ان عاودتها حينما أيقنت أنه يؤدى الواجب عليه بشهامة الشجعان وثبات الابطال فحل السرور فى فؤادها محل الخوف والانزعاج .

ولما دنا مينا من راميرى ربط نفسه بطرف الحبل وأرشد الامير الذى كان مستندا وقتئذ الى النافذة الى ما ينبغى أن يعمله ليرفعه ثم اجتاز الطريق الذى وثب منه بحيلة ، فلما شهدت نيفرت ان الخطر محدق به لم تتمالك أن كتمت انفاسها بيدها حتى لا ينبعث صياح من فمها ، ثم أغمضت عينيها حتى لا ترى ما يزعج فؤادها ويروّع قلبها ، وظلت كذلك زمنا . فلما فتحت عينيها رأت أن مينا اجتاز بعون الآلهة الفضاء الاول فالثانى فالثالث حيث أمسك رعمسيس به وأوقفه الى جانبه بعد أن كاد يفلت من يديه . وهنا تناولا الحبل وربطاه بطرف البرطوم ربطا متينا ثم رمى راميرى بالطرف الثانى ، واقتدى بمينا الذى كان ملما بأساليب الرياضات البدنية فاجتاز الفضاء السابق بدرجاته الثلاث ثم تلاه رعمسيس فمينا الذي عاجلته نيفرت بمسح العرق المتصبب من فوديه وجبهته .

وما وطأت قدما رعمسيس الثرى حتى هرول قاصدا حجرة بنت انات فألفاها سالمة من أي عطب ولم يصبها أدنى أذى ، ولكن تجلى له من الحزن الذى استولى عليها أن وردة التى أنقذتها من الخطر بانباهها اياها من النوم قد عادت الى القصر فأحاط بها اللهب ولم يعلم من أمرها شيء بعد . وكان رشتا والدها انطلق مقتفيا أثرها ينزع شعر رأسه لشدة ولهه وخوفه عليها واخذ يصيح صيحات الانزعاج فرآه الملك وهو فى هذه الحال فعهد اليه قيادة الجنود الذين نيط بهم فتح ثغرة فى الاسوار ليخرج منها من يستطيع النجاة . وكان بيده معول فلم يستطع

فتح النافذة بأول ضربة منه فاستجمع قواه وضرب ثانيا فما هى الا فترة من الزمن حتى انبعث منها دخان كثيف كالضباب وبدا منه رجل قد وهت قواه، وبين ذراعيه وردة مغميا عليها فأيقن أنها ابنته فاختطفها منه كما يخطف البازى باشقا وذهب بها الى حيث تستطيع استنشاق الهواء النقي الذى ينعش القلب ثم قبلها بين عينيها الغامضتين وانحدرت دموعه لما أثارت حالتها فى نفسه من الاشجان وجددت فى مخيلته من ذكرى امرأته التى كان متدلها فى حبها، غير أن بنت انات فجأته وهو فى هذه الحالة فلم تدع له فرصة الاستسلام للحزن على أمر مضى وانقضى حيث تسلمت منه وردة وذهبت بها فعاد رشتا لقيادة الجند المكلفين باخماد الحريق وانقاذ المنكوبين .

أما الرجل الذى برز من النافذة حاملا وردة بين ذراعيه فقد علم والدها حين رآه أنه الطبيب نبسشت الذى كانت الاميرة بنت انات اتخذته طبيبا خاصا لها . وقد ظل فى معيتها منذ التقت به فى جبل سيناء واتفق له بعد أن تسلم رشتا ابنته منه أن سقط ثانيا فى القاعة التى برز من نافذتها حاملا اياها . وكانت الريح شديدة الهبوب تزيد النار استعارا والدخان تكاثفا وتصاعداً الى عنان السماء وجدران القصر واركانه وسقوفه انهيارا وسقوطا . فلما رأى رشتا ان الخطر قد أحدق بمنقذ ابنته ارتكز على النافذة واتخذ وضعا خيف عليه فيه من الهلاك ومن ان يلحقه ما لحق الطبيب فطلب رعمسيس منه أن يعدل عن نيته وأن يترك نبسشت وشأنه . فأجابه : لا . . لا . . يامولاى ان عليّ لهذا

الرجل دينا يجب الوفاء به ، انه أنقذ ابنتى من مخالب الموت مرتين فاذا أنقذته الآن أبرأت ذمتى .

فاه رشتا بهذه الكلمات واختفى فى اللهب ثم لم يلبث أن برز منه بعد دقائق حاملا فى ذراعيه الطبيب الذى كانت النار تأكل ثيابه البيضاء . وكان يتحسس النافذة ، فلما دنا منها رأى نفسه بأزاء مائة رجل تحت قيادة بنطاؤر قد اقتحموا هذا التنور المتلظى سعياً لانقاذ الطبيب. فلما رأى الشاعر أنه قد أغمى عليه وفقد الشعور بما حواليه اختطفه وناوله لاقرب الجند اليه فألقاه هذا الى الذى بعده وهكذا . وبينا كان بنطاؤر يمد يده الى رشتا انقض السقف فأحاط والد وردة بشواظ من نار .

أما بنطاؤر فقد حمل نبسشت الى صيوانه وهو لا يزال مغمياً عليه من شدة ما أصابه واستدعى الاطباء اليه للعناية بأمره وساعدهم على اداء هذه المهمة . وكان فى أثناء ذلك مضطرب البال متأثراً بالحوادث الغريبة التى وقعت فى ذلك اليوم الكاسف . وكان حينما همت راتوتى بالصفير إيذاناً باشعال النار فى القصر بحضرة الكاهن الأعظم أمينى الذى أوقفه على سر أصله وما طرأ من الحوادث على أثر ولادته الى غير هذا مما أيقن معه أنه لم يكن ابن ذلك البستانى وأنه ربى فى الهيكل اكراماً له بل أميراً من كبار الامراء . ومع هذا فانه لما استقر هذا الخبر فى ذهنه لم يحس فى نفسه احاسيس سعادة جديدة ولم يوسوس فى صدره وسواس الكبرياء ولا غرور الارتفاع عن ذل المتربة التى ولد فيها الى عزة المجد المنتظر له . لانه ، منذ درج من عشه ، جبل على التماس

السعادة والشقاء لنفسه من نفسه لا من غيره .

ولما اندلع لسان اللهيب واشتد زفير النار وارتفعت اصوات الاستغاثة بطلب النجدات ، هب من بين يدي الكاهن الأعظم لتلبية المستغيثين ، فرأى ابن راتوتي ذلك الشاب الذى عرف بالطيش والنزق . وكان قد أظهر فى واقعة قادش من الشهامة والاقدام ما استحق عليه جميل الثناء ، فأراد المزيد منه باظهار براعته وشجاعته فى هذا الخطب المدلهم . ولكنه جازف بنفسه مع نفر من صحبه مجازفة الطائش الذى لا يحسب للعواقب حساباً فتوسط معهم النار فسقط فوقهم جدار كان مستعراً كله فاوردهم موارد الموت وحرمت نيفرت بهذه النازلة لذة العيش مع أخيها .

أما وردة فكانت فى أقرب صيوان الى القصر ، قد اسندت الاميرة رأسها الى صدرها وأخذت نيفرت تبذل صنوف العناية بها لافاقتها من غشيتها ، إذ كانت لا تكف عن دلك جبينها بالأرواح العطرية حتى أفاقت شيئاً فشيئاً من غشيتها ، وعاد اليها الشعور فتمثلت لها حوادث اليوم الماضى فى صورة انقبض لها صدرها وتذكرت اقتفاءها أثر أبيها راكضة لأخبار أهل المعسكر بالطامة الكبرى والجائحة العظمى ، وكيف دخلت في الدهليز الموصل الى مقصورة الاميرة وكيف كسر والدها الابواب التى أحكمت راتوتى اغلاقها على بنت أنات حتى لا يكون لها سبيل الى النجاة وكيف أيقظتها من نومها وذهبت بها الى خارج القصر ؛ وشعرت بعد ذلك أنها نسيت

الخاتم الذى حفظته عن والدتها أثراً خالداً وطلسما واقياً فى خزانة بحجرتها الخاصة فأسرعت الفيثة اليها للبحث عن هذا الاثر النفيس . ولقد وجدته فى الخزانة وأخفته فى طيات ثيابها ثم حاولت العودة من الطريق الذى جاءت منه فوجدته مسدوداً بحاجز من اللهيب والدخان. وقد وقع نظر الطبيب نبسشت عليها وهي فى هذا الموقف الحرج فانتزعها منه انتزاعاً . ولم تذكر من كل هذه الحوادث سوى أنها ابتسمت ابتسامة أرادت بها الاعتراف بصنيعة الطبيب الذى أنقذها من براثن الموت ، ولكنها لم تلبث أن شعرت بحرارة قبلة أثرت فى خدها كما تؤثر النار الشديدة فى الشيء الناعم الرقيق فثار ثائرها وبدت علامات الغضب على وجهها فلم تتمالك بنت أنات أن قالت : ما أجمل هذه الفتاة ولا لوم على الطبيب نبسشت إذا ذهب الى أنها من سلالة أسرة أجنبية شريفة ، فهل وقعت الانظار على يدين بلغتا من حسن الصورة وانفتال الاصابع ما بلغت يداها ؛ وهل مائل صفاء أديمها وشفافية بشرتها غير بلور فينيقيا ؟

الفصل التاسع عشر

حيث تسهل الامور ويباح المحظور

لما أنفذت راتوتى الحيلة التى دبرتها ونالت منها مرادها وقضت بغيتها هرولت مسرعة الى صيوانها ، حيث أزالت بالماء أثر الدخان الذى كسا بالسواد يديها ، الا أنها لم تجد به ابنتها نيفرت التى كان صياح الطفل شراعو قد ايقظها من النوم ، فوقفت لذلك فزعة حائرة فى أمرها. وكان بعاكر ونيمو وعداها بان يوافياها على الفور بنتيجة المؤامرة وفعل الحريق فلم يأت منهما أحد يبشرى نيل المراد ونجاح التدابير . وكانت فى خلال انتظارها الطويل تبعث القيم من آن الى آن فى استطلاع اخبار آنى فلم يعد فى مرة واحدة مزودا من الاخبار بما يشفى غليلها ويطفي ءنار احقادها . وغاية ما هنالك انه اخبرها برؤيته العجوز نيخت ملقاة على قارعة الطريق ، فاستمكن الانزعاج من نفسها بحيث كاد يفضى بها الا الاغماء . وكان يزيد بها الحال كلما سمعت صياح مناد أو قرقعة سقف هوى الى الارض بعد أن تأكلته النار او اذا خطف بصرها ضوء لامع . ومع هـذا فانها ما سمعت دراكا دويّ سقوط السقف حتى قالت : لا ريب فى ان هـذه الاخشاب المتساقطة قد أوردت صهرى مينا موارد الهلاك ، ولولا انه مرق من طاعتنا لمرافقة رمسيس لما استحق هذا العذاب الاليم .

وبينا كانت نهباً لهذه الهواجس سمعت هتافاً عالياً وأناشيد جميلة تردد صداها الآفاق ، فداخلها وهم أن الاتيوبيين يبايعون آنى ويعترفون به ملكا على مصر . وتجسم هـذا الوهم فى نظرها ساعتئذ فخيل لها أن الوالى قد استولى على عرش الديار المصرية ووضع على مفرقه تاج الوجهين البحرى والقبلى . وزادت على ذلك أن تراءت لهـا نفسها جالسة الى جانبـه ، وقد أفرغت على قوامها ثوباً ثميناً . ثم عللت النفس بأن تصبح هى وابنتها نيفرت ، وقد أيقنت أن ميناذهب فريسة الحريق ، صاحبتى التصرف في أملاكه الواسعة . ثم أطرقت رأسـها كمن يفكر فى أمر ذى بال وقالت : اصبحت نيفرت اليوم من الايامي فلم لا تقترن بآنى ؟ وهل لمثله أن يرفض الزواج باجمل امرأة فى الديار المصرية ؟ أما أنا فسيكون لى كوالدة ملـكة الديار المصرية من سمو المكانة وشرف الرتبة وسـعة النفوذ ما أعلو به علوّا كبيراً على اهل الدولة ، حتى على بعاكر نفسه الذى اصبحت لا أرى فيـه الا آلة حقيرة أعبث بها كما اشتهى . ولا يبعد ان تؤول املاكه الواسعة وأمواله الوفيرة الى ولدى الذى لا بد أن يعينه آنى سائسا لركابه أو رئيسا لضباط المركبات الحربية .

وبينا كانت راتوتى تعلل نفسها بهذه المنى اذا بالقيم مقبلا عليها ، وما أن صار منها على قيد خطوات حتى صاح قائلا : مولاتي ! مولاتى ! ان الملك ومينا واقفان وسط النار على افريز ضيق من أفاريز جدران القصر . ولن ينجوا من هذا الضيق الا بمعجزة الهية . ويقينى أن

الذين أشعلوا النار بالقصر طعمة من الاشرار . ولقد رأيت جثة بعاكر فعرفته بخاتم أبيه وهو بأصبعه كما شهدت نيمو مصمي بسهم ريش به . فما سمعت راتوتى هذا القول حتى اعتراها مايشبه الخبل اضطراباً وحيرة ثم سألت القيم : وماذا حدث لابناء الملك ؟ أجاب : الحمد للآلهة انهم نزلوا بحبل من ثياب وصلت أطرافها بعضها ببعض . وحينما برحت مكان الحادث كانوا جميعاً قد فازوا بالنجاه .

ما سمعت راتوتى هذا القول حتى تقطب جبينها واكفهر وجهها وأمرت القيم بالعودة لاستجلاء حقيقة الخبر . وما مضى على انصرافه من حضرتها بضع دقائق حتى اظهرت الجزع وملت الاصطباو وخيل لها ان الدقيقة الواحدة منها ساعة طويلة . ثم انقضت الساعات فتضاعف جزعها وازداد يأسها وفزعها . ولبثت تساورها الهموم حتى اذا أشرقت الشمس وارتفع النهار عاد القيم كاسف البال مضطرب الفؤاد ممتقع لون الوجه مصابا بعيّ أعجزه عن الاعراب عن مراده ، فالقى بنفسه على قدمي سيدته وقال متلعثما : لقد كانت ليلة شؤم ونحس هلعت لهول حوادثها النفس . . توكلى يا مولاتى على الآلهة فيما نزل بك من الارزاء وليكن لك فى الالهة ايزيس التى سقط ولدها جريحا وهو يناضل عن ابيه وملكه أسوة حسنة في التعزى عن المصاب وصدق الاتكال على رب الارباب ، وليلهمك آمون الهطيبة القوي القهار الصبر الجميل على مصابك والقوة على احتمال رزئك . . ان ولدك الشريف فخر الشبان وموضوع الآمال فى الحال والاستقبال قد أودت بحياته

الغالية قطعة خشب كبيرة هوت عليه . وكانت راتوتى تصغى الى هـذا القول دون أن تبدى حراكا كأنها تمثال نحت فى حجر أو صيغ من نحاس ، ولم تنهمل من عينيها دموع الاسى والحزن على فقد ابنها وظلت كذلك فترة من الزمن قالت بعدها : وماذا جرى لرعمسيس ؟ أجاب القيم : حمداً للآلهة فقد أنجوه من المعاطب . سألته : وأنى ؟ أجاب : احترق جسمه فصار قطعة فحم ولم يعرف الا بالتاج الذى كان يكلل هامته .

هنا تولى راتوتى من الذهول ما كاد يفقدها الصواب ويسقطها فى يدها جزعا من العاقبة والعقاب . ووقف القيم فى مكانه كالمنزول به فزعا مما رآه ، فتراجع الى الوراء واحس كأن الدم قد جمد فى عروقه حين رآها وقد شبكت أصابع يديها وارسلتهما فى الفضاء بعد ذلك كمن يريد خصمه بمصارعة أو ملاكمة ، ثم قهقهت ضحكا كمن أصيب بجنة وبدا عليها بعد ذلك من العلامات والاشارات مادل على ان سماعها قد ازعجها فسكتت مطرقة رأسها بحيث لم يقع نظرها على رئيس حراس الملك المعروف باسم (عين وأذن فرعون) وهو مقبل عليها فى ثلة من ضباط الجند وبعض الكتبة . وقد بلغ من ذهولها وجمودها انها لم تسمع صوته وهو يناديها ، بل لم ترفع رأسها الاحين نبهها القيم بلمسه ذراعها فرفعتها فى وضع تصنعت به أنها كانت فى سبات عميق ، ثم التفتت الى رئيس الحراس وسألته بصلف وكبرياء : ماجاء بك الى صيوانى . أجاب : بالنيابة عن قاضى مدينة طيبة الاعظم ألقى القبض عليك

وأعلنك بالحضور الى مجلس العدل الاسمي لمحاكمتك بتهمة الخيانة الموجهة اليك ، وهي اختراقك قصر الملك للفتك به . قالت راتوتى وقد لاحت على خديها آثار ابتسامة الازدراء والتحقير : انني مستعدة لك ومطيعة لامرك ، ثم أشارت الى كرسي رجت من الضابط ان يجلس عليه ريثما تسوى شعرها وتلبس ثيابها ، فأبى رئيس الاحراس الجلوس بل ظل واقفاً عند الباب ، بينما كانت راتوتى تضفر شعرها الابنوسي اللون وتضع على مفرقها تاج الامارة ، وأخذت تبحث فى عتيدتها بعد ذلك عن قنينة صغيرة تحتوى خلاصة الجوز المقيء ، وهو سم قتال ابتاعته منذ اشهر من الساحرة نيخت على يد القزم نيمو . فلما عثرت عليها طلبت من احدى خادماتها مرآة ، فلما تناولتها منها جعلتها إزاء وجهها بحيث لا يراه الضابط ثم شربت القنينة . فما استقر السم فى جوفها حتى اضطربت اعضاؤها وخرت على الارض صعقا ، فأقبل الضابط نحوها على عجل ، فلما وقع نظرها عليه قالت له : لقد فشلت فى تدبيرى فاخبر الكاهن الاعظم بأنه سيصيبه من الفشل ما اصابنى . ثم تقلبت يمنة ويسرة ناطقة باسم نيفرت وفاضت روحها .

* * *

ان الذين سالمتهم الايام من بنى الانسان وهادنتهم صروف الزمان وشربوا من كوثر السعادة والهناء ، يعلمون يقينا أن لا بد من كدرة تشوب هذ الشراب العذب . ولكن ليس فى هذه الكدرة من ضرر ولا ضير لأنها تنبه الانسان الى وجوب الاعتقاد بأن أسباب الفرح

والسرور لم تتوافر لأحد على وجه المعمور مهما تجاوز له الدهر وابتسم له من السعادة الثغر .

فقد جاء موت راتوتى على ما بسطناه من الوجه المحزن نقطة سوداء فى صحيفة هناء نيفرت ومينا ، ولكنه بث فى نفسيهما احاسيس جديدة بالحب المتبادل بينهما على أشرف المبادىء وأقدسها وهو الزواج فان نيفرت كانت تستعين بحبه لها على التسلى عن مصابها بموت والدتها وأخيها ، وكان حبها له يزيح ماتراكم من الهموم فى نفسه لتبديد والدتها المتوفاة ماله فى غيابه . وقد فهم وقتئذ أن سعادتهما باللقاء بعد طول الفراق والتنائى لم تكن من بواعث تطامن قلبيهما وانشراح صدريهما فحسب بل وسيلة أيضاً لأبانة ما هنالك من ضرورة قيامهما بعضهما لبعض بواجب مقدس ألا وهو أن يطيب كلاهما الآخر بما يزيل عن صدره صدأ الاكدار ويزيح عنه الهموم وردىء الافكار .

أما رعمسيس فانه لم يبرح مكان الحريق الا بعد أن أصدر اوامره بتقديم الضحايا وتقريب القرابين ورفع الاصوات بالدعاء شكراً للآلهة على حمايتهم الباهرة ومساعدتهم الظاهرة . وقد كانت تلك المكيدة التى أخفق آنى وراتوتى فيها سعيا سببا لهواجسه وبلباله فعدل عن مخالطة رجال الدولة متوخيا العزلة وفضل الانزواء فى خيمة بسيطة أمر بضرب أطنابها على غشيان القصر الباذخ الذى كان ابتناه آنى رافعاً أركانه على أسس الدسائس والغش . ولبث فيها يقيس الحاضر بالغابر ويزن ما رآه من خير الناس وشرهم ، بميزان الاعتبار والاستبصار ، فاستنتج من

هذه المقارنة أن الخير كان فى كفة الرجحان فقال : ان الواجب عليه فى هذه الحالة الشكر للآلهة وبنى الانسان . ثم ناجى نفسه بقوله : لقد علمتنى والدتى وأنا فى نعومة الاظفار كيف يكون شكر المعروف ومقابلة الصنيعة . وقد لقنت ابنائى هذه الدروس النافعة ونشأتهم التنشئة الصالحة على تلك المبادىء الشريفة وغرست فى قلوبهم وألقيت فى عقيدتهم أن نكران الجميل ليس في شيء من كرم النفس ولا مقتضى الاحسان والعدل .

وكان رعمسيس قد تجرد من ميول الشر التى لا يخلو منها فؤاد انسان فبعث فى طلب كريمته وبنطاؤر فلما مثلا بين يديه رجا من الاميرة أن تسرد عليه بالتفصيل الوافى جميع الحوادث التى أفضت الى وثوق عرى الحب بينها والشاعر ، فأنشأت تقص عليه تلك الحوادث بالاسهاب ، فكان فى سماعه لها يوافقها على سلوكها فى بعض المواقف وينعى عليها تصرفها فى البعض الآخر . ولكن علامات السرور كانت بادية على وجهه فى الحالين فلم يسعه حين أشرفت على ختام حديثها الا أن أمسك بيد الشاعر ووضع فيها يد بنت انات التى أطرقت فى الحال رأسها حتى لمست به صدره لشدة ما تولاها من الفرح والدهش . ثم التفت الى بنطاؤر وقال له : لقد صرت منذ الآن بعضا من كلنا وعضوا من اعضاء أسرتنا . وعليك ان تبقى الى جانبي فى أثناء انعقاد الجلسة التى ستعقد حافلة بالامراء الاسيويين للمذاكرة في شروط الصلح بين الامتين .

وفى خلال ذلك تشرف ابناء الملك بمقابلته وحظوا بجميل رعايته وشامل عنايته . وكانوا أقبلوا لتهنئته بالنجاة من خطر دسائس آنى وراتوتى، فعرفهم جميعاً ببنطاؤر وكشف الغطاء لهم عن سر أصله الحقيقى معلنا عقد قرانه بشقيقتهم بنت انات . فوقف الامير راميرى وأخذ يهنىء بنطاؤر بأبلغ عبارات التهانى ، فسر الملك بقوله وعانقه عناقا طويلا شاكرا له ما أبداه من الاقدام والشهامة فى حادث الحريق . وكان أفرغ عليه حلل الرجولة والبلوغ (١) على أثر واقعة قادش ، لما أظهره فيها من الثبات والجلد . وقد عينه فى هذه المرة رئيساً لفرقة الكماة المحاربين في المركبات وقلده وسام الاسد (٢) الذى لا يمنح الا للمتفوقين فى الثبات والاقدام فى ميدان القتال . فلما رأى الامير ترادف نعم الانعامات الابوية الملكية جثا على ركبتيه مثنيا على والده وشاكرا فلاطفه الملك بامرار يده على شعره المسدول وقال : أكافئك اليوم اعترافا بشهامتك وتنويهاً بكفاءتك . وربما كان مقدوراً لك أن تلقى بدل المكافأة العقاب الصارم لانك لم تخضع للنظام قط ولم تطع أوامر رؤسائك ، وأنت عليم بأنه لا يعرف من الامر والنهي شيئا من لم يتعلم الامتثال قبلهما . ومن آيات ركوبك متن الشطط فى مخالفة الاوامر أن طردك الكاهن الاعظم لهيكل سيتى من مدرسته فجئت الى الشام وانخرطت فى سلك الجندية دون أمرى أو امر أحد القواد . نعم لست

---

(١) انظر صحيفة ٢١٧ من الجزء الاول من كتاب فتوح مصر لماسبرو
(٢) انظر كتاب هارتمن

أنكر أنك رجل راشد بشجاعتك وحذقك ولكنك ما برحت صبيا بعقلك ورأيك ، وهذا نقص فى خلقك كان من أثره أن ألقى بك مرتين فى يد العدو فافتديتك مرتين اذ قايضت عليك فى احداهما بابنة ملك الدنائم مع أن بقاءها فى حوزتى كان خير وسيلة لنيل بغيتى منه على أيسر وجه وحسم كل خلاف بينى وبينه ، ولكن سوء تصرفك أدى بنا الى التفريط بعض الشىء فى حقوق مصر . ولا تنس ان ابناء الوطن الذى تقوم على تصريف شؤونه وسياسة اموره حكومة منظمة متضامنون جميعاً فى عمل ما يعود عليه بالمنفعة . وانى لأشبههم ، وهم إزاء الواجب ، بأسنان العجلتين المتعاشقتين فى الناعورة اذا انكسر سن أحداهما تعطلت هذه الاداة الرافعة وعجزت عن رفع المياه من النيل .

ما أتم رعمسيس حديثه حتى جاء المنادون يبشرون بان ملك الحبتاس وحلفاءه الامراء ينتظرون وصوله الى المجلس ، فلبس أفخر ملابسه وتزين بأجمل حلاه ومس أجود طيبه ووضع على رأسه تاج الوجهين القبلى والبحرى . ثم أقبل عليهم فى المجلس يتقدمه رئيس التشريفات وحملة الاشارات والكرام الكاتبون ، ويتلوه اشباله فقادة الجيش فالمترجمون . وظل سائراً على هذا المثال حتى استوى على عرش الملك ، فأشار اشارة خر لها الامراء الاسيويون سجدا وقبلوا الارض بين يديه . أما ملك الدنائم فلم يقتد بهم بل استقر فى مكانه مكتفياً بأداء السلام المعتاد ، فلما شهد رعمسيس ذلك احتدم غيظا وسأله بلسان المترجمين أيعتقد أم لا أنه مغلوب على امره . فاجاب : لم احضر هنا

أسيراً حقيراً . وقد سألتنا أن نخر على الارض سجدا فرأيت أن سجود الانسان للانسان لا يتفق مع ما ألفته من عادات بلادى ولا مع شهامة الاحرار الذين يأبون السجود الا للآلهة . واذا كان مما ترامت اليه آمالى أن أصير لك حليفاً فى السراء والضراء ، أفيروق لك أن يكون حليفك ممن تجردوا عن حلية الشرف والوقار .

سمع رعمسيس منه هذا الكلام فاخذ يجيل نظره فى ملك الدنائم الذى كانت تبدو آيات الشهامة وعزة النفس واضحة على وجهه . ثم قال بصوت جهورى : انا لا أقبل المذاكرة فى شروط الصلح الا مع خصوم يسجدون لتاج الوجهين القبلى والبحرى ، فاذا أقمت على اصرارك ولم تعدل عن عنادك فلن تصيب نصيبا ما من فوائد الصلح الذى سأبرمه مع حلفائك . فلم يتحرك الملك الاسيوى من مكانه بل قال: جئت هنا للمفاوضة فى الصلح ولن أبذل كرامتى ثمنا له . أما جبهتى ذه فلن تلمس الثرى لانسان أو لتاج ، على ان لى عندك رجاء أيها الملك الشريف الاصل الكريم المحتد ، فهل أنت محققه لى ؟ ان مينا سائس ركابك قد بالغ في الحفاوة بابنتى (براكسيلا) وأكرم مثواها فى أسرها فأردنا أن نشكر له هذا الجميل ، أفتأذن لنا بعبور النيل لنؤدى له هذا الدين فى صيوانه .

فأذن رعمسيس له بالانصراف ثم بدأت مذاكرات الصلح الذى كان الكتبة المصريون والاسيويون قد وضعوا المهم من شروطه وقواعده واتفقوا عليها قبلا . وكان العمل بالمجلس لهذا السبب مقتصراً

على مراجعة نسخ الشروط التي جرت المناقشة فيها وحصل الاتفاق عليها، وعلى تقرير النظر فى نص النسخة النهائية للمعاهدة بمدينة رعمسيس المسماة (طانيس) والمعروفة عند الساميين المقيمين فيها باسم (زوان).

ولما تمت المذاكرات دعي الامراء الاسيويون الى مأدبة ملكية أدبت برسمهم فجلسوا الى موائد خاصة بهم، إذ كانت التقاليد المصرية فى ذلك الوقت تقضى بأن يكون الاجانب، فى أثناء تناولهم الطعام، بمعزل عن غيرهم تقية التلوث بالدنس فى مجاورتهم أو الأكل معهم. وكانت تظهر على رعمسيس أمارات الامتعاض والاستياء فى أثناء الوليمة، إذ خشي أن يترتب على انصراف ملك الدنائم استئناف الحرب بعد زمن قصير. ولكنه مع هذا وبالرغم من اعجابه بشهامة هذا الامير الاجنبي وإبائه قد عقد النية على التصعب معه فيما أراده عليه من الرضوخ لشوكته، خيفة أن يجر التسامح الى اقتداء بقية الامراء به فكأن لم يكن هناك صلح ولا اجتماع لتقرير سلم.

وكانت الشمس على وشك الغروب فاذا بمينا الذى أمر الملك له بالراحة والرياضة قد عاد والتمس المثول بين يديه ليرفع اليه أمراً خطيراً. فلما أذن له رعمسيس واستدناه منه أخذا يتحادثان ملياً، ثم قام الملك بغتة على أثر الحديث وقال مخاطباً بنت أنات: هـذا اليوم الذى بدىء بالحوادث المروّعة قد ختم بالانباء السارة والبشائر، فقد اتضح أن الغادة التي أنقذتك من مخالب الموت، وكادت تلتهم النار جسمها اللطيف من أسرة عريقة فى الحسب والنسب. فما طرق هذا القول سمع الامير

راميرى حتى صاح غير محتشم : أي نعم انها لمن أسرة ملكية راسخة فى الشرف، فنظر اليه والده نظرة مغضب وقال : خليق بابناء رعمسيس ان يلزموا الصمت ما لم يدعوا الى الكلام . فلم يكن من الأمير ، وقد ادرك زلته وتعرف خطأه ، الا أن أطرق رأسه خجلا ، وظل كذلك بينما كان الملك يستأذن من ضيوفه فى الغيبة عنهم هنيهة . ثم أشار الى كريمته أن تقتفى أثره فأجابته الى امره وكلمته مسارّة فى شأن ما . فالتفت الى راميرى ، وبعد أن ظل قليلا فى التفكير أمره بمرافقة أخته بلا توان ولا تأخير .

الفصل المتمم للعشرين

حيث تتفتح اكمام الورد فيشم أريجه من وافاه السعد

كان راميري ، وبنت أنات منصرفة الى إفاقة وردة من غشيتها ، يسأل عن بعض أطباء المعسكر . فلما التقى بهم سألهم أن يرافقوه الى صيوان اخته فأجابوه الى طلبه وما وصلوا معه اليه حتى أخذ يرمى الغادة بنظرات تنم على ما كان يخالجه من عواطف الرفق وأحاسيس المحبة لها ، ولاحت على وجهه علامات الغبطة والابتهاج حينما تأكد له انها لم تصب بجرح يخشى منه على حياتها . وقد أخذ منه الوجد عليها والشغف بها مأخذاً لم يسعه معه الا أن تناول يدها اللطيفة ورفعها الى شفته يلثمها بلهفة وشوق . ولعله تخيل ان لا رقيب عليه فمضى فى تيار العواطف الغرامية وانقاد الى الاحاسيس القلبية ، الا أن بنت أنات ما لاحت لها هذه الجذبات حتى أبعدته عنها بلطف الحيلة رغم ذهوله ولهابها ووجداً عليها . ولكنه استطاع بفضل مغالبته لهذه الجذبات استحضار ذاكرته فابتهل اليها أن لا تمنعه منها ولا تدفعه عنها ، ثم سارّها بحقيقة أمره مع وردة منذ عرفها وأحبها وقال انه عقد النية على الاقتران بها ، فأرعدت بنت أنات لسماع هذا الكلام ثم قالت : ان الابنة ورثت الدنس عن أبيها ، وهي ما زالت ملوثة به ولن تبرأ منه الا بتجشم مشاق الاسفار وقطع الفيافى والقفار . فاعترض الامير بقوله : ان الشرف

عندنا معشر المصريين يتصل بالاعقاب من الارحام لا من الاصلاب .
وقد كانت زوجة الجندي الشجاع رشتا . . . فقاطعته بنت أنات : لقد عرفني نبسشت بأمرها إذ قال لى انها احدى سبايا الحرب . ولا ريب عندى فى أنها كريمة الاعراق على ما يؤخذ من شرف صورتها وحسن ملامحها . ولقد ورثت وردة عنها كل هذه المحاسن ، فما أجملها من غادة تسبي النظر وتحير الفكر ! قال راميرى : ان لونها فى صفائه لكالازهار فى حسن الازدهار . أجيلى النظر فى محاسنها أيا شقيقتى فقد تحركت من موضعها . . وردة افتحى عينيك . . وردة افتحى عينيك . . افتحيهما يا ريحانة قلبى وبهجة حياتى وسرورى من الناس جميعاً . . إنا إذا أشرقت الشمس نقدم القرابين اليها ونضحى الضحايا، فماذا نضحى ولى من عينيك شمسان متى أشرقتا أرسلتا الى فؤادى سهاماً حادة النصال ؟ فلما وقفت بنت أنات على ما به من العشق والهيام ابتسم ثغرها ، ورجت منه أن يبتعد قليلا عنها لانها كانت تتنفس بعناء . وفى الاثناء جاء طبيب ليخبر الاميرة بانه هيأ للمريضة حماماً ساخناً من النباتات الطبية ، وانه قد آن وقت نقلها اليه . فدبرت الاميرة التدابير لحملها اليه . وانها من ذلك لفى شغل شاغل وهمّ ناصب ، وإذا برسول من عند الملك يدعوها اليه ، فاحمر وجهها من الخجل إذ كانت تعلم ما لاجله طلبها ، فرجت من راميرى أن يغيب عنها ريثما تتحلى بثياب الاعياد وفوضت الى نيفرت العناية بوردة بالنيابة عنها . ثم تحولت نحو أخيها وقالت له : ان نيفرت لعلى خلق كريم وخصال شماء . وتفويضى اليها هذه

المهمة الآن ، وهي بين السرور والهم والصحة والألم ، خير ما تسرى به عن قلبها الهموم . ولقد أجاز والدى لمينا أن يلجأ أياماً الى الراحة ، فأطلقت لنيفرت عنان الحرية وأعفيتها من كلفة المراسم والطقوس الرسمية ، لا سيما وقد أصبحت منذ الامس فى شغل شاغل كما أصبحت أنت كذلك . ولا عجب يا راميرى إذا كنا الآن أشبه بطير (بينو) المقدس الذى يتهافت على النار فى عين شمس فلا يحترق بها بل يصدر عنها أحلى رواء وأجلى مظهرا منه عند تهافته عليها . فانا بعد نجاتنا من نار الحريق وخلاصنا من الضيق قد رفرف السكون بأجنحته على رؤوسنا وبث الثقة فى نفوسنا وبشرنا بالدخول فى دور جديد من الهناءة والسعادة .

وما كاد راميرى يغادر الصيوان حتى سجدت بنت أنات أمام صورة جدة والدتها وعكفت على الصلاة ، ثم أطلقت البخور من المجامر على مذبح الالهة هاتور التى كان لا يفارقها تمثالها أين ذهبت فضوعت رائحته المكان . ثم أزينت بأجمل وأفخر ما عندها من الحلي والحلل وقلبها يفيض فرحا وابتهاجاً لقرب لقائها بينطاؤر . وما أخذت زخرفها وأزينت حتى دخلت على نيفرت ورجت منها أن تتولى وردة بعنايتها فى مدة غيابها . وعندما برح راميرى صيوان شقيقته رأى الاحراس يطاردون طفلا كانت تفيض الدموع من عينيه . فعرف الامير انه النقاش شراعو الذى كان أول من قصد الى وردة وكشف لها القناع عن سر المؤامرة التى دبرها الوالى للفتك بالملك طمعاً فى الجلوس على عرشه ، وتذكر أنه كان لمحه على مقربة من القصر ساعة شبوب

النار فيه . وكان الحراس يدفعونه عن صيوان الاميرة فيحاول الدنو منه فيزدادون ارتيابا بامره وخوفا من شره ، وانهم فى معاملتهم إياه بهذه القسوة لمعذورون لان الالسنة لم تكن تلوك فى هذه الآونة غير سيرة أعداء الملك وتفننهم فى أساليب تدبير الدسائس له للفتك به مرة أخرى .

وما وقع نظر راميرى على الطفل شيراعو حتى عجل باستخلاصه من يد الحراس وأخذ يترفق به ويسأله عن أمره ، فسرد الغلام ما اتفق له من الحوادث وكيف أنقذت العجوز نيخت الجندى رشتا وابنته وردة لاخطار فرعون بالخطر المحدق به والدسائس التى تدس فى الظلام له وكيف انطلق هذا الجندي بين صفوف الجند يوقظهم من نومهم وينذرهم جميعاً بالخطر المحدق بهم والذى جاء وقوعه على غير انتظار ، وأنه لما لم يجد ملجأ يأوى اليه ولا حاميا يستظل بظله ويفىء الى كنفه أراد أن يستنجد بوردة ، فلما سمع الامير منه هـذا القول بعث به الى نيفرت ورجا منها أن تأمر بعض الخدم بالقيام على شؤونه والعناية بامره .

وكانت وردة تفيق شيئاً فشيئاً من غشيتها على أثر نجاح الاطباء فى العناية بعلاجها فتحلت بأحسن ملابسها وقصدت الى نيفرت ، فلما وقع نظر مينا عليها ولم يكن رآها من قبل بهت لجمالها وخولط فى أمره فلم يسعه الا أن قال : عجبا لهذه الفتاة الفتانة ! انها لأشبه الناس بابنة ملك الدنائم التى أنزلتها سرادقى ، ولا فرق بينهما الا أنها أصغر سناً وأنضر شباباً وأوفر حسناً وبهجة . وكان شيراعو وقع نظره عليها فدنا منها ، فحدقت فيه النظر ، الا أنها لم تفه بكلمة واحدة بالرغم مما بذل الاطباء من العناية

بها . وكانت الدموع تساقط على خديها فاتجهت نيفرت اليها وقالت : لست أنكر أنك فقدت فى أبيك ركنا من أركان الشهامة وعزة النفس ، ولكن خسارتي كانت ضعف خسارتك . فقد فقدت والدتى وأخى فى نفس اليوم الذى فقدت انت أباك . فنطقت وردة : ان رشتا والدى كان على جفاء زيه وقبح شكله حميد الاخلاق كريم السجايا ، ولهذا لن تنمحي ذكراه من ذاكرتى ما دمت على قيد الحياة . . ان النارجيل خشن الملمس ، ولكنه يعطى الحاذق الذى يعرف كيف يزيل غلافه شرابا لطيفاً سائغا وطعاما حسن المذاق . . وما كان والدى الا كالنارجيل يجفل الانسان من منظره ويقبل عليه عند مخبره . ولقد مات جميع أهلى وأصبحت بوفاته آخر من بقي منهم على ظهر الغبراء ، فأنا اليوم أشبه ما اكون بورقة شجرة عبثت بها الرياح على ساحل البحر قبل وصولنا الى هذا المكان ، ثم سقطت فى الماء فتلاعبت بها الامواج وأصبحت بمعزل عن سائر الاوراق .

ما وسع نيفرت عند ما سمعت هذا التشبيه الا أن قبلتها بين عينيها وقالت لها : ثقى بأن لك أصدقاء وصديقات لا يتركونك وحيدة تعبث بك عواصف الدهر وصروف الزمان ، كما عبثت الرياح بتلك الورقة . قالت وردة : انني مع وثوقى بهم ما زلت أشعر أننى وحيدة لا انيس لى فى هذا العالم . ولقد كنت بطيبة أقضى نهارى في رؤية الاوز البرى طائرا فى الفضاء غدوا ورواحا فأميز بين السابقات منها واللاحقات . وكنت لا أري ان السابقات قد هجرتها اللاحقات لانها

تظل مرموقة منها من بعيد . غير انى رأيت لفيفاً من الصيادين جعلوا اللاحقات مرمى أنظارهم فشتتوها فى جميع الارجاء وبقيت واحدة منها بأيديهم ، أفلا ترين ان هذه الاوزة جديرة بالشفقة وانى شبيهة بها من كل الوجوه بعد اذ فقدت عشيرتى الاقربين ولم تعد عندى وسيلة للاجتماع بهم ، وقد طال أمد الفراق .

قالت نيفرت وقد ظنت أنها تزيل عن قلبها صدأ الهم : ولكن أنسيت انك الآن فى كفالة أسرة اعرق اصلا واسمى شرفا من اسرتك؟ فما طرقت هذه الكلمات أذني وردة حتى اضطربت شفتاها ولمعت عيناها وقالت بصوت يدل على إباء وعزة نفس : اننى فرع والدتى وهي رحمها الله من أصل عريق ومحتد كريم . أتدرين لمَ اقتحمت الاخطار اذ ألقيت بنفسى فى النار . . لم أجازف بحياتى الثمينة الا للاحتفاظ بالاثر النفيس الذى تركته لى ، وكنت وضعته مع ثياب الحفلات والاعياد وقتما جاءنى الشقي نيمو وأخذنى بدنئ حيلته الى خيمته . ولا يخطرن ببالك ان هذا الاثر مال دفعنى الجشع الى الحرص عليه ، اذ ما يلزم المرء لوقاية حياته من الموت بالجوع ؟ ان هو الا كسرة خبز وقليل من التمر وجرعة ماء نقي ! . . بل كان فص خاتم نقشت عليه كلمات لم أقف على سر معناها . وكانت تحدثنى الآمال بأننى ربما وقفت بهذا الطلسم النفيس النادر على حقيقة أصلى فذهبت آمالى أدراج الرياح ويئست من الحصول على السعادة المتمناة وفقدت بضياعه كل أمل فى الاستقبال .

وأخذت وردة العبرة فأمسكت عن الكلام فعانقتها نيفرت قائلة

يلهف : اذن ذهب الاثر النفيس فريسة النار . أجابت وردة : كلا ! بل انتشلته من الصندوق ، وكان لا يزال بيدى حينما تلقانى الطبيب نبسشت فى ذراعيه . ولما أنقذت من القصر وحملت الى سرادق بنت انات حضر الامير رامسيرى فتراءى لعينيّ كما تتراءى الاشباح فى المنام . قالت نيفرت : لعله فقد منك وأنت فى الطريق الى هنا . فأومأت وردة بايماءة الموافقة ، وكان شيراعو مضطجعا على الارض يسمع الحديث ، فلما انتهت منه نيفرت ووردة نظر الى هذه الاخيرة بعين العطف ثم تسلل الى خارج الصيوان دون ان يشعر به احد .

كانت الساعات تنقضي ، ووردة مطرقة الى الارض برأسها كأنها تمثال الخشوع والحياء ، ونيفرت ومينا صامتين جالسين أحدهما الى جانب الاخرى يفكران فيمن التهمتهم النار . وكان السكون سائدا فى السرادق فلم يسمع أحد به حسا ولا جرسا . ولم يكن فى هذا المنظر الذى يقبض الصدور ويمحى آية السرور ما يستفز الى العجب ، فان سحب الهموم أوشكت ان تكدر صفاء الزوجين فالتزما جانب السكون الذي لولا ماتخلله من صوت الابواق ودق الطبول لخيل لناظرهما انهما فى بطن الصحراء . وكانت هذه الاصوات التى ترددها الآفاق منبعثة من مكان استقبال الامراء الاسيويين فى السرادق الكبير الذى أعد لرعمسيس . وكان هؤلاء الامراء مقبلين ساعتئذ على مكان انعقاد الجلسات وقتما كان ملك الدنائم خارجا منه بعد أن استأذن فرعون فى الانصراف ليذهب فى حاشيته الى قاعة الطعام ، فتأمل فيما كان من

احتفاء رعمسيس به واعادته اليه ماسلبه من القابه ! كراما لنيفرت وجزاء لها على اخلاصها الولاء لزوجها . فأخذ يصافحها كمن يترجم بهذه الاشارات عما يخالجه من الشكر والامتنان .

وبينا هو فى هذه الهواجس اذا بجلبة وضجيج، فالتفت مينا نحو مدخل السرادق فاذا بضابط جاء ليخبره بقدوم ملك الدنائم وكريمته ، تحرسهما شرذمة من الجند الملكي ، فأمر مينا بفتح ابواب السرادق وتقدم مع نيفرت لاستقبال الزائرين الكريمين اللذين لم تكن زيارتهما فى الحسبان ، بينا كانت وردة تتراجع الى الخلف تتلمس ركنا لا يراها فيه أحد . وكان ملك الدنائم رجلا دب دبيب الشيب في لحيته ورأسه ولاحت أسارير وجهه ولم تذهب بشيء من نضرة محياه وجمال ملامحه ، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان فتخطفان الابصار . وكانت ابنته تسير الى جانبه بخطوات لاتباريها فى الاستقامة والاتساق الا التى تنظمها نقرات الآلات الموسيقية . وكانت ممنطقة بنطاق من المسجد المصفى حول حلة ناصعة البياض أفرغت على قدها السمهري ، وشعورها مرسلة الى الكتفين كما كانت مكللة الجبين بأكليل متقن الصياغة ، باسمة الثغر مستجمعة من محاسن الجمال ما يستهوى القلب ويأخذ باللب . وكان معهما مترجم لترجمة مايدور من الحديث بينهما ومينا وقرينته ، ورجلان وامرأتان يحملون الهدايا النفيسة برسمهما .

وقد بدأ الملك حديثه مع مينا منوّها بكرم محتده وطيب عنصره وعزة نفسه وصدق شهامته ثم قال : لقد اتيتنا بدليل جديد على ان

ابناء الدولة المصرية صاحبة الشوكة والاقتدار يعرفون الامانة والاعتدال ويأتون المعروف والجميل ، غير انى اعترف لك بانك قد زدت فى نظرى قدراً حين رأيت ان قرينتك لا تعدلها ابنتى حسنا وجمالا . قالت نيفرت وقد احمر وجهها حياء : ان حسن ظنك بى هو الذى وهبنى نعمة الجمال الذى رأيت انه يفوق جمال بنت انات ، وما هو فى الحقيقة إلا دونه . وانى على كل حال التمس منها ومن مكارمك الصفح الجميل . فتقدمت براكسيلا ابنة ملك الدنائم نحو نيفرت وعرضت عليها ما جاءت به من الهدايا النفيسة وهي اكليل مرصع بالاحجار الكريمة ومشابك ذهب وعقود لؤلؤ ، وقدم الملك الى مينا درعاً دقيق الصنع ودرقة من الفضة جميلة النقوش ثم دخل الجميع السرادق لتناول الخبز والنبيذ كالعادة المصرية بين الضيف والضائف .

وبينا مينا فى حديث الملك كانت براكسيلا تقص على نيفرت حديث آلامها وتشرح لها ما لقيته فى الاسر ، وكيف تنازل مينا لما وقف على حقيقة أمرها عن حصته فى الغنيمة وأكرم مثواها فى سرادقه ، وأن أحد الرؤساء أراد ان يخص نفسه بها . ثم افاضت فى شرح حسن معاملته لها وايثاره إياها بعنايته ورعايته . وكانت متهدجة الصوت لشدة ماعراها من التأثر ، حتى اشفق مترجم أقوالها وعطف عليها ولا سيما حين قالت : وقد اصيب خطيبي بجرح بالغ فاخذ من ميدان القتال محمولا على الاعناق ، وقد منّ الله عليه بالشفاء وهو الآن بالانتظار حتى اذا عدت الى مسقط رأسى ارتبطنا بعروة الزواج التى

لا انفصام لها .

وسمع الملك هذه الكلمات فقال : يا حبذا لو أسبغت الآلهة علينا هذه النعمة فان براكسيلا آخر سلالتنا وعليها نعتمد فى استبقاء ذريتنا وتخليد ذكرانا . فقد فقدت فى الحرب الاخيرة ابنائى الاربعة الذين كانوا في مقتبل العمر وصهرى الذى كان ابنه لا يزال طفلا رضيعا وسقطت زوجتى سبية بأيدى المصريين منذ سنوات ، ولم يبق لى سوى براكسيلا التى هي أملى للمستقبل وعزائى للحاضر . وفيما هو ماض فى حديثه انساب طفل صغير راكضا فى السرادق يصيح بملء فيه : هاهو . . هاهو . . لقد عثرت عليه .

وكانت وردة خلف ستر مسدول بينهما الملك وابنته من جانب ومينا وقرينته من الجانب الآخر ، فسمعت مادار من الحديث وأحست فى نفسها جذبات تجذبها نحو ملك الدنائم وبراكسيلا التى كانت لا تنفك عن النظر اليها والاعجاب بجمالها . وبث هذه العواطف فيها اعتقادها أن والدتها ربما كانت من أفراد اسرة الملك فتقدمت اليه بقلب يخفق وديباجة عليها علائم الحياء وعرضت عليه الخاتم فما كاد بصره يقع على وردة حتى أخذته رجفة وتراجع الى الخلف باسطا اليها ذراعيه ، وصار اشبه ما يكون بامرىء يتنازعه عاملان ، الحنان والذعر . فبينما تحمله الجذبات القلبية على التماس من يوليه الحنان ليضمه الى صدره كان يتراجع الى الخلف تأثراً بروعة منظره أو يأسا من لقائه ، فعدّ مؤاتاة الزمان بتحقيق أمانيه المستحيلة من خوارق العادات أو الآيات

الباهرات . وما وسعه وقتئذ الا أن صاح : يا كزانت ! يا كزانت ! أهبطت ثانيا من السموات العلى للبحث عنى والقرب منى ؟ وكانت براكسيلا تنظر الى والدها بعين يخامرها القلق ، اذ ظنت انه أصيب بجنة أو نزل به مكروه فصرخت صرخة عالية ونزعت عقدها الثمين من جيدها ، ثم ترامت على وردة فخطفت من يدها الفص المكسور قائلة : ان معى نصفه الآخر ، ولقد كان لشقيقتى كزانت السيئه الحظ.

ان قلم البليغ ليعجز عن وصف ما ألم بالملك من الدهشة والذهول حين طرقت مسامعه هـذه الالفاظ ، وما عالجه من الجهد للتظاهر بالسكون والاطمئنان ، وما أحسه من الجذبات الغريزية نحو وردة حباً لها وعطفا عليها . ثم قارن بين شطري العقد اللذين كانت وردة متحلية الجيد باحدهما وبراكسيلا بالآخر فأرعد دهشا وخولط ذهولا ، وقارن بين نصفي الفص فبان له انهما يكملان بعضهما وانهما يمثلان جناح نسر متصلا بقطعة أشبه ما يكون بنصف الشكل البيضي نقشت عليه حروف ورموز يجهلها المصريون ، وان موضع التحام النصفين يكون فى حالة اتصالهما شكل النسر الملكي ناشرا ذراعيه ومكتوبا على صدره بأحرف يونانية هذا الكلام الذى يكاد يكون من الاحاجى والمعميات « ليس نصف الواحد حليا ولكن اذا ضم الى نصفه الثانى توافرت فيه مسرات زفس » .

وقد تأمل الملك قليلا فى ذلك الفص الذى كان صنعه برسم قرينته وهي شقيقته التى كان وإياها توأمين وتوفيت فى نضارة الشباب وإبان

العمر فأعطي نصف عقدها براكسيلا عملا بوصيتها قبل وفاتها والنصف الثانى لابنته كزانت ، يوم عرسها . وقد كفاه الوقوف على حقيقة العقد مؤونة البحث فيما اذا كانت الفتاة من سلالته ، فضمها الى صدره فلم تجفل منه وردة خوفا أو استنكارا بل تركت نفسها اليه اذ أحست كأن الدم الذى يجرى فى عروقها يسرى أيضا فى عروقه . وبعد هنيهة أشار الملك الى المترجم ، فوقف أمامهما ليكون واسطة التفاهم بينهما فسألها أولا عن والدتها ، فأجابت بما لم يبق معه أثر للشك فى انها كانت من السبايا اللائى أخذن الى طيبة ثم اشتراها جندي مصري أحبها حبا جما وأولدها هذه الفتاة الفتانة ، فلم يسعه الا أن عانقها مرة اخرى ودعاها : ابنتى ! ولدى ! فلذة كبدى ! وعهد الى براكسيلا العناية بها والقيام على شؤونها ثم أخذ يسرد الحوادث المحزنة التى تلت وقوع ابنته فى أسر المصريين وكيف انه قضى زمنا طويلا فى البحث عنها ووعد بالمكافأة من يأتيه باخبارها أو يرشده اليها ، وأنه كان اذا سأل المصريين عما اذا كانت ابنته خرساء أجاب نفيا لانه لم يكن يدور بخلده ، وقد انقضي على سبيها نحو العشرين عاما ، أن تحرمها المخاوف والآلام والشدائد نعمة النطق ، وانه لو كان يعلم ما آل اليه أمرها لما انقضت تلك السنوات الطويلة دون أن يلتقى بها .

وكان وجه الملك يفيض ابتهاجا وسرورا . فظلت وردة تنظر اليه وتستثبته ويدها فى قبضة براكسيلا ، الا انها التفتت بعد الى المترجم وسألته أن يترجم لها بلغة الملك « أنا سعيدة جداً » فلما أجاب نظرت

اليه باسمة الثغر ونطقت الجملة بلغته ثم سألته أيضاً عن ترجمة «ان وردة تحبك من صميم فؤادها» فلما اوقفها عليها فاهت بها صحيحة اللهجة كما لو نشأت على التكلم بلغة الملك الذى لم يسمعه الا أن ضمها الى صدره مرة اخرى . وكانت نيفرت فى أثناء ذلك تذرف الدموع ارتياحا لهذا المنظر العجيب والاتفاق الغريب . فلما التفتت وردة اليها وجهت نحوها وجهها وقالت لها : ان الأوزة المتروكة أدركت بقية الأوز والورقة التى كانت تتلاعب بها الرياح وتتقاذفها الامواج قد عادت الى غصنها من شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . فلتسعد من كانت وحيدة فريدة بما منّ الله عليها من نعمة الاجتماع بآلها بعد اليأس من اللقاء .

وقضى القوم بعد ذلك ساعة يتجاذبون أطراف الحديث . وكانت ساعة هناء لا يشوبها كدر فأمر ملك الدنائم جماعته بالعودة ، الا ان مينا رجا منه الانتظار ريثما يطلع فرعون على ما شهد من الحوادث ، لا سيما وأن وردة أصبحت عداد غاشية بنت انات التى عهدت الى نيفرت العناية بشؤونها والقيام على مصالحها ، ولم تأذن بتسليمها الى أحد الا باذن منها . وكان رعمسيس على مائدة الطعام فلما رفع مينا اليه حقيقة حالها وأيقن منها انها حفيدة ذلك الملك قام من فوره للاجتماع به . ثم التفت الى راميرى وقال له : عليك باصلاح مافرط من هفواتك بالاقتران بوردة فتربطنا بجدها لحمة النسب وآصرة القرابة . فسكت راميرى ثم بادر بلثم يد ابيه وبدت على وجهه لوائح الابتهاج والسرور ورأى رعمسيس ذلك فقال له : يبدو لى من حالك أنك سبقتنا الى تحقيق

قصدنا ودبرت التدابير لذلك دون علمنا .

وظل القوم سائرين مهلا حتى بلغوا الى سرادق مينا حيث كان ملك الدنائم وابنته وحشمه وغاشيته بالباب . فتقدم رعمسيس لمصافحته فلم يكن من الملك الا أن جثا على ركبتيه فى الوضع الذى كان يرى ان فيه صغارا له يوم دعاه رعمسيس اليه فأبى ثم قال : لا تجعلنى عداد الملوك ولا تحسبنى من الابطال ، بل والداً حنونا واباً رحيما يلتمس الصفح منك ويستمنحك الصلح ويستأذنك فى أخذ هذه الفتاة حفيدته الى بلاده . فما بلغت هذه الكلمات سمع رعمسيس حتى هرول نحو الملك فانهضه وصافحه وقال له بلطف : لا ابلغك الا النصف من هذه الامانى فأنه لا أشهى الى نفسى بصفتى صاحب هذه الديار من ابرام الصلح معك على وجه ثابت جلي ، وبصفتى رب أسرة لا أرى فى أمر حفيدتك وردة الا ما تراه ابنتى بنت انات التى تخذتها خليلة لها تلازمها آناء الليل وأطراف النهار ، ويراه كذلك راميرى الذى أسرته فى احدى الوقائع ، وما نراه جميعاً وهو اقتران ولدى هذا بها . قالت بنت انات : لقد سقط حقى على وردة فى سبيل الامنية التى يتطلع راميرى لتحقيقها . ثم سألت وردة : أيتها الفتاة أترضين بأخى بعلا لك ؟ .

فأحنت وردة رأسها علامة الرضى والقبول . ثم التفتت الى جدها وحدقت فيه بعينين أعربتا عما يكنه ضميرها . فقال جدها لراميرى : انى أعرفك أيها الفتى الشجاع ، لانك شققت صفوف جيشى ونفذت فيها حتى صرت وإياى وجهاً لوجه فضربك أحدهم بالسيف فهويت من

مركبتك الى الارض . وقد رأيت منك تهوراً فى البسالة والاقدام ، وهو عيب الزمان وحده كفيل باصلاحه . وأما أنت أيها المولى الكريم والفرعون العظيم فسأرفع اليك فكرى حتى لا تخفى خافية عليك من أمرى . لست أعارض فى اقتران الفتى بالفتاة ، لأنى ارجو أن يكون من وراء هذا القران دوام الصفاء والاتحاد وزوال الاحقاد والاضغان . غير أنى أستمحيك الاذن بأخذها الى بلادى وابقائها فيها عاماً واحدا لأشنف أذنى بسماع اللغة التى كانت والدتها تتكلم بها . وأرى ان هذا الالتماس لن يجد منكم اعراضا ، لا سيما والوقت الملائم للاقتران لم يحن بعد ، اذا راعينا الطقوس المتبعة فى بلادنا حيث الفتيان والفتيات يبلغون الحلم متأخرين بالقياس على ما تقتضيه نواميس الطبيعة فى بلادكم . ولا يذهب عليكم ان وردة من سلالة ملكية ، وهي هنا لا دار تأوى اليها لان راميرى عثر عليها فى مساقط الفاقة ومهاوى الشقاء . والاولى أن يتم الزواج فى بلادنا اذ فى وقوعه هنا ما يدعو راميرى الى ان يتخيلها فتاة وضيعة انتشلها من وهدة الفقر ليرفعها الى ذروة السؤدد والمجد .

قال فرعون : ما تقوله حق وعدل فخذ حفيدتك مع العلم بأنها ابنتى وخطيبة ولدى . ثم أخذ بيد وردة وقال لها : اعلمى يا وردة ان الاجل المضروب لزواجك سيعلمك كيف يكون الصبر ويجعل راميرى كفؤاً لك بما يكسبه فى هذه المدة من التجربة والخبرة . وأعلم يا راميرى انه بعد عام ستصل الى بيلوز سفينة فينيقية تقلك الى بلاد خطيبتك حيث تقام الحفلات احتفاء بزواجكما واكباراً لمقامكما . قال ملك

الدنائم : ليكن ذلك ، وانى أقسم بزفس وهو قسم عظيم إن احنت فيه أمت شر ميتة انى رضيت بابنة كريمتى كزانت قرينة لراميرى .

وما عاد راميرى الى سرادق اخوته حتى عانقهم واحداً واحداً سروراً بالاقتران بوردة وبتحقيق أمنية من أعظم الامانى التى تردد بها خاطره فى حياته الماضية باعتبار انه فتى في مقتبل العمر ينفعل قلبه بعوامل العشق . ثم أخذ يمازح قيم القصر الملكى ، وهو رجل قوست الشيخوخة ظهره . وتطرف فى المزح لشدة تأثير السرور فى نفسه فانتزع من رأسه الشعر المستعار ورمى به فى الفضاء . ولكنه استشعر غلطته وشططه فى الهزل فأعاد اليه الشعر وأظهر له أمارات الود والحب بما أزاح الضغن والبغضاء من القلب .

الفصل الحادى والعشرون

موت رجل من أهل الشكوك وموت والدة حميدة السلوك

صحبت وردة جدها وخالتها براكسيلا الى السرادقات المعدة لهم بالضفة الاخرى من فرع النيل ، على أن يعودوا فى اليوم التالى الى المعسكر المصرى . ولم تنس ما وصتها به نيخت قبيل وفاتها بساعات معدودة فأطلعت عليه بنت أنات . والتمست هذه من أبيها ، وقد ثبت لها بالدليل المقنع بل بالحقيقة المحسوسة الملموسه ما كان للخدمات الجليلة التى أدتها للأسرة المالكة من الاثر النافع ، أن يحنط جثتها كما تحنط جثث نساء الاشراف فأجابها الى طلبها . ولما همت وردة بمزايلة المكان دنا بنطاؤر منها وسألها أن تحقق لنبسشت الذى أنقذها من غائلة الموت ، وهو الآن على آخر رمق من الحياة ، ما يتمناه من مشاهدتها ، فاحمر وجه وردة خجلا وأجابت الطلب قائلة انها تعد نفسها سعيدة اذا أمكنها أن تخفف عنه وطأة الآلام . فانطلق بنطاؤر ليبشر الطبيب بتحقيق امنيته ، وكان قد قضى عنده طول ليله للعناية به .

أما سبب اشراف نبسشت على الموت فهو انه أصيب بحمى شديدة من جراء الحروق البالغة التى انتابت رأسه . وقد تورم بتأثيرها خداه وانتفخت أوداجه ، وحار الاطباء فى علاجه لانهم لم يهتدوا الى سبيل فى شفائه ويئسوا من انقاذه . وابلغوا الى صديقه الشاعر انه لم يبق بينه

والموت سوى ساعات معدودة فوضع بنطاؤر كفه على جبهة صديقه ليتحسس الحرارة فألفاها شديدة ، ولكنه أخذ يشجعه بعبارات الامل فتبسم نبسشت تبسم الموقن بدنو أجله وقال بصوت خافت ، وهو يشير باصبعه الى رأسه وقلبه : ليس لى سوى أنفاس معدودة لاحصل على الراحة فى هذا العالم والعالم الثاني . قال بنطاؤر : انا نسير بخطوات واحدة ونطمح الى مثل أعلى جعلناه موضع أمانينا الا وهو الراحة . فهل يبعد أن يكون هذا السير الباعث الوحيد على عمل الانسان ونشاطه في هذه الحياة ؟ واذ كان الآلهة يطوقون بالنعم أعناق العاملين المجدين ، فلا ريب فى أنك ستنال اسنى العطايا واجزل الهبات جزاء عملك المتواصل وهمتك التى لا تنى فى البحث عن الحقيقة . وإذا كان عقل بشري اندمج فى روح هذا الكون وغاص بحار العلوم لاستطلاع أسرارها ، فانما هو عقلك أيها الصديق الحميم . وإذا كان للعينين أن تبصرا الربوبية الصحيحة من خلال السجوف الكثيفة الحائلة بيننا وسر وجودها فما هما الا عيناك ، وهما أولى العيون وأحقها بهذا الامتياز الجليل .

قال نبسشت متنهداً : طالما نقبت عن هذه الحقيقة وكابدت فى سبيلها المصاعب واحتملت الضيم ، فلما كشفت النقاب عن جانب منها مدّ الموت اليّ يده الباردة الثقيلة ليغمض بها عينيّ . ولست بعد هذا أرى من فائدة فى شهود الألوهية ولا في مشاطرتها الاحاطة بعلم الحقائق اللدنية والوقوف على الاسرار الكونية . لأن من وراء

البحث عن هذه الحقائق والاسرار لذة لا تعدلها لذة شهودها بأعيانها أو الاحاطة اتفاقا بعلم ما لم يعلم من أطرافها . لهـذا كنت ترانى أوثر أن تتجدد حياتى فى هذه الدنيا على الخلود فى الاخرى ، ليتواصل تمتعى بلذة البحث وحلاوة الاستكشاف التى تجعل الباحث ازاء نتائج بحثه كالثمل سروراً وفرحاً .

قال هـذه الكلمات وسكت ، لان قواه كانت تتلاشى بسرعة غريبة . فلما رأى بنطاؤر ذلك رجا منه أن يهدىء روعه وأن يستحضر فى ذهنه ما قضاه فى الحياة من سويعات الفرح والمسرة . قال الطبيب : تلك سويعات ما كان أحلاها ، أذكر منهـا ساعة كانت تضمنى والدتى الى صـدرها وتملأ جيوبى بالتمر ، وساعة خلوتى تفرغاً للعمل والتأمل والمشاهدة ، وساعة كنت أسرح الطرف فى أرجاء عالم غـير عالم المـادة والفناء ، وهو عالم الشعر الخالد والخيال . تلك الساعات لم أنسها ويا ليت مداها قد طال وما زال . قال بنطاؤر : أنسيت الساعات المديدة العديدة التى قضيتها فى علاج المرضى وتخفيف آلامهم ؟ طوبى لك وسلاما عليك ! فقد عشت ما عشت بيننا لم تمتد يدك بأذى لاحد من العباد ، بل الـكل يذكرون فضلك ويترنمون بذكرك من حاضر وباد . فهزّ نبسشت رأسه وقال بصوت خافت : ألم أكن سبب جنون المحنط بينم وموته ! . .

ثم لبث تائهاً فى بيداء الفكر والتأمل زمناً لمعت بعده عيناه وقال : ما قصدت هذا الشيخ بسوء قط وما كانت سريرتى بناقة عليـه ، بل

كنت ارمى الى غاية محمودة وغرض شريف . ولكن الضرر الذى أدركه أثمر من المزايا والفوائد ما لم يكن فى وسعى ادراكه لولا القيام بأعمالى فى بلدة ماجدو وبلاد الشام . فقد توصلت بذلك الضرر الى استكناه حقيقة العضو الذي يسدى الانسان نعمة الحياة العقلية ، وهو القلب . إذن ما هو القلب . ان لقلب الانسان وقلب الكبش وظائف متشابهة ، فكما أن الاول يزيد منه الخفقان بمؤثرات الخوف والاطمئنان ، كذلك الثانى يزداد منه الضربان متى أثر فيه هذان المؤثران . وسببه أن الحيوان كالانسان فى الشعور بالمؤثرات الطارئة من خوف وغير خوف . وغاية ما هنالك من الفرق أن الانسان خص بمزية العقل الذى يقدر بواسطته على مقارنة الاشياء بعضها ببعض والحكم عليها واستنتاج النتائج موافقة لما ترمي اليه مقدماتها ، والاعراب عن الضمير ، وابداء الآراء بالكلم المنطوقة ، الى غير هذا مما يدل على ان مركز العقل الذى هو الروح والحياة الحقيقية هنا ، بداخل الرأس خلف الجبهة .

ما كاد يصل الى هذا الحد من الكلام حتى استمكن منه الوهن فلزم الصمت وخيل للشاعر بنطاؤر أن هذيه فى هذه الساعة الحرجة والموقف الخطير نتيجة حمي أصابته ، فبادر بأعطائه شرابا ملطفا بينما كان الطبيبان اللذان يعالجانه يطوفان حوله داعيين له . وما استقر الشراب فى جوفه حتى انتعش وحاول النهوض من مضجعه ، فاغتنم بنطاؤر هذه الفرصة وسأله : ألا ترى أن أحسن تذكار علق بذهنك فى حياتك مرأى تلك الفتاة الفتانة التى أنقذتها من الموت وضحيت فى

سبيلها حياتك . . تلك الفتاة الجميلة التى ذكرت لى ان مرآها الجميل أيقظ فى نفسك الشعور بحب الجمال والميل الى الكمال ؛ تلك الغادة التى تستعبد القلوب والمهج قد اهتدت الى أهلها ، وهي بلقائهم الآن مغتبطة . ولكنها لا تفتأ تذكرك وتشكر لك صنيعك معها ، وقد آلت على نفسها أن لا تبرح هذه البلاد قبل أن تراك .

فتردد المريض هنيهة ثم قال ببطء : لم لا أراها ؟ عجل يا صديقى باحضارها ولكن لا تدعها تدنو منى ، فانى أريد أن أراها من بعيد . فخرج بنطاؤر ، ثم عاد ثانيا ومعه وردة التى وقفت بباب الخيمة وخداها كجذوتي نار وعيناها مغرورقتان بالدموع . فأجال نبسشت فيها النظر ساكتا باهتا ثم قال : اشكر لك يا وردة تفضلك بزيارتى وأرجو من الله أن يسبغ عليك ثوب السعادة والهناءة .

لم تتمالك وردة عندئذ أن تقدمت قليلا نحوه ، ولكنه أشار اليها بالتراجع مظهراً لها يده الدامية وقد أحيطت بالاضمدة ثم قال : الزمى مكانك ولا تقربى منى . . ماذا جرى لك . . أتبكين . . ولم هذه الدموع الغزيرة . . أترفقين بحالى وتتوجعين لآلامى ؟ . قالت وردة : انى ارثى لحالك وأتوجع لمصابك أيها الرجل الطيب الكريم . . ابكى لأننى أشعر بآلامك ، أنت يا من انقذ حياتى من الموت مرتين . وكان الطبيب قد أطبق جفنيه وهي تتكلم ، فلما أمسكت عن الكلام فتح عينيه وأمعن فيها النظر ، شبه المعجب بجمالها الباهر . . قال لها بصوت خافت : كفانى منك هذه النظرات قبل الممات ، يا من تحلت

نفسها بأطهر الصفات ! .

فانصرفت وردة وأخذ بنطاؤر يرقب حركات صدر صديقه ويقيس قوة تنفسه ، وانه لكذلك اذا بالمريض هبّ من رقدته وقال لبنطاؤر : استودعك الله يا صديقى . . انى لراحل ، وليس من يدرى أين أرحل . قال بنطاؤر : أنت لا ترحل ابدا الى فضاء العدم . فهزّ نبسشت رأسه وقال : كنت فى الدنيا شيئاً فأصبحت ومصيري حتما الى شيء ، لان مالا شيء لا يحدث عن شيء ، والعدم لا ينشأ عن الوجود . ان الطبيعة قائمة على التدبير والحكمة فهى لا تدع شيئاً يذهب عفاء وفناء ، بل هى تنتفع بالقتيل والقطمير كما تنتفع بالشيء الكبير ، وستنتفع من جثتى بقدر حاجتها منه وتسير على قواعد ثابتة وأقيسة مبينة فى ايصال كل شيء الى الغرض المرسوم له دنيا او أخرى ، ينتهى شيء ولا يضيع شيء بل لا بد لكل شيء ان ينتج شيئاً أو يستحيل الى شيء مطابق لما قدر له أن يصير اليه . ولا دخل فى ذلك كله لارادة البشر . . آه لقد ضاع رأسى وضل عقلى . . منذ أصبت بتلك الجراح الموجعة لا أستطيع التفكير ولا الملاحظة ولا القياس ، فياليت لى قدرة على اثبات النظريات العلمية أو استنباط القواعد الفنية أو الغوص على الحقائق الخفية ولكن هيـ . . هات . . هيـ . . هات . . .

هنا تلجلج لسان المسكين وتعاجم عليه النطق ، وكان صوته بعد صلصلة حلقه به يترامى الى الخفوت ، وانفاسه بعد شدتها تشرف على الضعف والضيق ، واعضاؤ تتشنج وحشرجة الصدر يعلو زفيرها ، ثم لم

تكن الادقائق معدودة حتى فارق الحياة ، فأغمض بنطاؤر جفنيه . وفيما هو خارج من الخيمة اذا بأمينى مقبلا عليها معتقداً انه سيلتقي به فيها لما يعلمه من استحكام عرى المودة بينهما ، فعاد بنطاؤر معه اليها . ولما شهد الكاهن الاعظم الطبيب مطروحا على الارض جثة خامدة هامدة اشتد حزنه وأسفه لفقده ، وبعد أن صلى عليه أشار الى بنطاؤر أن يتبعه . وفى الطريق حادثه فى أمور أراد ان يهيئه بها لاحتمال مباغتة لم تكن لتخطر بباله .

وكان قضاة مدينة طيبة حكموا بالنفي على ستخم أم بعاكر الخائن (١) ولكنهم أجازوا لها مقابلة رعمسيس بحراسة شرذمة من الجند لتلتمس منه العفو ، فتظاهرت ستخم بالصبر على ما أصابها بخيانة ولدها ، ثم أعدت معدات السفر لتلتمس العفو عن ابنها قبل ان تلتمسه لنفسها . وكان الحكم عليها صدر فى غيبة الكاهن الاعظم ، فلم ير فائدة لكتمان السر الذى سارت نيخت به الوالى آنى وسمعه من وراء حجاب . أما ستخم فكابدت فى سفرها من المشاق والاهوال مالا يطيقه الاحتمال كجنوح سفينتها ، فلم تصل الى بيلوز لهذا السبب الا بعد حدوث الحريق المعلوم وكانت شعبة النيل الموصلة الى هذه المدينة غاصة بسفن الملك والامراء والسفراء والتجار والاعيان وافدين من جميع الانحاء . فوقفت سفينة

---

(١) فى الجزء الثالث من تاريخ ديودورس الصقلى ان من العادات المتبعة فى مصر سابقا الحكم على أهل الخائن وأعضاء اسرته بالاشغال الشاقة فى المناجم ولو لم يشتركوا معه فى اثمه . وفى احدى المعاهدات المبرمة بين رعمسيس والملك أرشيتا شرط مؤداه أن المتشرد الذى يؤتى به الى مصر لا تطبق عليه عقوبة ولا يلحق ببيته ولا بوالدته ولا بأولاده أذى ولا يحكم بالموت على والدته

ستخم بعيداً عنها ، وبينما كان نبسشت يلفظ النفس الاخير تمكنت ستخم بعد العناء من لقاء الكاهن الاعظم ومكاشفته بسبب حضورها من طيبة .

وكانت سحنة ستخم قد تغيرت معالمها الى حد أن انكرها من كانوا يعرفونها ، لأن نكبات الزمان وتصاريف الحدثان أذوت غصن شبابها الانضر وأيبست عودها الاخضر وجعلتها في نقيض ماشتهرت به أيام عزها السابق ومجدها الرفيع السامق . فانه بعد أن كان لسانها ينطلق بالمطايبة والملاحظة تارة وطورا بتمحيض النصح أو اعطاء الرأى ، أصبح فى سجن بابه شفتان متلاحمتان لا تنفتحان أبدا الا اذا أزفت ساعة الصلاة ، فيتلعثم ببعض كلمات تطلب فيها المغفرة لولدها بعاكر . وكانت على يقين من ان ولدها هذا سلك مسلك اللئام وارتكب الآثام الغلاظ ، وانه غير أهل للشفقة من الملك ولا من الامة والوطن . ولكنها بما جبلت عليه من الرحمة كانت تعمل جهدها لدفع معرة الخيانة عنه واستصدار العفو له ، فكانت تواصل الليل بالنهار فى الشخوص بعينيها فى مقره ، ساكبة عليه عبراتها الغزيرة .

وقد رأت ستخم وهى على ظهر سفينتها ضوء النار المضطرمة فى قصر الملك ووصل الى أذنيها صياح الجماهير وجلبة الجند والاحراس ، فأخبرها من كانوا على مقربة منها بأن قصر الوالى آنى التهمته النار واستحال الى رماد ، وان الملك رعمسيس على وشك الهلاك ، وأن بعض الخونة اللئام اضرموها نكاية فيه وذريعة لانتزاع صولجان الحكم من

يده . فلما كان الفجر تواردت الاخبار ببيان الحوادث فطرق سمعها اسما ابنها بعاكر وأختها راتوتى، فلم تفه بكلمة واحدة ولم تسأل سؤالا، بل صمت أذنيها عن سماع بقية الحوادث اكتفاء بما وقفت عليه منها وتأكدت لها مطابقته لما كانت تنبأت به وأنذرت بوقوعه لما أعرض عنها وأبى العمل بنصائحها والاعتبار بمواعظها، مؤثرا الجموح فى ميادين البغي والايغال فى بيداء الوهم والمضي مع نزغات الشيطان على الوجه الذى أفضى به الى ارتكاب جنايته، ورمى بها من بعده فى مهاوى الحزن والخزي. وكانت اذا سمعت دعاء على الخائنين واستنزالا للعنات عليهم من الرائحين والغادين، دوت فى أذنيها أصداء الدعوات واللعنات واستشعرت بصداع فى الرأس وقشعريرة فى الجسم وتجمد فى الدم. وقد ظلت فى الغداة طريحة الفراش لا تفوه بكلمة ولا تبدى حركة كالمنزول بها، ولم تذق طعاما ولا شرابا. ويئس قيم بيتها مما آلت اليه حالها فجدّ فى البحث عن أمينى، وكان يومئذ فى حضرة الملك رعمسيس فلم يستطع الوصول اليه الا فى اليوم التالى لمحادثته فى أمرها. وما أن قابله فيه وأطلعه على الواقع حتى هدأ روعه ونفس من كربته وصحبه فى مركبته الى المرفأ، حيث كانت ترسو سفينة ستخم. وقد بادر بذلك ليهيء هذه المرأة المسكينة لما أراد أن يفجأها به من سر صلة بنطاؤر بها ومته اليها بحبل البنوة الصحيحة وتعريفها بحقيقة أمره، لتكمل لها السعادة وتنجو من المهواة التى اصبحت على وشك السقوط فيها من جراء ابنها خائن الملك والوطن. ولكن وصوله جاء بعد فوات الوقت

المناسب فان المرأة المسكينة أصابها خبل ، فلما سمعته يتكلم أخذت تحدق فيه بعينيها دون اصغاء الى ما يقول . وكل ما كان يبدر منها من حركة أو قول انها كانت تقطع عليه الكلام بسؤالها : هل فعل ذلك حقيقة ؟ هل هو على قيد الحياة؟ . . وظلت تكرر هاتين الجملتين من غير أن تفهم معنى لكلامه ، حتى يئس من تفهيمها مراده . ولكنه استطاع مع ذلك أن يقنعها بمرافقته الى سرادقه الخاص الذى وعدها بأن يقدم اليها ابنها فيه .

كان بنطاؤر كما ذكرنا صورة طبق الاصل لابيه الموهار . وكان كل اعتماد أمينى العارف بأحوال النفس وما يؤثر فيها من العوامل على هذه المشابهة الصادقة بين الموهار المتوفى وابنه الحقيقى ، لكي يردّها الى حظيرة العقل والصواب . فاستهل حديثه بأن سرد تاريخ استبدال بنطاؤر من بعاكر وهما فى الايام الاولى من عمرهما ، وما كان لنيخت الساحرة من الشأن فى هذا العمل . ثم استرسل في تمجيد عبقرية الشاعر ووصف محاسنه جسما وعقلا ونفسا ، وذكر ما يجمعه بالموهار من صادق التشابه والمماثلة . وكانت ترمقه كما لو كان الكلام الذى يفوه به غير موجه اليها ولا هى مقصودة به ، ولكنها قالت حين أتى على آخره : نعم نعم ، أنت تريد بكلامك ذلك الشاعر الذى ألقى الخطبة البليغة يوم الاحتفال بعيد الوادى . . انى أعرفه . . انى أعرفه . . ولكن أين بعاكر ؟ فتركها الكاهن الاعظم ليجيء اليها بنطاؤر ويواجهها به ، رجاء أن تهتدى الى الصواب بتعرفها عليه . فلما عاد لم يجدها لانها

كانت طلبت الى جاجابو أن يطلعها على جثة بعاكر فتميز الكاهن الاعظم غيظا ويئس من نجاحه فى سعيه . غير أنه دعا بنطاؤر الى اقتفاء أثره عسى أن يدركاها قبل ان تبلغ الى مكان الجثة .

وكانت جثة بعاكر ملقاة بخيمة أحد الجند ومغطاة الى ما دون الوجه بقطعة قماش . فلما وصلت ستخم اليها جثت على ركبتيها وأخذت تحدق النظر فيها . وفجأها أميني وهى فى هذا الوضع فصوّت باسمها فلم ترد عليه فأمسك بكتفها ثم أشار الى الجثة وقال : هذا الرجل الذى تنظرين اليه بلهف وحنان لم يكن ابنك بل ابن بستانى وضيع . أما ابنك الحقيقى وارث زوجك . . الابن الذى انطوت عليه جوانحك ثم هبط من بينها فهو بنطاؤر ، هـذا الذى جمع الآلهة فيه صفات ابيه الجثمانية وشيمه الغراء ، فواجب عليك أن تسدلى ستار العفو عن بعاكر وتمنحى بنطاؤر هذا الحنان الذى تولينه جسما لم يشتق من جسمك ، لان ابنك الحقيقي هو الشاعر البطل الذى أنقذ الملك من خطر الموت .

ما استقرت هذه العبارة فى أذن ستخم حتى انتصبت قائمة واخذت بيدي بنطاؤر وابتسمت فى وجهه وقالت : هو . . هو . . فليبارك فيه الآلهة . فلما همّ بنطاؤر بعناقها دفعته عنها بعنف ، ثم التفتت الى الجثة صائحة : بعاكر ! . . مسكين يا بعاكر ! فتأثر بنطاؤر من هذا المنظر وتولاه منه يأس فقال : والدتى ! والدتى ! أما آن لك أن تعرفى ابنك البار بك . فلما سمعت صوته أقبلت عليه ثانياً وأمعنت فيه النظر وقالت : هذا صوته . . هو هو بذاته . . ثم تطامنت الى صدره

وأحاطت بذراعيها عنقه ووضعت شفتيها على ثغره وقالت : ليبارك الآلهة فيك ياولدى . ولكنها ما كادت تتم هذه الكلمات حتى انساقت بجذبات خفية نحو جثة بعاكر واكثرت من البكاء والعويل ، كما لو انها جنت عليه . ثم القت بنفسها على هذه الجثة الخامدة الهامدة وقد خفت صوتها وسكن جسمها حتى لم تبد منه حركة وخيل لناظرها أنها سلبت نعمة الحياة لولا أنفاسا ضعيفة يتحشرج بها صدرها بين حين وحين . عندئذ نقلها الحاضرون الى السفينة وطرحوها على فراشها ، ثم قدموا اليها شيئاً من الطعام والشراب فألوت عنه وجهها وامسكت عن الكلام الا عن قولها بين وقت وآخر : ما أشقى حظك يا بعاكر . . مسكين يابعاكر . . وظل بنطاؤر ملازمالها ، وهي على هذه الحال ، حتى فارقت الحياة وهي تبغى اللقاء بهذا الابن الكاذب الغادر والبعد عن ابنها الصادق البطل الشاعر .

الفصل الثانى والعشرون

مسك الختام

قوّض العساكر الخيام وساروا في ظلال الاعلام يتقدمهم المليك الهمام ، حتى بلغوا الى طانيس المعروفة بمدينة رعمسيس . وكان سكانها اليهود الذين فك عنهم آنى جميع القيود ، وأعفاهم من دفع الضرائب والرسوم ليستميلهم اليه ويتخذهم آلة طوع يديه ، هم الذين سخرهم رعمسيس فى تشييد الحصون الصعبة المرام والقصور المتسقة النظام . وفى تلك البلدة أبرمت معاهدة الصلح والامان بين (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس وقدمت الى اعتاب فرعون منقوشة فى الواح فضة (١) .

أما بنطاؤر فقد اجتمع بالملك بعد أن أدى الفروض الواجبة عليه لوالدته ستخم ، اذ سار بجثتها الى عين شمس حيث عولجت بمواد التحنيط ثم قصد بها الى طيبة وقام على دفنها فى مدفن الاجداد ، وأظهر فى ذلك من فائق العناية وبالغ الاهتمام والرعاية مالا مطمح بعده لطامح . لان المصريين كانوا يرون ان من أقدس الواجبات عليهم أداء تلك الفرائض التى لا يجوز بدونها ان تسمو آمال الراغب فى التزوج الى

---

(١) مازالت معاهدة الصلح هذه منقوشة فى الجدار القبلى لهيكل الكرنك . وقد جاء فى السطر الرابع منها وصف اللوح الذى نقلت منه صورة المعاهدة والذى قدمه (تارتيزبو) سفير ملك الخيتاس ووزيره المفوض الي الملك رعمسيس . ويؤخذ من هذا الوصف ان اللوح كان مستطيل الشكل وكان يعلق بحلقة مثبتة باعلاه

الاقتران بمن يهواها . فلو ان بنطاؤر قصر فى العناية بحثة والدته لما استطاع أن ينال بغيته من الاقتران ببنت انات التى جمعت الى محاسنها الفتانة جميل الخصال وجليل الصفات .

عاد الشاعر الى طانيس ووافق يوم عودته الحادى والعشرين من شهر طيبى من السنة الحادية والعشرين من حكم رعمسيس . وهو اليوم الذى تم فيه التوقيع على معاهدة الصلح والامان ، الا أنه كان واجماً كثير الهموم ، لانه لما وصل الى طيبة وسأل عن البستانى ، الوالد الحقيقى لبعاكر ، علم أنه انتقل الى الدار الآخرة فحزن عليه . لان الرجل كان يحبه ويرى انه ممن توافرت فيهم صفات الكمال بل انه ملك من ملائكة السماء هبط منها رسولا للخير ورائدا للسعادة والهناءة .

وقد احتفل فى طيبة ، عقب عودة الملك رعمسيس اليها ، بزفاف بنت انات الى بنطاؤر احتفال باهر زاهر فى قصر الفراعنة العظام ، وطابق هذا الاحتفال ختام الشهر السابع من وقوع حادث الحريق ببيلوز . وكان ما لقيه العروسان من المصاعب الشديدة من البواعث على ارتباطهما بعروة الحب التى لا انفصام لها . وكانت بنت انات ، بالرغم من قوة بنطاؤر وعلو همته تحس انها اصبحت منبعثا لاشعة الامل ، وان ابتسامة ثغرها تدعو الى الاطمئنان ، وان كلمة واحدة منها تجبر القلوب الكسيرة وتسهل الامور العسيرة . ولكنهامع هذا كانت موقنة ان وجودها مع بنطاؤر هو الذى محا من صحيفة صدره سورة الحزن وشجعه على احتمال المصائب . وكان اغتباطهما بذلك مقترنا بعزة

الفخر بانها هي التى دخلت به فى طور حياة جديدة فكانت له كالشمس اذا اشرقت انبعثت أشعتها على ألوف الازهار فتتفتح أكمامها وتبتهج بازدهارها الانظار .

وكان الاثنان أيام اشتغالهما بمكافحة الصعوبات وتذليل العقبات ، وشعورهما بالآلام الشديدة التى أعقبت خيبة الآمال يظنان كل الظن ان لا تلاقيا . فلما اجتمعا وجاءت الامور بما يتجاوز المأمول ادركا قيمة ما بينهما من الحب المتبادل ، وان ما يرميان اليه من المثل العليا ينحصر فى الشرف والخير ، وان لا سعادة لهما فى الحياة الا بدركه والتحلى بحليته .

وكان بنطاؤر يطالع بنت انات بأسراره ويشركها فى الصعب من اعماله ، فتزداد روابط الحب بينهما وثوقا . وقد اسبغ رعمسيس عليه من النعم والهبات ما رفعه الى اسمى الدرجات فتنازل عن نصيبه فى الأرث لأخيه هوروس واتخذ الملك هذا الشاب المقدام موهاراً لجيشه جزاء ما ابداه من الاخلاص والبسالة يوم قادش . وكان مع عزة نفسه وكرم محتده عيوفا متواضعا ، ولهذا استعاض من جذوع الأرز العالية التى كان غرسها فى باحة القصر لرفع الاعلام اعجابا وكبرا بادقال قصيرة ناط باطرافها هذه الاعلام .

أما هونى المسكين الذى كان بنطاؤر انتحل اسمه للتمكن من الوصول الى سيناء ، فقد أعيد من المناجم بمساعيه المشكورة وعرفانه الجميل فانقلب الى اهله فرحا مسرورا بالتعطفات الملكية وفيوض المكارم العلية . ولم يلبث الملك أن تأكدت له فضائل بنطاؤر فأولاه من العطف

مالم يوله أحدا الا كريمته بنت انات التى ظلت مقربة من والدها ، حتى بعد ان اضطرته السياسة الى الاقتران بابنة الملك (شيتا) . ولكي يقيم له الدليل على ذلك الميل اتخذه مشيرا خاصا يستضيء بمشكاة آرائه فى عويصات المسائل ومعضلات المشاكل .

وقد عثروا فى صيوان آنى على وثائق ظهر منها بالدليل القاطع تواطؤه مع أمينى وأغلب الكهان ، فانتوى رعمسيس معاقبة هؤلاء الخونة عقابا يكون عبرة زاجرة وعظة خالدة فى الاعقاب . الا ان بنطاؤر وشاموس ألحا عليه أن يعدل عن الانتقام قائلين انه لا يليق بمقام الكرام ، وان بالعفو والاحسان يستقيم الملك وتتوطد منه الاركان . وكان رعمسيس أشد الناس تعلقا بالدين وتمسكا بسببه المتين ، لاعتقاده ان الايمان تعزية الفقراء والمساكين وسلوان المظلومين والمنكوبين وركن البائسين ، بل انه الحافظ الامين للحياة البشرية والحامي لسعادة الشعوب والباعث فى الوجود البشرى ذلك الوجدان الذى يسيل الخير منه على جوانب الحياة فيخفف اعباءها ويصرف ضراءها ، وانه من هذه الوجهة أشبه ما يكون بالمدرسة التى يتعلم فيها الاطفال فروض الامتثال . ولكنه اجتنب مع الكهان ما يفضى بهم الى احتقار القوانين المسنونة لتدبير شؤون الامة ، لانهم وان يكونوا الامناء على أرواح العباد فليس فى وسعهم على جلال قدرهم وارتفاع منزلتهم وخطورة مهمتهم أن يعارضوا الارادة الملكية بالانحراف عن جادة القواعد الموضوعة لتصريف أمور الجمهور .

ولقد قال لامينى والكهان الذين التقوا به فى طانيس انه لا يتنازل عن شيء من حقوقه ، وان له وحده حق التصرف فى شؤون مصر بلا منازع ولا شريك .

ولم يكن للاله سيتى صاحب المكانة العليا عند الساميين منذ عهد الهكسوس ، اذ كانوا يعبدونه باسم الاله (بعل) ، هيكل مشيدا على ضفاف النيل . فقد كان المصريون يعتبرونه من المعبودات الاجنبية التى لا يقام لها عندهم وزن ، فأمر رعمسيس بانشاء هيكل فخم له فى طانيس ليتعبده فيه المهاجرون الاجانب . وكان انشاؤه بالرغم من احتجاج الكهان على الملك باسم الدفاع عن التقاليد القديمة . وكان الحزب الذى تألف من هؤلاء المعارضين يسمي بحزب (المؤمنين الصادقين) . وكان رعمسيس حريصاً على شرف آلهة الوطن بدليل مابذله من المال فى رفع بيوت العبادة ، الا انه كان مفطوراً على التسامح والتساهل فى أمور الدين ، وهو شأن كل مليك عاقل يريد أن يؤلف حوله القلوب . ولم يشأ ان يعارض المذاهب والاديان الاخرى فلم يدع مدينة كبيرة فى انحاء المملكة الا وأقام فيها الهياكل الجديدة ، ثم وسع هيكل فتاح فى منفيس وشاد تمثالين جسيمين أمام مدخله تخليداً لذكرى نجاته من المكيدة التى دبرت له ليلة الحريق ، وأنشأ فى مقبرة طيبة بناية وطيدة الاركان تخليداً لذكرى الساعة التى نجا فيها . ولا يزال السياح يعجبون بها ويبهتهم ما يرونه من حسن نظامها وجمال تنسيقها . وقد نقش فى أعمدتها بالكلمات البارزة ما يتضمن شرح واقعة قادش كما نقش فى جدران قاعة

الطعام بها تاريخ الخطر الذى انقذته منه أيدى الآلهة .

وكان بنطاؤر قد نقح القصيدة التى نظمها وألقاها ارتجالا على مسامع رعمسيس فى ليلة الوليمة ببيلوز ،فأمر بنقشها فى جدران ثلاثة هياكل وتدوينها فى كثير من أوراق البردى ، وبذا تمكن علماء الآثار من استكمال أبياتها . ولم يبق كبير ولا صغير من الاهالى الا وحفظها عن ظهر قلب للتغنى بها كنشيد وطنى فى المناسبات الحماسية .

وعهد الملك الى بنطاؤر بعد ذلك انشاء مدرسة جديدة للكهان من طراز مدرسة بيت سيتى وهيكل آخر سمي بيت رعمسيس ، وهو الذى نذر بناءه من قبل فوفى بالنذر . ثم قرر اصلاح الهيئة الكهنوتية على وجه يصد به الكهان عما اعتادوه من الاستئثار بالسلطة والتحكم فى العقائد فذهبت بهم الى الاعتقاد بأن لا سيطرة الالهم ، ويعلمهم الخضوع للملك وأن هذا الخضوع لا يحط من هيبتهم ووقارهم . وعين بنطاؤر رئيساً للمدرسة الجديدة فأنشأ بها دارا للكتب لم ينشأ بمصر دار مثلها وسماها (دار صحة النفس) وسارت المدرسة فى طريق التقدم والنجاح حتى أصبحت مجمعاً للعلماء ومحطا لرحال الطلاب والفضلاء الوافدين عليها من جميع الانحاء والارجاء .

وقد انشئت على مثالها مدرسة الاسكندرية ونبغ منها مشاهير الفلاسفة والحكماء والادباء والشعراء وغيرهم ممن أحيوا ذكرها ووصلت كتاباتهم ومنشآتهم الينا ، ومن أهمها الاناشيد التى نظمها (أنانا) رفيق بنطاؤر فى عهد التلمذة ورواية الاخوين التى ديجها يراع (جاجابو) .

هذا ولم يستطع الكاهن الاعظم الاقامة فى طيبة ، لأن رعمسيس وقف على سر مسئلة قلب الحمل وعلم كيف استغلها أمينى لدس الدسائس ضده اعتمادا على ما له من النفوذ ولاستمالة قلوب العامة من الجهلاء اليه بامثال تلك الخرافات الباطلة ، فاجابه الى طلبه بان يقيم فى بلدة منديس من بلدان الوجه البحري المعروفة ببلدة الحملان المقدسة . ولم يصادره فى ألقابه ووظائفه السامية وايراداته الواسعة ، بل اقتصر فى نكايته على كلمة قالها فيه ليتناقلها الخلف عن السلف ولتبقى وصمة فى تاريخ حياته الى الاعقاب وهى : «ان أمينى كان فى حاجة الى قضاء حياته مع الحيوانات المقدسة » . على ان هذا التلويح لم يمنع الكاهن الاعظم من السير بين مرؤوسيه بالشدة والهمة اللتين عرف بهما فى طيبة ، فأصبحت منزلته هناك كما كانت هنا من الاحترام ، ولبث بنطاؤر يواصله برسائل المودة الى أن جاءهما اليقين .

وكان أكبر تمثال من تماثيل القطر المصرى قائما بشكله المهيب فى وسط الفناء الاول من بيت رعمسيس الذى سبقت الاشارة اليه . وقد كسر من وسطه بتوالى الدهور عليه ، ولكنه ما برح موضع اعجاب السياح الذين يقصدون اليه لمشاهدته . وقد صنع من الحجر الصلد ممثلا صورة رعمسيس الاكبر ، صنعه فى رعاية الشاعر بنطاؤر (شيراعو) الذى رأيناه فى مغارة العجوز نيخت يصنع تمثالا من الطين للوالى آنى ، ثم حذق صناعته ومهر فيها مع الزمن فنحت ذلك التمثال الذى كان يفتخر به ويعتبره احسن واتقن ما قام بعمله من التماثيل الكثيرة التى نحتت

لتخليد ذكرى ذلك الملك الجليل .

وبعد حريق القصر بعام ابحر الامير راميرى قاصدا الى بلاد (الدنائيد) حيث اقيمت الافراح احتفاء بمقدمه وسرورا باقترانه بوردة حفيدة ملك هذه البلاد . وقد أقام بها حتى توفي هذا الملك فآل الملك اليه وصار بذلك رأس أسرة ملكية جديدة فيها ، ولبث اسم وردة معطرا فى أفواه شعبها الذى اخلص لها ولقرينها الولاء . وهي حقيقة بهذا الاخلاص لانها ذاقت مرارة الفقر وصاب الذل والفاقة فكانت ادرى من غيرها بتخفيف الآلام عن المنكوبين وإغداق الاحسان على المحتاجين . وكانت فى إيتاء المعروف بين الناس كالورد اذا تضوع ريحه ترادف على الالسنة مديحه

تضوع مسكا بطن نعمان اذ بدت
به (وردة) فى سوسن وقطاف

فهرست

الجزء الثانى من رواية وردة

صحيفة

١ الفصل الاول : مكايد ومصائد

٢٥ الفصل الثانى : كيف كان الاله يعبر النيل فى عهد رعمسيس الجليل

٤١ الفصل الثالث : وقائع أميرتين وشاب اقتحم الاهوال فصار من الابطال

٦٧ الفصل الرابع : وليمة فى هيكل والكهان بين المشرب والمأكل

٩١ الفصل الخامس : بيكى احدى حسان طيبة الفاتنات وليلة التجليات

١٢٠ الفصل السادس : تدريب الامراء على الاعمال ليكونوا للغير خير مثال

١٣٧ الفصل السابع : تآمر العواطف على الحب وتأثيرها فى القلب

١٤٥ الفصل الثامن : ما حدث أثناء الوداع من مظاهر الوجد والالتياع

١٧٠ الفصل التاسع : قفار موحشة خطيرة وقلوب حزينة كسيرة

١٩٤ الفصل العاشر : اين يلتقى المرء بربه ويتوجه اليه بكل قلبه

٢٠٢ الفصل الحادى عشر : الرحلة من سيناء الى لبنان وما وقع فيها من غرائب الحدثان

٢٢٠ الفصل الثانى عشر : بداية الحوادث وفاتحة الكوارث

٢٣٣ الفصل الثالث عشر : ليلة تقلد السلاح والاستعداد للكفاح

٢٥١ الفصل الرابع عشر : ذل الانكسار وعز الانتصار

٢٦٨ الفصل الخامس عشر : ملتقى الابطال والخونة الاندال

صحيفة

٢٨١ الفصل السادس عشر : المأدبة الملكية لتنفيذ المؤامرة السياسية

٢٩٤ الفصل السابع عشر : ما يدبر فى الظلام من الجرائم والآثام

٣٠٤ الفصل الثامن عشر : النار ! النار ! وما وقع بالقصر من الدمار

٣١٩ الفصل التاسع عشر : حيث تسهل الامور ويباح المحظور

٣٣١ الفصل المتمم للعشرين : حيث تتفتح أكمام الورد فيشم أريجه من وافاه السعد

٣٤٧ الفصل الحادى والعشرون : موت رجل من أهل الشكوك وموت والدة حميدة السلوك

٣٥٩ الفصل الثانى والعشرون : مسك الختام

فهرست الخطا والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	٤	عيه	عليه
١١	٦	ترتدون	يرتدون
٢٧	١١	الصهبر	الصبر
٤٩	١٦	يشاور	يساور
٩١	١١	منه	منها
٩١	١٤	صفافه	ضفافه
٩٥	١٣	ويلقون	ويلقوا
١٠٢	١٢	فبدأ	فبدا
١٢٦	٢	الطبقات	الاطباق
١٢٩	٩	الا ارتاب	لا ارتاب
١٤٧	١٤	ارآك	رآك
١٥٧	٧	احدا	أحد
١٧٨	١٦	فيناوا	فيناون
١٨٠	١٠	وسئموا	سئموا
١٨٣	٦	وتصحفتهم	وتصفحتهم
١٩١	١٠	خدمة	بخدمة
١٩٣	٥	بنت انات	بنت
٢٠٥	١٣	تثبت	تثبث
٢٣٤	١٦	الحلبة	الجلبة
٢٥٦	٧	حفى	حتى
٢٥٦	١٩	أبين	أنين
٢٦٩	١١	باعت	باعث
٢٨١	٥	الشس	الشمس
٢٩٥	٧	وانتسر	وانتشر
٣٠٨	٩	تويه	ثوبه
٣١١	٢٠	قتلتهم	قتلتهم
٣١٩	١٤	بحيت	بحيث
٣٣٥	١٦	تعبت	تعبث
٣٤٦	١	احنث	احنث

معارج الفلاح

أخرجه الى اللغة العربية

محمد مسعود

معارج الفلاح من الكتب العصرية التي لاغنى عنها لكل قارىء. فهو للطالب المقبل على الحياة العملية مرشده الى ميادينها وسلاحه الكفيل له بالفوز فيها ، ولرب الاسرة قائده الى تنظيم شؤون الأسرة على مايتحقق به معنى السعادة البيتية وللتاجر رائده الى ترويج تجارته وللصانع هاديه الى اتقان صناعته وتوسيع دائرة اعماله وللقارىء ايا كان الناصح الأمين والجليس الذى لايمل

وهو يحتوى اربعة اقسام أولها الفضائل ويبحث فى: الاعتماد على النفس ضبط الارادة ، اختيار المهنة ، المثابرة ، الفراسة والتوسم ، آداب وفضائل شتى ، الصفات الجثمانية . والثانى الوسائل ويتضمن الكلام على : التجارة والمهن الصغيرة ، الاعلان . والثالث الصحة وفيه : بحثان ضافيان فى النظام الغذائى والمبادىء الصحية . والرابع المحاسن ويشتمل على آراء طريفة فى الجمال والرشاقة والنجابة . ويقع هذا الكتاب فى ٢٦٤ صحيفة من القطع الكبير

وثمنه ١٠ قروش صحيحة

ويطلب من مترجمه برئاسة مجلس الوزراء تلفون رقم ٤٢٣ وبمنزله تلفون رقم ٧٢٠٢ ومن المكاتب الشهيرة بانحاء القطر المصرى